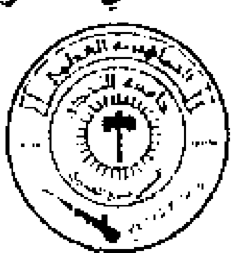
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى
جامعة التحدي - سرت
كلية الآداب والتربية قسم التاريخ



الموريسكيون ودورهم في الحفاظ على الهوية الإسلامية في الأندلس

بحث لنيل درجة التخصص العالي (الماجستير) في التاريخ الإسلامي

إعداد
الطالب/مفتاح علي عثمان عبد الكافي

إشراف:
الأستاذ الدكتور/علي حسين الشطشاط

العام الجامعي: 1373-1374و.ر/2005-2006ف

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

جامعـــــــــة التحدي-سرت

كليـــة الآداب والتربية

قسم التاريخ

"الموريسكيون ودورهم في الحفاظ على الهوية الإسلامية في الاندلس "

إعداد :مفتاح علي عبدالكافي

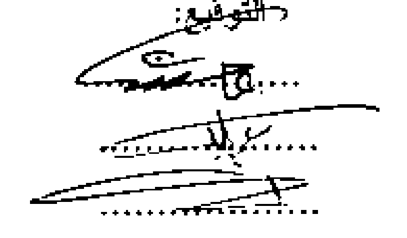
أعضاء لجنة المناقشة :

1- د / علي حسين الشطشاط

2- د / بشير رمضان التليسي

3- د / المبروك اغنية الأسطى

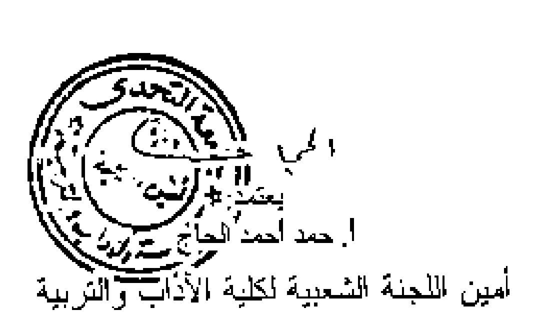
التوقيع:





أ. رحمة ابوبنينة عبدالسلام

أمين ادارة الدراسات العليا بالكلية



يعتمد

أ. حمد احمد الحاج

أمين اللجنة الشعبية لكلية الآداب والتربية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۞ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾

صدق الله العظيم

سورة آل عمران الآيات (173-174)

الإهْدَاءُ

إِلَى نَبْعِ الحَنَانِ وَالعُطْفِ ... إلى وَالِدَتِي الغَالِيَةِ...

رَاجِياً مِنَ اللهِ العَلِي القَدِيرِ أَنْ يَمُدَّهَا بوافر الصّحة وطول العمر

إلى روحِ والِدِي رَاجِيَاً مِنْ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى أَنْ يَرْحَمَهُ بِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ

وَيُدْخِله فَسِيح جَنَّاته...

وَإِلَى زَوْجَتِي رَمْزَاً لكفاحٍ مشتركٍ، وأملاً في حياة زوجية سعيدة...

وَإِلَى أَبْنَائِي وَبَنَاتِي الأَعِزَّاءِ ...

وَإِلَى إِخْوَتِي الكِـــــرَامِ ...

أَهْدِي هَذَا الْجُهْدَ الْمُتَوَاضِعَ

* * * * *

شكر وتقدير

أشكر أستاذي الفاضل **الدكتور/علي حسين الشطشاط** لما بذله معي من جهد، وما قدمه لي من عون في سبيل كتابة هذا البحث، فقد كان لنصائحه وتوجيهاته القيّمة عظيم الأثر للخروج بمستوى الدراسة على الوجه العلمي الصحيح، فأسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العليا أن يسدد خطاه ويوفقه لكل خير وبرّ إنه على ما يشاء قدير.

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذ/**حسين عبد الفتاح** لما قدمه من ملاحظات نحوية ولغوية قيّمة أفادتني كثيراً أثناء كتابتي لهذا البحث، كذلك أشكر الأخوة العاملين بمكتبة جامعة التحدي المركزية والمكتبة المركزية بجامعة قاريونس، ومكتبة أكاديمية الفكر الجماهيري بالمركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، لما قدموه لي من مساعدة وعون.

وأخيراً أشكر كل من مد لي يد العون ولو بكلمة طيبة في سبيل إنجاز هذا البحث.

والله ولي التوفيق

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة

الحمدُ لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحاتُ، والصلاةُ والسّلامُ على سيدنا مُحمدٍ الَّذي أدْخلَ اللهُ تَعالَى بدَعْوَتِهِ الإنْسَانيةَ إلى النُّورِ وأخْرَجَهَا مِنَ الظُّلماتِ، وعَلَى آلهِ وصَحْبِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحْسَانٍ إلى يَوْمِ الدِّيْنِ، وبَعْدُ ...

للتاريخ الأندلسي مكانة خاصة في التاريخ الإسلامي، ذلك أن الأندلس هي الفردوس المفقود بالنسبة للمسلمين، حيث بلغت حضارة الإسلام في تلك البقعة من الأرض درجة عالية جداً من التطور والسمو، وكانت الأندلس مع صقلية، البوابة الرئيسية التي انتقل عبرها الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية إلى أوروبا، وكانت من أكبر العوامل في إيقاظ أوروبا من سباتها، ونقلها من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة. وبالنسبة للمسلمين فإن التاريخ الأندلسي دليل حيٌّ على حيوية الإسلام وعظمته وقدرته على العطاء غير المحدود وعلى نزعته الإنسانية العالمية التي تتجاوز الحدود من أجل العقيدة ونشرها، ونشر الحب والحق والعدل بين أعداد متزايدة من بني البشر.

إن مأساة إنهيار الحكم والوجود الإسلامي في الأندلس يثير في نفوسنا حتى الآن أسى عميقاً؛ على ما أصاب ذلك القطر من آلام وانفصال عن العالم الإسلامي، وأسى أعمق على ما أصاب المسلمين من اضطهاد وقتل وتشريد وتعذيب، والذي يزيد في ألمنا - نحن - هو موقف الأسبان المناقض لموقف الإسلام في الأندلس الذي تمثل في محاولة جادة لاستئصال الإسلام كدين، وكحضارة من الأندلس، واستئصال المسلمين

كأفراد، وكمجتمع له شخصيته المتميزة، وكيانه في تلك البقعة من الأرض، وإن تسامح الإسلام العظيم في تلك البلاد قوبل بأشد وأعنف موجات الاضطهاد والتعصب من قبل الأسبان النصارى، وإن الموازنة بين حال الأندلس إبان ازدهار الحكم الإسلامي فيها، وحالها بعد إخراج المسلمين منها يكشف عن الهوة السحيقة التي انحدرت إليها الأندلس، فكرياً، وسياسياً وحضارياً، وذلك بعد أقل من قرنين من إنهاء حكم المسلمين فيها، وإن تدهور الأندلس يُعزى بالدرجة الأولى إلى الحكم الأسباني المتعصب الأعمى الذي استهدف القضاء على كل آثار المسلمين في الأندلس.

إن الدارس لتاريخ الأندلس في تلك الحقبة يجزم بأن غياب الإدارة الحكيمة، والقيادة الحازمة القوية، هما السببُ في ضياع الأندلس من أيدي المسلمين وسقوطها بيد الأسبان النصارى، هذا، وإن كان قريب إلى الحقيقة فإن هناك أسباباً أخرَ سياسية واقتصادية واجتماعية ساهمت مجتمعة في خروج المسلمين من الأندلس بشكل نهائي.

ونتيجة للمآسي التي حلّت بالمسلمين والأحداث التاريخية المهمة التي وقعت في الأندلس أثناء سيطرة الأسبان النصارى عليها، فقد آثرتُ أن يكون موضوع هذه الدراسة "**الموريسكيون ودورهم في الحفاظ على الهوية الإسلامية في الأندلس**".

وتكمن أهمية هذا الموضوع في النقاط الآتية:

1- إبراز الدور الذي قام به العرب المسلمون في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية في الأندلس، وأثر ذلك على المجتمعات الأوربية حتى بعد خروجهم من الأندلس.

2- توضيح ما قام به الأسبان النصارى ضد المسلمين من اضطهاد وتنكيل وتنصير قسري وتهجير، ومقارنة ذلك بما يجري في ديار المسلمين؛ لأخذ العبر والدروس المستفادة من كل ذلك.

3- إبراز قوة الدين الإسلامي في تقوية الروح القتالية والصمود والتصدي لكل محاولات التنصير والتنكيل بالمسلمين.

ومن الأسباب التي دعتني إلى اختيار هذا الموضوع:

1- قناعتي التامة بأن التاريخ يجب أن يُكتب من جديد للتخلص من عقدة التفوق الماضوي ونقد الذات، لتجاوز السلبيات والهفوات والأخطاء وأن يكتب كتابة موضوعية بحيث تعطي نتائج وتقييمات واقعية تثري البحث لفهم التاريخ وفلسفته.

2- اهتمامي الشخصي بدراسة تاريخ المسلمين في الأندلس بشكل عام، ومحاولة مني لإضافة الجديد حول تاريخ الموريسكيين.

3- إن قضية الموريسكيين تمثل حلقة من حلقات صراع الحضارات، وصورة تعكس نوع التعامل في ظل المناداة إلى حوار الحضارات والأديان، لذا فهو موضوع متجدد عبر التاريخ، ويستحق البحث فيه والتعمق في أغواره.

4- إبراز ما ينتج عن الإهمال والإنغماس في الملذات والاستئثار بالسلطة من قبل الحكام العرب والمسلمين؛ من نتائج خطيرة قد تؤدي إلى تدمير الإسلام والمسلمين.

5- الوقوف على أسباب انهيار الوجود العربي والحضارة الإسلامية في الأندلس، وانتصار الجانب النصراني على العرب المسلمين، واستخلاص الدروس من هذا الصراع السياسي والعسكري والديني.

لقد أقدمتُ على هذا البحث؛ يحدوني وطيد الأمل في أن أتوخى تحقيق عدة أهداف، يتمثل أهمها في الآتي:

1- المران والممارسة لعملية البحث العلمي، وهو الهدف الأول والأساسي من وراء إجراء هذا البحث.

2- دراسة بعض الظواهر السياسية والاجتماعية في المجتمع النصراني، خلال تلك الحقبة، ومقارنتها بمعاملة المسلمين للرعايا الأجانب.

3- أن القوة ليست دائماً هي صاحبة القرار النهائي في حسم الأمور، ولكن هناك ما هو أهم من القوة وهو الإيمان والتصميم على نيل الحقّ.

4- التدليل على أن كفاح الموريسكيين في الأندلس لايزال يمثل مادة خصبة للبحث والدراسة، ولايزال يحوي الكثير من الأسرار والأخبار التي لم تُكشف بعد.

هذا وقد اتبعت في هذه الدراسة المنهج التاريخي السردي التحليلي المقارن، الذي يعتمد على جمع المعلومات من مصادرها وربطها، ومن ثمّ تحليلها ومقارنتها لإبراز الدور الكبير الذي لعبه الموريسكيون في تلك الحقبة من تاريخ الأندلس.

وقد واجهتني عدة صعوبات أثناء كتابة بحثي هذا، تمثّلت في قلة المادة المكتوبة عن تاريخ الموريسكيين خاصة في تلك الفترة التي أعقبت سقوط غرناطة، مما جعلني أسعى إلى لملمة ما توفر من معلومات عن تاريخ الموريسكيين بين المصادر والمراجع الأندلسية المختلفة، وبعون الله تمكنت - إلى حد ما - من التغلب على هذه الصعوبات بفضل ما توفر لي من مصادر ومراجع بمكتبة جامعة التحدي المركزية، ومكتبة جامعة قاريونس المركزية، ومكتبة أكاديمية الفكر الجماهيري، والمكتبة الخاصة للأستاذ الدكتور علي الشطشاط، وما لم أوفق في الحصول عليه اضطرني للسفر عدة مرات والتنقل بين الجامعات والمكتبات العامة والخاصة في كل من طرابلس وبنغازي ومصراته وتونس للإطلاع على الكتب والمجلات والرسائل العلمية التي تخص موضوع الدراسة، والتي ساهمت بشكل كبير في سد جوانب عدة من موضوع البحث.

أما عن الدراسات السابقة حول موضوع البحث، فهناك دراسة قام بها الدكتور "محمد رزوق" عن المسلمين بإسبانيا خلال القرن السادس عشر "المواجهة ورفض الإندماج"، أكدت هذه الدراسة على أن تاريخ المسلمين في الأندلس لم ينته بسقوط غرناطة عام (897هـ/1492م)، بل إن ذلك يمثل نقطة انطلاق تاريخية لمعاناة الموريسكيين قد بدأت حتى تاريخ الطرد عام (1018هـ/1609م).

وقد اعتمدت على عدد من المصادر والمراجع لتدوين هذا البحث، فمن أهم المصادر:

1- كتاب "البيان المُغْرب في أخبار الأندلس والمغرب" لمؤلفه ابن عذاري أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري المراكشي (كان حياً سنة 712هـ/1312م)، ويعد كتابه الذي يقع في عدة أجزاء موسوعة قيمة لتاريخ المغرب والأندلس منذ الفتح حتى

عصر المؤلف أي القرن الثامن الهجري، وتم للباحث توفر مــادة تاريخيــة قيمــة لمعالجة فصول هذا البحث.

2-كتاب "أعمال الأعلام" في جزئيه الثاني والثالث للمؤرخ لسان الدين بــن الخطيــب محمد بن عبد الله (م: سنة 776هـ/1374م)، وهو يمثل أهمية بالغة ومــصدراً لا يستغني عنه الباحث في تاريخ الأندلس، وتميزت كتابات صاحبه بالدقــة والقيمــة التاريخية للأحداث التي يدونها، وساهم ذلك بشكل فعلي في إثــراء هــذا البحــث ومعالجة عدد من إشكالياته خاصة في الفصل الأول.

3-كتاب "العبر وديوان المبتدأ والخبر" لمؤلفه عبد الرحمن محمد بن خلدون (م: ســنة 808هـ/1405م)، الذي يقع في سبع مجلدات ويحتوي على معلومــات تاريخيــة مهمة، وقد استفاد الباحث من المجلد الرابع والسادس لاحتوائهما علــى معلومــات تاريخية قيمة عن الحقبة الزمنية التي يتناولها موضوع هذا البحث.

4-كتاب "نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب" لمؤلفه المقري شهاب الــدين أبــي العباس أحمد بن محمد التلمساني (م: سنة 1041هـ/1631م)، فهــو يعتبــر مــن الموسوعات التاريخية المهمة رغم بعده الزمني لأنه ينقل عن مــصادر معاصــرة للأحداث لم تصل إلينا. غير أن ما يعيب كتاب المقري عدم تسلسله الأحداث تسلسلاً منطقياً، حيث تعرض إلى سقوط غرناطة والثورات المتلاحقة التي عرفتها غرناطة عقب سقوطها إلــى أن صــدر قــرار الطــرد (1018هــ/1609م) وخــروج الموريكسيون إلى المغرب، وكذلك جهادهم البحري، ويعد هذا الكتاب وثيقة تاريخية مهمة، أفدت منه في فصول البحث.

5-كتاب "الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى" لمؤلفه أبو العباس أحمد بن خالــد الناصري (م: سنة 1251هـ/1835م)، كانت له أهمية واضحة متمثلة في اعتماده في تصنيفه على مؤرخي المغرب، ويتناول كتاب الاستقصاء التاريخ العــام لــبلاد المغرب حتى عصر المؤلف، وهو وثيقة تاريخية مهمة، فقد كــان منبعــاً غزيــراً أمدني بكثير من المعلومات عن هذه الفترة موضوع الدراسة.

6-كتاب "نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر" لمؤلف مجهول، حيث ركّز فيه المؤلف على الأحداث التي أدت إلى سقوط غرناطة، وقد كان معاصراً لها، ويتميز بوصف مراحل نزّوح الأندلسيين إلى المغرب، والأوضاع التي وجدوها عليها. كما يتميز بتعرضه للأماكن التي انتقل إليها الأندلسيون، وقد أفادني هذا الكتاب في بحثي هذا لمعالجة عدد من الإشكاليات التي واجهتني.

7-كتاب "ناصر الدين على القوم الكافرين" لمؤلفه أحمد بن قاسم الحجري (م: سنة 1051هـ/1641م)، حيث تعرض مؤلفه إلى ظروف الموريسكيين بإسبانيا، وما كانوا يعانونه من خلال تجربته الشخصية، وإلى قرار الطرد وأسبابه، وكذلك إلى تمكنه من الوصول إلى مدينة مراكش زمن المنصور، واشتغاله بالترجمة لدى ابنه زيدان وإلى سفارته إلى كل من فرنسا وهولندا ومصر، بل وبالمغرب نفسه، وقد استفدت منه في الفصلين الثالث والرابع خاصة.

والباحث في علم التاريخ لابد له أن يشمل موضوعه بعض المدن والأقاليم التي يقوم عليها موضوع بحثه. بل نجد أن بعضها يمثل عموداً فقرياً في الكثير من محاوره، ولتعريف القارئ بها لجأ إلى الكتب والموسوعات الجغرافية ليجد فيها ما يوفر حاجة القارئ ويشفي ما يدور في ذهنه من غموض وتساؤل، ومن تلك الكتب والموسوعات ما يلي:

1-كتاب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" لمؤلفه أبي عبد الله بن محمد الإدريسي (م: سنة 548هـ/1153م)، الذي ولد بسبتة بالمغرب الأقصى ودرس بقرطبة وتطوف ببلاد العالم الإسلامي والأوروبي مستفيداً بذلك مما شاهده من عادات تلك البلاد ومعالمها الجغرافية، وقد استخدم الباحث ذلك الكتاب في مواضع متفرقة من موضوع بحثه، موضحاً من خلاله بعض المدن والأقاليم التي قد تجعل السؤال مطروحاً لمعرفتها.

2-كتاب "معجم البلدان" لمؤلفه أبي عبد الله ياقوت الحموي" (م: سنة 626هـ/1228م)، وهو لا يقل أهمية عن كتاب الإدريسي في بيان أهمية المدن والبقاع التي ذكرها، ولقد استفدت من هذا الكتاب في مواضع كثيرة من بحثي هذا.

3-كتاب "الروض المعطار في خبر الأقطار" لمؤلفه أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري (م: في أواخر القرن التاسع الهجري/السادس عشر الميلادي)، وتكمن أهميته في أن مؤلفه قد استعرض جغرافية الأندلس ومدنها وحصونها وقلاعها، وقد أفدت من هذا الكتاب كثيراً في فصول البحث.

أما فيما يخص المراجع التي تناولت الموضوع بشكل عام فهي متنوعة ومتعددة منها:

1-كتاب "نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين" لمؤلفه محمد عبد الله عنان، وقد أفرد عنان في كتابه هذا تاريخ مملكة غرناطة ونهاية دولة الإسلام في الأندلس، وكذلك مأساة الموريسكيين أو العرب المتنصرين كل على حدة، وقد توخى فيه صاحبه الدقة والوضوح والاستيعاب للمادة التاريخية، وقد أفادني كثيراً أثناء كتابتي للفصلين الثالث والرابع من موضوع الدراسة.

2-كتاب "التنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين" لمؤلفه محمد عبده حتاملة، تناول هذا الكتاب فترة حرجة من تاريخ المسلمين في الأندلس، تبدأ بسقوط غرناطة، وتنتهي بالتطبيق الشامل للتنصير القسري لمسلمي الأندلس أو بالطرد والتهجير، وقد أفدت منه كثيراً في فصول البحث.

3-كتاب "نهاية الوجود العربي في الأندلس" لمؤلفه علي حسين الشطشاط، استعرض فيه الحقبة الأخيرة من الوجود الإسلامي في الأندلس، حيث تبدأ هذه الحقبة بسقوط الخلافة الأموية ببلاد الأندلس (422هـ/1031م) وتنتهي بسقوط غرناطة (897هـ/1492م)، وقد توخى فيه صاحبه التنظيم والترتيب للحقائق التاريخية، وأفادني أثناء كتابة البحث خاصة في الفصلين الأخيرين من موضوع الدراسة.

4-كتاب "دراسات في التاريخ الإسلامي" لمؤلفه أمين توفيق الطيبي، الذي تناول فيه صاحبه دراسات ومقالات في التاريخ العربي الإسلامي، وهي تندرج في أربعة محاور، ولقد استفدت من المحور الثاني في كتابة هذا البحث، وخاصة في الفصل الرابع منه.

هذا إضافة إلى مجموعة كبيرة من المصادر والمراجع والمجلات التي لا تقل عن غيرها أهمية في موضوع الدراسة والتي يطول المقام هنا لذكرها.

وقد قُسمت الدراسة إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة تناول الفصل الأول: **"الفتح العربي لبلاد الأندلس"** وذلك بإعطاء لمحة جغرافية وتاريخية عن بلاد الأندلس، ثم الحديث عن البدايات الأولى للفتح العربي للأندلس، حتى عصر الخلافة في الأندلس، حيث ركّزت على أبرز الولاة والأمراء والخلفاء الذين قاموا بأعمال عظيمة في التاريخ الأندلسي خلال تلك الفترة التاريخية، والسياسة الداخلية والخارجية التي ساروا عليها طيلة فترة حكمهم.

وجاء الفصل الثاني للحديث عن **"الأحوال العامة قبل سقوط غرناطة"** وفيه أبرزت الأحداث والمتغيرات السياسية التي مرت بها الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية، حيث تمزقت وحدة الأندلس وانهيارها بعد أن كانت في ذروة المجد وقمة التقدم، ثم جرنا الحديث عن "تاريخ مملكة غرناطة تحت حكم بني الأحمر"،وبينا أسباب ثبات غرناطة وصمودها، وسوف نرى أنها عُمّرت ما يزيد على قرنين ونصف، ثم سقطت في أيدي الأسبان النصارى، وطويت بذلك دولة الإسلام في الأندلس.

واهتم الفصل الثالث بدراسة عنوانها **"المسلمون بعد سقوط غرناطة" (الموريسكيون)**، وتناولت فيه فترة حرجة من تاريخ المسلمين في الأندلس، تبدأ بسقوط غرناطة وما رافقها من اضطهاد وضياع التراث، ثم يدفعنا البحث إلى الحديث عن انتفاضات وثورات الموريسكيين ومحاكم التفتيش التي تعرضوا لها، واستغاثاتهم لطلب النجدة من المسلمين، وفي نهاية هذا الفصل تطرقت إلى تطور القضية الموريسكية.

أما الفصل الرابع والأخير فيختص بدراسة "**الموريسكيين والحفاظ على الهوية الإسلامية**" حيث تحدثت فيه عن حفاظ الموريسكيين على فقائهم وتنظيمــاتهم الدينيــة، وممارسة شعائرهم الدينية سراً، والالتجاء إلى مبدأ التقية، ورفضهم للتقاليد والعــادات النصرانية، ثم التحدث عن قرار النفي وآثاره، ثم جرنا البحث إلى الحديث عن الأحوال المعيشية والمهارات التقنية للموريسكيين وكيف كانت مظاهر الحياة الاجتماعية للمجتمع الموريسكي ذلك الوقت.

الفصل الأول
الفتح العربي لبلاد الأندلس

أولاً: مقدمـــة جغرافيـــة وتاريخيـــة عـــن شـــبه الجزيرة الإيبيرية.
ثانياً: البدايات الأولى للفتح العربي للأندلس.
ثالثاً: عصر الولاة في الأندلس.
رابعاً: عصر الإمارة في الأندلس.
خامساً: عصر الخلافة في الأندلس.

أولاً: مقدمة جغرافية وتاريخية عن شبه الجزيرة الإيبيرية:

1- نظرة جغرافية عن شبه جزيرة إيبيرية:

المقصود بشبه "جزيرة ايبيرية" هو ما يسميه العرب "بالأندلس" وما تعرف اليوم "بأسبانيا" و"البرتغال"، تلك البلاد التي كانت شاسعة البعد عن مركز الخلافة الأموية في دمشق،ويكفي أن نذكر أن المسافة بين "دمشق" و"قرطبة" سبعة آلاف كيلومتر، وهذه المسافة يستلزم قطعها على ظهر فرس جيد أربعة اشهر، فكأنك لو أرسلت رسالة من قرطبة إلى دمشق وصلت بعد أربعة أشهر وجاء الرد بعد أربعة أشهر أخرى[1].

وبالرغم من بعد هذه الأقاليم عن مركز الخلافة (مركز الدولة الإسلامية) إلا أن العرب استطاعوا فرض أنفسهم عليه وحكموه وعاشوا فيه، وحولوه إلى بلد عربي إسلامي.

تقع شبه الجزيرة الإيبيرية (الأندلس) على مثلث من الأرض (يضيق شرقاً ويتسع غرباً)[2]، في الجنوب الغربي من القارة الأوروبية مقابل السواحل الشمالية للمغرب تفصلها من الشمال عن جنوب فرنسا جبال ألبرت أو البرتات Pyrenees، وتُعرف بالأسبانية (Pirineos)، وتسمى أحياناً "البرانس" وهي تقع شمال قرطبة، وتتصل الأندلس بالأرض الكبيرة (فرنسا) يفصلها من الجنوب مضيق جبل طارق، الذي يبلغ عرضه من الشرق إلى الغرب 13-37 كم[3]، وطوله حوالي 80 كم، فهو إذن ذراع ضيق من الماء يمكن في يوم صحو رؤية الشاطئ المغربي من الشاطئ

(1) مؤنس، حسين: معالم تاريخ المغرب والأندلس، مطابع المستقبل، (القاهرة، 1980)، ص227.

(2) المراكشي، عبد الواحد: المعجم في تلخيص أخبار المغرب (القاهرة، 1963) ص5-6. كذلك الحميري، محمد بن عبد المنعم السبتي :الروض المعطار في أخبار الأقطار، نشر وترجمة ليفي بروفنسال (القاهرة، 1937)، ص2، الشطشاط، علي حسين: تاريخ الإسلام في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة، 2001)، ص16.

(3) البكري أبو عبد الله بن عبد العزيز: جغرافية الأندلس وأوروبا (من كتاب المسالك والممالك)، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي (بيروت، 1968)، 85، 129. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص16، عنان، محمد عبد الله: دولة الإسلام في الأندلس (القاهرة، 1969) 82/53/1.

الأسباني وبالعكس. وبهذا تكون مسافة المضيق التي تفصل المغرب عن الأندلس مسافة ضيقة لا وزن لها من ناحية الانتشار العسكري أو الثقافي والاقتصادي بينهما، ومن هنا نشأ صراع تقليدي مستمر بين الشاطئين الإفريقي والأوروبي حول السيطرة على هذه المنطقة المحيطة بالمضيق والمعروفة باسم العدوتين: عدوة المغرب* وعدوة الأندلس[1].

تقع على المضيق بعض مدن المغرب الأقصى في الشمال الأفريقي ويصل المضيق بين شبه الجزيرة الإيبيرية والمغرب الأقصى وما بعده براً، كما يصل بين المحيط الأطلسي والبحر المتوسط بحراً[2].

تقع سواحل شبه الجزيرة الإيبيرية الشمالية والشمالية الغربية على المحيط الأطلسي عند خليج بستاية (Biscay) الذي تقع عليه مدينة خيخون (Cijon). وتقع على سواحلها الغربية على المحيط الأطلسي (بحر الظلمات)، وشواطئها الشرقية والجنوبية الشرقية على البحر المتوسط (البحر الرومي)[3].

وقد أطلق على شبه الجزيرة اسم "إيبيرية" نسبة إلى أمة قديمة يُقال لها الإيبير (IBER)، وهي أقدم أمة عمرت بلاد أسبانيا والبرتغال[4]. أما لفظة الأندلس فهي مشتقة من اسم "الفاندالس" (Vandali) أو الوندال، وهم من الشعوب الذين سكنوا نهر "الأوردور" (Order) ونهر "الفيستولي" (Vistale) في شرقي "ألمانيا"، وهؤلاء الفاندالس زحفوا سنة 411 ق.م. من الشمال إلى الجنوب حتى بلغوا مضيق جبل طارق، ثم وصلوا إلى أفريقية والمغرب على "أسبانيا" التي استقر فيها "الفاندالس" اسم

---

* العدوة معناها الجانب أو الشاطئ – علي الشطشاط: المرجع السابق، ص16.

(1) العبادي، أحمد مختار: في التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة (بيروت، 1972)، ص231.

(2) الحجي، عبد الرحمن علي: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، دار العلم (بيروت، 1976)، ص36.

(3) المرجع نفسه، ص36.

(4) الحميري: الروض المعطار، ص5. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص17.

"فانداليسيا" (Vandaucia) نسبة إلى اسم "الفاندالس"، ولما جاء العرب إلى هذه البلاد وافتتحوها عربوا الاسم وأطلقوا عليه اسم "أندلس"[1].

وبعد سقوط مملكة غرناطة وانتهاء الحكم الإسلامي في أسبانيا سنة 897هـ/1492م، أطلق الأسبان اسم اندالوثيا (Anducla) على الولايات الجنوبية الأسبانية، وهي المنطقة التي تشمل اليوم ولايات قرطبة وإشبيلية وغرناطة[2]. واعتبر العرب أن الأندلس هي جميع الجزيرة الإيبيرية (أسبانيا والبرتغال اليوم) رغم أن سيادة العرب المسلمين لم تنتشر بصورة مطلقة على جميع أجزائها[3].

وهذه البلاد تقسم جغرافياً إلى قسمين الأندلس العليا، وهي شمالي الوادي الكبير، والأندلس السفلى وهي جنوبه وفي هذا الوادي أكبر نهر في الأندلس بعد نهر إبره[4].

أما سكان الأندلس فهم في الأصل خليط من: الكلتيين والإيبريين والوندال[5]. والآلان والسويف والقوط الشرقيين والقوط الغربيين والفينيقيين والرومان، فهم حقيقة خليط من عناصر فينيقية ورومانية وجرمانية وإغريقية، ويهودية ثم جاءت العناصر الإسلامية التي يمثلها العرب والبربر[6].

---

(1) المقري، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد (القاهرة، 1302هـ) 1/127-139. كذلك ابن عذاري المراكشي، أبو العباس أحمد بن محمد: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ليفي بروفنثال، دار الثقافة (بيروت، بدون تاريخ) 1/1-3، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص17.

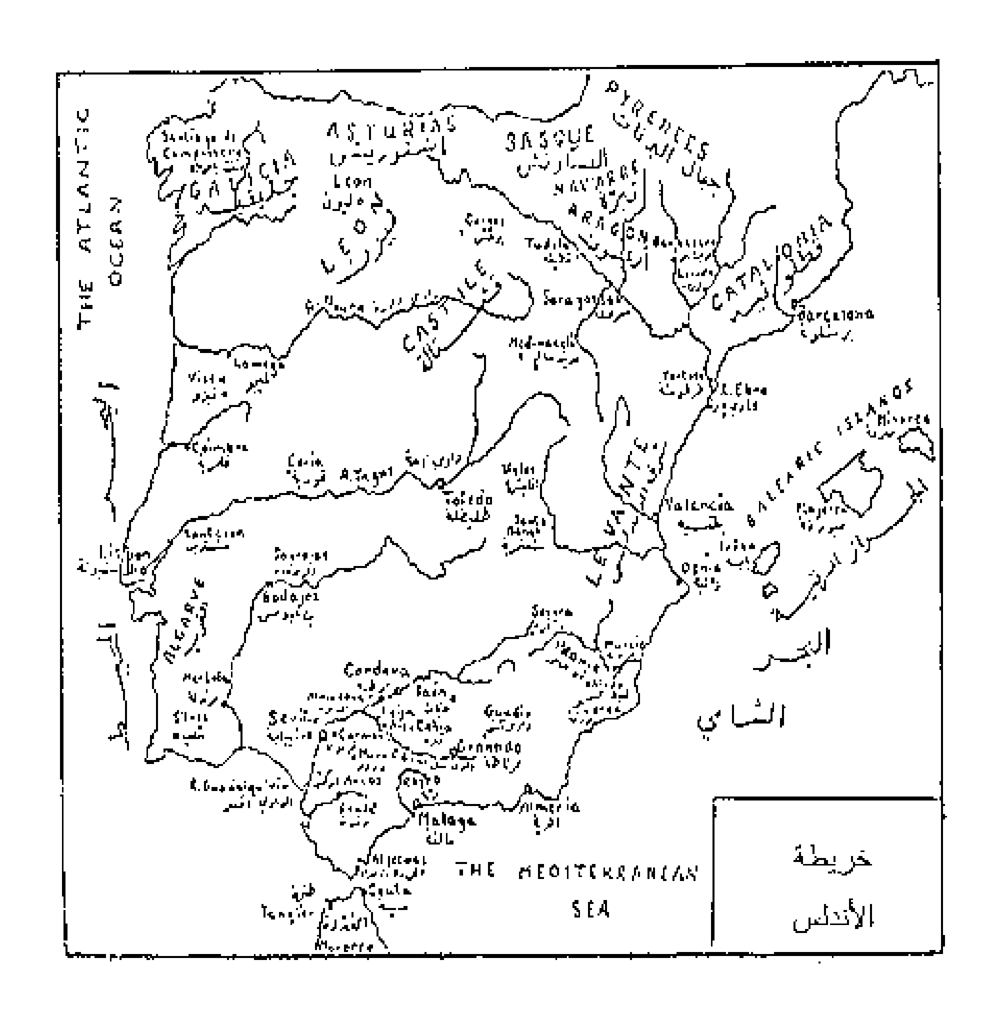
(2) أحمد العبادي: المرجع السابق، ص227.

(3) بيضون، إبراهيم: الدولة العربية في أسبانية حتى سقوط الخلافة، دار النهضة (بيروت، 1986)، ص65-66.

(4) حلاق، حسان: العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، الأندلس، صقلية الشام – الدار الجامعية (بيروت، 1986)، ص ص15-16. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص18.

(5) الوندال: إحدى جماعات المتبربرين من الجرمان = علي الشطشاط: المرجع السابق، ص18، هامش2.

(6) حسان حلاق: المرجع السابق، ص ص15-16. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص18.



خريطة الأندلس

نقلاً عن: أمين توفيق الطيبي: دراسات في التاريخ الإسلامي، الدار الأندلسية للطباعة، (طرابلس، 1992م)، ص296.

2- الوضع في أسبانيا قُبيل الفتح الإسلامي:

أما عن حالة أسبانيا قبل الفتح الإسلامي فكان الوندال هم حكامها إلى أن هاجمهم القوط الغربيين وتمكنوا من طردهم إلى أفريقية سنة 456م، واستطاعوا بسط سلطانهم على الأندلس كلها في نهاية القرن الخامس الميلادي، واتخذ القوط "طليطلة" عاصمة لملكهم، واعتنقوا المسيحية، وتأثروا بالحضارة والأنظمة الرومانية في قوانينهم ونظمهم، وظلوا يحكمون الأندلس إلى أن قَدِمَ المسلمون وتغلبوا عليهم سنة 92هـ/711م. وقد ساد البلاد خلال حكمهم وضع شاذ من الناحية الاجتماعية والاقتصادية والدينية والسياسية، حيث كان المجتمع مقسماً إلى طبقات يحكم بعضها البعض الآخر بعنف وقسوة[1].

استبد القوط (Coths) بالحكم، لاسيما قبيل الفتح الإسلامي، وبسوء سياستهم ساءت حالة أسبانيا واضطربت حياة سكانها، فانتشرت الفوضى وأصبحت غالبية الشعب تعيش عيشة ضنكة لسوء الأحوال المعيشية ولسياسة الاستغلال. فكان الشعب يُستغل لحساب طبقة الشعب المقهور والحاكمين، وفيما بين الحاكمين أنفسهم، وكان الشعب الأسباني مثل غيره من الشعوب الأوروبية مقسماً إلى طبقات عديدة هضمت حقوقها، مع وجود الفوارق الطبقية؛ وكانت الأسرة الحاكمة بيدها كل شئ دون سواد الشعب، الذي يلاقي الإهمال والظلم وقد انقسم الشعب إلى الطبقات التالية:

أ- **طبقة النبلاء:** ومنها الطبقة الحاكمة وكان التنافس على أشده بين هذه الطبقة للوصول إلى العرش بالرغم من أن الملك كان ينتخب انتخاباً، وهم من سلالة القوط الفاتحين، التي استولت على أكثر الأراضي الزراعية الخصبة[2].

---

(1) زيتون، محمد محمد: المسلمون في المغرب والأندلس، دار الوفاء للطباعة (القاهرة، 1984) ص149. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص18.

(2) العبادي، عبد الحميد: المجمل في تاريخ الأندلس، دار القلم (القاهرة، 1964)، ص32. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص19.

2- **طبقة رجال الكنيسة (رجال الدين):** وهذه الطبقة تشارك النبلاء في حكـم الـبلاد والاستمتاع بخيراتها، وكان نفوذهم غير محدود.

3- **الطبقة الوسطى:** وهي طبقة التجّار والزرّاع والمّلاك الـصغار الـذين يتحملـون الضرائب المختلفة فكانت حالتهم سيئة.

4- **الطبقة الدنيا:** وهي طبقة عبيد الأرض (Serfs) الذين يتبعون مالكها وينتقلون مع ملكيتها من سيد إلى آخر، ولم تكن لهم حقوق.

5- **طبقة العبيد (Slaves):** وهذه الطبقة تكونت من أسرى الحرب ويتـصرف فـيهم بيعاً وشراء، ولم تعط لهم ولا لعبيد الأرض الحقوق التي يستحقونها فلـم ينـالوا خيراً[1].

6- **طبقة اليهود:** وهذه الطبقة تختلف عن الطبقات السابقة من حيث الـذين وهـؤلاء ازدادوا عدداً في أسبانيا، حيث بسطوا نفوذهم في المجال الاقتصادي، ولكنهم عانوا الكثير من عسف الملـوك والكهنـة والنـبلاء، وذاقـوا شـتى ألـوان الجـور والاضطهاد،ودفعهم ذلك إلى التآمر وتدبير ثورة على الحكم القائم، ولكن مؤامراتهم اكتشفت قبل القيام بها سنة 694م في عهد الملك "اجسيكا"، الذي وافقه الأحبار في طليطلة على معاملتهم معاملة قاسية فنكّل بهم وصادر أملاكهم وقضى علـى مـن بقي منهم بالرّق الأبدي للنصارى ووزعهم شيباً وشـباباً، ذكـوراً وإناثـاً علـى المسيحيين، فأما الشيوخ فقد سُمح لهم بالبقاء على ديـنهم القـديم، وأمـا الـشبان والأطفال فقد لقنوا العقيدة المسيحية ونشؤوا عليها فصار لا يتزوج عبد يهودي إلا بجارية نصرانية ولا تتزوج يهودية إلا لنصراني[2]. وبذلك ذاق اليهود مرارة الذل

---

(1) الحميري: الروض المعطار، 170. كذلك عنان: دولة الإسلام فـي الأنـدلس، 32/1، عبـد الـرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي، ص29-30، أحمد العبادي: المرجع السابق، ص259، عبد الحميد العبادي: المرجع السابق، ص ص32-33.

(2) أمير علي، سيد: مختصر تاريخ العرب (بدون مكان، بدون تاريخ)، ص113.كذلك أرسلان، شـكيب: خلاصة تاريخ الأندلس، منشورات دار مكتبة الحياة (بيروت، 1983) ص50، محمد زيتون: المرجع=

والهوان والاضطهاد مع بقية طوائف الشعب التي صارت تنتظر الخـلاص ممـا تعانيه دون أن تجد إلى ذلك سـبيلاً. وإلـى جانـب هـذا الوضـع الاجتمـاعي والاقتصادي الظالم كان الوضع الـسياسي مملـوء بالاضـطرابات والانقلابـات السياسية[1].

وفي بداية القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي كان على عرش الأندلس الملك غيطشة (Witiza) والروايات الأسبانية تختلف في أمره فيصفه البعض بحسن الخلـق والسيرة وبالحكمة، وبالعمل على ردّ المظالم وإقامة العدل، بينما يصفه آخرون بـالظلم والجور والبغي على كل من يخالفه أو يقف في سبيل أطماعه. وقد تمكن غيطشة مـن القضاء على الثورات التي قامت ضده جميعاً ما عدا الثورات التي تزعمها (لـذريق) "Rodrigo" الذي انضم إليه رجال الدين والأشراف وأعلن نفسه ملكاً وتمكـن مـن القضاء على "غيطشة" بعد خوض حرب أهلية عنيفة[2]. وذلك حـوالي سـنة 708 أو 710م وتختلف الروايات التاريخية اختلافاً كبيراً في تحديد نهايته، فمنها ما يذكر أنـه مات ميتة طبيعية، والبعض الآخر يقول إنه ترك العرش لوريثـه "أخـيلا" (Achila) الذي كان حاكماً لمقاطعتين هامتين في الشمال[3].

ثانياً: البدايات الأولى للفتح العربي للأندلس:

إذا تصفحنا كتب التاريخ التي تناولت الفتوحات العربية، نلاحظ أنها أحاطت هذه الفتوحات بهالة من الخيال والتنبؤات، ونسبت إلى المسلمين وقوادهم أعمـالاً خارقـة

=السابق، ص ص150-151، أحمد العبادي: المرجع السابق، ص260، علـي الشطـشاط: المرجـع السابق، ص20.

(1) علي الشطشاط: المرجع السابق، ص20.

(2) المرجع نفسه، ص20، كذلك محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، 33/1، محمـد زيتـون: المرجـع السابق، ص151.

(3) محمد زيتون: المرجع السابق، ص151.

للبشر، لأن العناية الإلهية كانت معهم تنقذهم وترعاهم رغم قلتهم، وتقودهم إلى النصر دائماً كما لو كان الأمر يتعلق بمعجزة من المعجزات[1].

والحقيقة أن هذه الصورة، لا تنطبق على الواقع التاريخي، لأن القيادة العليا للمسلمين كانت حريصة كل الحرص على سلامة أرواح جنودها، فلم تقدم على أي عمل حربي، إلا بعد دراسة شاملة وتدبير محكم ووضع الخطط العسكرية الدقيقة المناسبة لجميع احتمالات النصر أو الهزيمة، حفاظاً على أرواح المسلمين[2].

وكما كان فتح مصر على يد "عمرو بن العاص"، نتيجة لخطة موضوعة أقرها الخليفة "عمر بن الخطاب" مع كبار قواده في اجتماع "الجابية" في الجولان جنوبي دمشق سنة (18هـ/639م)، كذلك كان فتح المسلمين للأندلس نتيجة لخطة موضوعة أيضاً، أقرها الخليفة الأموي "الوليد بن عبد الملك" بدمشق، باتفاق مع قائده على المغرب "موسى بن نصير"[3]، هادفين إلى نشر الدعوة الإسلامية وإقامة مشاعلها التي ستنقذه مما تروى وتجعله المنبع لبعث الحضارة الأوروبية الحديثة[4]. ولعلنا نتساءل ما العوامل التي دفعت المسلمين إلى فتح الأندلس؟ وما الأسباب التي ساعدت على هذا الفتح؟ وأخيراً ما هي النتائج التي ترتبت على فتح الأندلس؟

1- أسباب الفتح:

اختلف المؤرخون حول الأسباب التي دفعت المسلمين إلى فتح الأندلس، وهي بالتأكيد أسباب عديدة أهمها:

---

(1) ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد: وفيات الأعيان، وأنباء أبناء الزمان (القاهرة، 1950)، 3/4-4. كذلك ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي كرم محمد بن محمد: الكامل= =في التاريخ، دار الصادر (بيروت، 1979)، 269/4. سالم، السيد عبد العزيز: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (الإسكندرية، 1961)، ص77، أحمد العبادي: المرجع السابق، ص53.

(2) أحمد العبادي: المرجع السابق، ص53.

(3) ابن عذاري: البيان المغرب، 6/2. كذلك أحمد العبادي: المرجع السابق، ص54.

(4) محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، 33/1-34. كذلك محمد زيتون: المرجع السابق، ص152-153، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص23.

أ- كان العرب آنذاك في أوج قوتهم ومجدهم وفتوحاتهم التي وصلت إلى أقصى بلاد الشرق وأقصى بلاد المغرب، ونالوا من الانتصارات خلال نصف قرن من الزمن ما أذهل العالم في ذلك الوقت، فليس من الغريب أن يكونوا قد فكروا بعد وصولهم إلى المضيق الفاصل بين أفريقية وأوروبا، أن يجتازوه، وينساحوا في تلك البلاد والتي كانوا يسمعون عن خصوبتها وغناها[1].

ب- مما شجع العرب أيضاً على التفكير في مشروعهم ما كانوا يسمعونه عن الأحوال الداخلية في أسبانيا من نزاع على الحكم وخاصة الانقلاب الذي قام به "لذريق" "Rodrigo" على الملك "غيطشة" "Witiza" وما كان في نفوس أولاد الملك المخلوع من رغبة في الانتقام ممن سلب عرش والدهم[2].

ج- يقال إن الكونت "يوليان" حاكم "سبته" لم يكن على وفاق مع الملك الجديد "لذريق" وأنه لازال يكن الولاء والطاعة للملك السابق "غيطشة" وأنه لم يكن يملك شيئاً من الشرعية في تسلمه مقاليد السلطة والحكم، بل هو مغتصب له[3].

د- أن توجه "يوليان" عرض المساعدة على العرب لفتح الأندلس والقضاء على حكم "لذريق" ربما تكون قد جاءت من حسن العلاقة التي كانت تربط "يوليان" بأولاد الملك المخلوع "غيطشة" ويقال أن أولاد "غيطشة" كتبوا إلى "يوليان" مساعدته ضد "لذريق" وربما أوحوا إليه فكرة إدخال العرب للأندلس عندما علموا بأشرافهم على البحر عند طنجة[4].

ويذكر بعض المؤرخين أن أولاد "غيطشة" قدموا إلى أفريقية بأنفسهم لطلب العون من العرب للتخلص من "لذريق" وإعادة المُلك لهم. وفي ذلك يقول "ابن

---

(1) الصوفي، خالد: تاريخ العرب في الأندلس (الفتح وعصر الولاة)، دار النجاح (بيروت، 1971)، ص76.

(2) خالد الصوفي: المرجع السابق، ص77. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص24.

(3) المرجع نفسه، ص77. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص24.

(4) المرجع نفسه، ص77، كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص24، السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص67.

الفصل الأول
الفتح العربي لبلاد الأندلس

أولاً: مقدمـــة جغرافيـــة وتاريخيـــة عـــن شـــبه الجزيرة الإيبيرية.
ثانياً: البدايات الأولى للفتح العربي للأندلس.
ثالثاً: عصر الولاة في الأندلس.
رابعاً: عصر الإمارة في الأندلس.
خامساً: عصر الخلافة في الأندلس.

أولاً: مقدمة جغرافية وتاريخية عن شبه الجزيرة الإيبيرية:

1- نظرة جغرافية عن شبه جزيرة إيبيرية:

المقصود بشبه "جزيرة ايبيرية" هو ما يسميه العرب "بالأندلس" وما تعرف اليوم "بأسبانيا" و"البرتغال"، تلك البلاد التي كانت شاسعة البعد عن مركز الخلافة الأموية في دمشق.ويكفي أن نذكر أن المسافة بين "دمشق" و"قرطبة" سبعة آلاف كيلومتر، وهـذه المسافة يستلزم قطعها على ظهر فرس جيد أربعة اشهر، فكأنك لو أرسلت رسالة مـن قرطبة إلى دمشق وصلت بعد أربعة أشهر وجاء الرد بعد أربعة أشهر أخرى[1].

وبالرغم من بعد هذه الأقاليم عن مركز الخلافة (مركز الدولة الإسلامية) إلا أن العرب استطاعوا فرض أنفسهم عليه وحكموه وعاشوا فيه، وحولوه إلى بلـد عربـي إسلامي.

تقع شبه الجزيرة الإيبيرية (الأندلس) على مثلث مـن الأرض (يـضيق شـرقاً ويتسع غرباً)[2]، في الجنوب الغربي من القارة الأوروبية مقابـل الـسواحل الـشمالية للمغرب تفصلها من الشمال عن جنوب فرنسا جبال ألبـرت أو البرتـات Pyrenees، وتُعرف بالأسبانية (Pirineos)، وتسمى أحياناً "البرانس" وهي تقـع شـمال قرطبـة، وتتصل الأندلس بالأرض الكبيرة (فرنسا) يفصلها من الجنوب مضيق جبـل طـارق، الذي يبلغ عرضه من الشرق إلى الغرب 13-37 كم[3]، وطوله حوالي 80 كم، فهـو إذن ذراع ضيق من الماء يمكن في يوم صحو رؤية الشاطئ المغربي مـن الـشاطئ

---

(1) مؤنس، حسين: معالم تاريخ المغرب والأندلس، مطابع المستقبل. (القاهرة، 1980)، ص227.

(2) المراكشي، عبد الواحد: المعجم في تلخـيص أخبـار المغـرب (القـاهرة، 1963) ص5-6. كـذلك الحميري، محمد بن عبد المنعم السبتي :الروض المعطار في أخبار الأقطار. نـشر وترجمـة ليفـي بروفنسال (القاهرة، 1937)، ص2، الشطشاط، علي حسين: تاريخ الإسلام في الأنـدلس مـن الفـتح العربي حتى سقوط الخلافة. دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة، 2001)، ص16.

(3) البكري أبو عبد الله بن عبد العزيز: جغرافية الأندلس وأوروبا (من كتاب المسالك والممالك)، تحقيـق عبد الرحمن علي الحجي (بيروت، 1968)، 85، 129. كذلك علـي الشطـشاط: المرجـع الـسابق، ص16، عنان، محمد عبد الله: دولة الإسلام في الأندلس (القاهرة، 1969) 82/53/1.

الأسباني وبالعكس. وبهذا تكون مسافة المضيق التي تفصل المغرب عن الأندلس مسافة ضيقة لا وزن لها من ناحية الانتشار العسكري أو الثقافي والاقتصادي بينهما، ومن هنا نشأ صراع تقليدي مستمر بين الشاطئين الإفريقي والأوروبي حول السيطرة على هذه المنطقة المحيطة بالمضيق والمعروفة باسم العدوتين: عدوة المغرب* وعدوة الأندلس[1].

تقع على المضيق بعض مدن المغرب الأقصى في الشمال الأفريقي ويصل المضيق بين شبه الجزيرة الإيبيرية والمغرب الأقصى وما بعده براً، كما يصل بين المحيط الأطلسي والبحر المتوسط بحراً[2].

تقع سواحل شبه الجزيرة الإيبيرية الشمالية والشمالية الغربية على المحيط الأطلسي عند خليج بستاية (Biscay) الذي تقع عليه مدينة خيخون (Cijon). وتقع على سواحلها الغربية على المحيط الأطلسي (بحر الظلمات)، وشواطئها الشرقية والجنوبية الشرقية على البحر المتوسط (البحر الرومي)[3].

وقد أطلق على شبه الجزيرة اسم "إيبيرية" نسبة إلى أمة قديمة يُقال لها الإيبير (IBER)، وهي أقدم أمة عمرت بلاد أسبانيا والبرتغال[4]. أما لفظة الأندلس فهي مشتقة من اسم "الفاندالس" (Vandali) أو الوندال، وهم من الشعوب الذين سكنوا نهر "الأوردور" (Order) ونهر "الفيستولي" (Vistale) في شرقي "ألمانيا"، وهؤلاء الفاندالس زحفوا سنة 411 ق.م. من الشمال إلى الجنوب حتى بلغوا مضيق جبل طارق، ثم وصلوا إلى أفريقية والمغرب على "أسبانيا" التي استقر فيها "الفاندالس" اسم

* العدوة معناها الجانب أو الشاطئ – علي الشطشاط: المرجع السابق، ص16.

(1) العبادي، أحمد مختار: في التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة (بيروت، 1972)، ص231.

(2) الحجي، عبد الرحمن علي: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، دار العلم (بيروت، 1976)، ص36.

(3) المرجع نفسه، ص36.

(4) الحميري: الروض المعطار، ص5. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص17.

"فانداليسيا" (Vandaucia) نسبة إلى اسم "الفاندالس"، ولما جاء العرب إلى هذه البلاد وافتتحوها عربوا الاسم وأطلقوا عليه اسم "أندلس"[1].

وبعد سقوط مملكة غرناطة وانتهاء الحكم الإسلامي في أسبانيا سنة 897هـ/1492م، أطلق الأسبان اسم اندالوثيا (Anducla) على الولايات الجنوبية الأسبانية، وهي المنطقة التي تشمل اليوم ولايات قرطبة وإشبيلية وغرناطة[2]. واعتبر العرب أن الأندلس هي جميع الجزيرة الإيبيرية (أسبانيا والبرتغال اليوم) رغم أن سيادة العرب المسلمين لم تنتشر بصورة مطلقة على جميع أجزائها[3].

وهذه البلاد تقسم جغرافياً إلى قسمين الأندلس العليا، وهي شمالي الوادي الكبير، والأندلس السفلى وهي جنوبه وفي هذا الوادي أكبر نهر في الأندلس بعد نهر إبره[4].

أما سكان الأندلس فهم في الأصل خليط من: الكلتيين والإيبريين والوندال[5]. والآلان والسويف والقوط الشرقيين والقوط الغربيين والفينيقيين والرومان، فهم حقيقة خليط من عناصر فينيقية ورومانية وجرمانية وإغريقية، ويهودية ثم جاءت العناصر الإسلامية التي يمثلها العرب والبربر[6].

---

(1) المقري، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد (القاهرة، 1302هـ) 1/127-139. كذلك ابن عذاري المراكشي، أبو العباس أحمد بن محمد: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ليفي بروفنتال، دار الثقافة (بيروت، بدون تاريخ) 1/1-3، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص17.

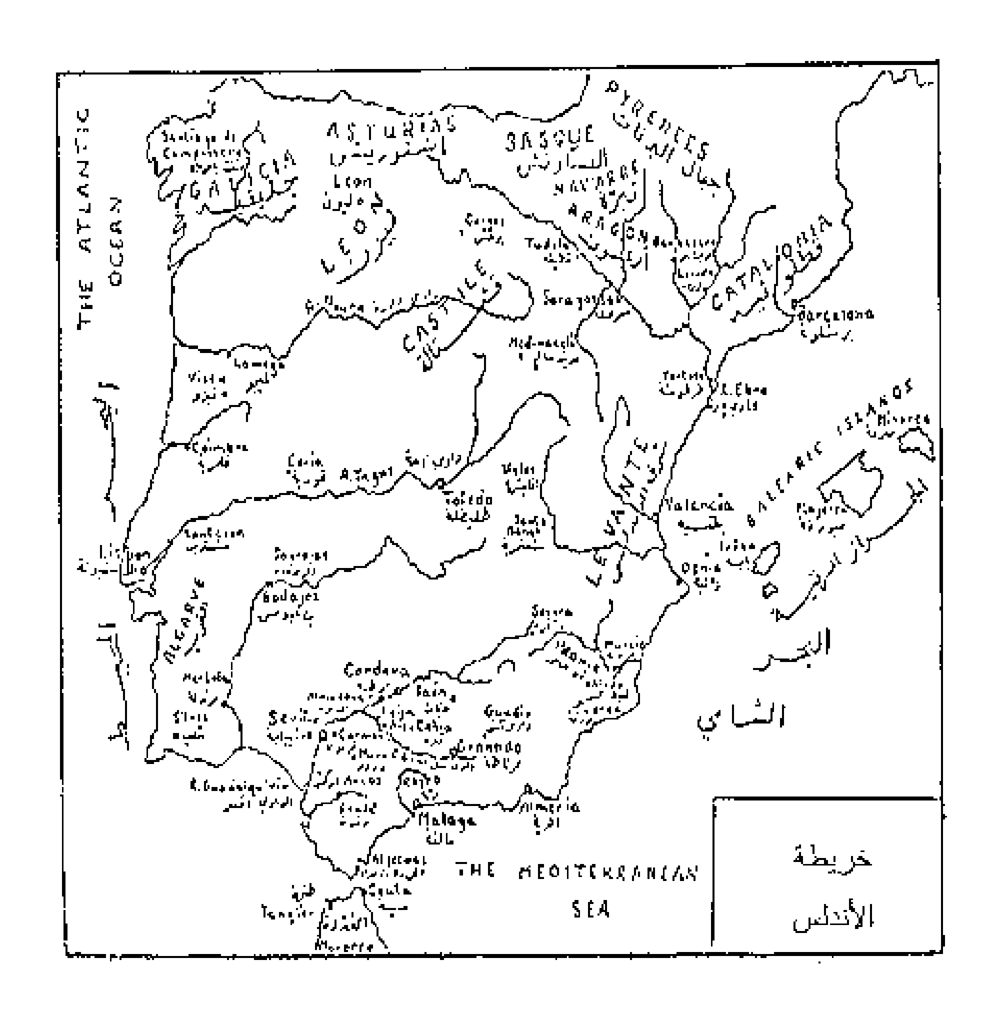
(2) أحمد العبادي: المرجع السابق، ص227.

(3) بيضون، إبراهيم: الدولة العربية في أسبانية حتى سقوط الخلافة، دار النهضة (بيروت، 1986)، ص65-66.

(4) حلاق، حسان: العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، الأندلس، صقلية الشام – الدار الجامعية (بيروت، 1986)، ص ص15-16. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص18.

(5) الوندال: إحدى جماعات المتبربرين من الجرمان = علي الشطشاط: المرجع السابق، ص18، هامش2.

(6) حسان حلاق: المرجع السابق، ص ص15-16. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص18.



خريطة الأندلس

نقلاً عن: أمين توفيق الطيبي: دراسات في التاريخ الإسلامي، الدار الأندلسية للطباعة، (طرابلس، 1992م)، ص296.

2- الوضع في أسبانيا قُبيل الفتح الإسلامي:

أما عن حالة أسبانيا قبل الفتح الإسلامي فكان الوندال هم حكامها إلى أن هاجمهم القوط الغربيين وتمكنوا من طردهم إلى أفريقية سنة 456م، واستطاعوا بسط سلطانهم على الأندلس كلها في نهاية القرن الخامس الميلادي، واتخذ القوط "طليطلة" عاصمة لملكهم، واعتنقوا المسيحية، وتأثروا بالحضارة والأنظمة الرومانية في قوانينهم ونظمهم، وظلوا يحكمون الأندلس إلى أن قَدِمَ المسلمون وتغلبوا عليهم سنة 92هـ/711م. وقد ساد البلاد خلال حكمهم وضع شاذ من الناحية الاجتماعية والاقتصادية والدينية والسياسية، حيث كان المجتمع مقسماً إلى طبقات يحكم بعضها البعض الآخر بعنف وقسوة[1].

استبد القوط (Coths) بالحكم، لاسيما قبيل الفتح الإسلامي، وبسوء سياستهم ساءت حالة أسبانيا واضطربت حياة سكانها، فانتشرت الفوضى وأصبحت غالبية الشعب تعيش عيشة ضنكة لسوء الأحوال المعيشية ولسياسة الاستغلال. فكان الشعب يُستغل لحساب طبقة الشعب المقهور والحاكمين، وفيما بين الحاكمين أنفسهم، وكان الشعب الأسباني مثل غيره من الشعوب الأوروبية مقسماً إلى طبقات عديدة هضمت حقوقها، مع وجود الفوارق الطبقية؛ وكانت الأسرة الحاكمة بيدها كل شئ دون سواد الشعب، الذي يلاقي الإهمال والظلم وقد انقسم الشعب إلى الطبقات التالية:

أ- **طبقة النبلاء:** ومنها الطبقة الحاكمة وكان التنافس على أشده بين هذه الطبقة للوصول إلى العرش بالرغم من أن الملك كان ينتخب انتخاباً، وهم من سلالة القوط الفاتحين، التي استولت على أكثر الأراضي الزراعية الخصبة[2].

---

(1) زيتون، محمد محمد: المسلمون في المغرب والأندلس، دار الوفاء للطباعة (القاهرة، 1984) ص149. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص18.

(2) العبادي، عبد الحميد: المجمل في تاريخ الأندلس، دار القلم (القاهرة، 1964)، ص32. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص19.

2- **طبقة رجال الكنيسة (رجال الدين)**: وهذه الطبقة تشارك النبلاء في حكم البلاد والاستمتاع بخيراتها، وكان نفوذهم غير محدود.

3- **الطبقة الوسطى**: وهي طبقة التجّار والزرّاع والمُلاك الصغار الذين يتحملون الضرائب المختلفة فكانت حالتهم سيئة.

4- **الطبقة الدنيا**: وهي طبقة عبيد الأرض (Serfs) الذين يتبعون مالكها وينتقلون مع ملكيتها من سيد إلى آخر، ولم تكن لهم حقوق.

5- **طبقة العبيد (Slaves)**: وهذه الطبقة تكونت من أسرى الحرب ويتصرف فيهم بيعاً وشراء، ولم تعط لهم ولا لعبيد الأرض الحقوق التي يستحقونها فلم ينالوا خيراً[1].

6- **طبقة اليهود**: وهذه الطبقة تختلف عن الطبقات السابقة من حيث الذين وهؤلاء ازدادوا عدداً في أسبانيا، حيث بسطوا نفوذهم في المجال الاقتصادي، ولكنهم عانوا الكثير من عسف الملوك والكهنة والنبلاء، وذاقوا شتى ألوان الجور والاضطهاد،ودفعهم ذلك إلى التآمر وتدبير ثورة على الحكم القائم، ولكن مؤامراتهم اكتشفت قبل القيام بها سنة 694م في عهد الملك "اجسيكا"، الذي وافقه الأحبار في طليطلة على معاملتهم معاملة قاسية فنكّل بهم وصادر أملاكهم وقضى على من بقي منهم بالرّق الأبدي للنصارى ووزعهم شيباً وشباباً، ذكوراً وإناثاً على المسيحيين، فأما الشيوخ فقد سُمح لهم بالبقاء على دينهم القديم، وأما الشبان والأطفال فقد لقنوا العقيدة المسيحية ونشؤوا عليها فصار لا يتزوج عبد يهودي إلا بجارية نصرانية ولا تتزوج يهودية إلا لنصراني[2]. وبذلك ذاق اليهود مرارة الذل

---

(1) الحميري: الروض المعطار، 170. كذلك عنان: دولة الإسلام في الأندلس، 32/1، عبد الرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي، ص29-30، أحمد العبادي: المرجع السابق، ص259، عبد الحميد العبادي: المرجع السابق، ص ص32-33.

(2) أمير علي، سيد: مختصر تاريخ العرب (بدون مكان، بدون تاريخ)، ص113.كذلك أرسلان، شكيب: خلاصة تاريخ الأندلس، منشورات دار مكتبة الحياة (بيروت، 1983) ص50، محمد زيتون: المرجع=

والهوان والاضطهاد مع بقية طوائف الشعب التي صارت تنتظر الخلاص مما تعانيه دون أن تجد إلى ذلك سبيلاً. وإلى جانب هذا الوضع الاجتماعي والاقتصادي الظالم كان الوضع السياسي مملوء بالاضطرابات والانقلابات السياسية[1].

وفي بداية القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي كان على عرش الأندلس الملك غيطشة (Witiza) والروايات الأسبانية تختلف في أمره فيصفه البعض بحسن الخلق والسيرة وبالحكمة، وبالعمل على ردّ المظالم وإقامة العدل، بينما يصفه آخرون بالظلم والجور والبغي على كل من يخالفه أو يقف في سبيل أطماعه. وقد تمكن غيطشة من القضاء على الثورات التي قامت ضده جميعاً ما عدا الثورات التي تزعمها (لذريق) "Rodrigo" الذي انضم إليه رجال الدين والأشراف وأعلن نفسه ملكاً وتمكن من القضاء على "غيطشة" بعد خوض حرب أهلية عنيفة[2]. وذلك حوالي سنة 708 أو 710م وتختلف الروايات التاريخية اختلافاً كبيراً في تحديد نهايته، فمنها ما يذكر أنه مات ميتة طبيعية، والبعض الآخر يقول إنه ترك العرش لوريثه "أخيلا" (Achila) الذي كان حاكماً لمقاطعتين هامتين في الشمال[3].

ثانياً: البدايات الأولى للفتح العربي للأندلس:

إذا تصفحنا كتب التاريخ التي تناولت الفتوحات العربية، نلاحظ أنها أحاطت هذه الفتوحات بهالة من الخيال والتنبؤات، ونسبت إلى المسلمين وقوادهم أعمالاً خارقة

=السابق، ص ص150-151، أحمد العبادي: المرجع السابق، ص260، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص20.

(1) علي الشطشاط: المرجع السابق، ص20.

(2) المرجع نفسه، ص20، كذلك محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، 33/1، محمد زيتون: المرجع السابق، ص151.

(3) محمد زيتون: المرجع السابق، ص151.

للبشر، لأن العناية الإلهية كانت معهم تنقذهم وترعاهم رغم قلتهم، وتقودهم إلى النصر دائماً كما لو كان الأمر يتعلق بمعجزة من المعجزات[1].

والحقيقة أن هذه الصورة، لا تنطبق على الواقع التاريخي، لأن القيادة العليا للمسلمين كانت حريصة كل الحرص على سلامة أرواح جنودها، فلم تقدم على أي عمل حربي، إلا بعد دراسة شاملة وتدبير محكم ووضع الخطط العسكرية الدقيقة المناسبة لجميع احتمالات النصر أو الهزيمة، حفاظاً على أرواح المسلمين[2].

وكما كان فتح مصر على يد "عمرو بن العاص"، نتيجة لخطة موضوعة أقرها الخليفة "عمر بن الخطاب" مع كبار قواده في اجتماع "الجابية" في الجولان جنوبي دمشق سنة (18هـ/639م)، كذلك كان فتح المسلمين للأندلس نتيجة لخطة موضوعة أيضاً، أقرها الخليفة الأموي "الوليد بن عبد الملك" بدمشق، باتفاق مع قائده على المغرب "موسى بن نصير"[3]، هادفين إلى نشر الدعوة الإسلامية وإقامة مشاعلها التي ستنقذه مما تروى وتجعله المنبع لبعث الحضارة الأوروبية الحديثة[4]. ولعلنا نتساءل ما العوامل التي دفعت المسلمين إلى فتح الأندلس؟ وما الأسباب التي ساعدت على هذا الفتح؟ وأخيراً ما هي النتائج التي ترتبت على فتح الأندلس؟

1- أسباب الفتح:

اختلف المؤرخون حول الأسباب التي دفعت المسلمين إلى فتح الأندلس، وهي بالتأكيد أسباب عديدة أهمها:

---

(1) ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد: وفيات الأعيان، وأنباء أبناء الزمان (القاهرة، 1950)، 3/4-4. كذلك ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي كرم محمد بن محمد: الكامل= =في التاريخ، دار الصادر (بيروت، 1979)، 269/4. سالم، السيد عبد العزيز: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (الإسكندرية، 1961)، ص77. أحمد العبادي: المرجع السابق، ص53.

(2) أحمد العبادي: المرجع السابق، ص53.

(3) ابن عذاري: البيان المغرب، 6/2. كذلك أحمد العبادي: المرجع السابق، ص54.

(4) محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، 33/1-34. كذلك محمد زيتون: المرجع السابق، ص152-153. علي الشطشاط: المرجع السابق، ص23.

أ- كان العرب آنذاك في أوج قوتهم ومجدهم وفتوحاتهم التي وصلت إلى أقصى بلاد الشرق وأقصى بلاد المغرب، ونالوا من الانتصارات خلال نصف قرن من الزمن ما أذهل العالم في ذلك الوقت، فليس من الغريب أن يكونوا قد فكروا بعد وصولهم إلى المضيق الفاصل بين أفريقية وأوروبا، أن يجتازوه، وينساحوا في تلك البلاد والتي كانوا يسمعون عن خصوبتها وغناها[1].

ب- مما شجع العرب أيضاً على التفكير في مشروعهم ما كانوا يسمعونه عن الأحوال الداخلية في أسبانيا من نزاع على الحكم وخاصة الانقلاب الذي قام به "لذريق" "Rodrigo" على الملك "غيطشة" "Witiza" وما كان في نفوس أولاد الملك المخلوع من رغبة في الانتقام ممن سلب عرش والدهم[2].

ج- يقال إن الكونت "يوليان" حاكم "سبتة" لم يكن على وفاق مع الملك الجديد "لذريق" وأنه لازال يكن الولاء والطاعة للملك السابق "غيطشة" وأنه لم يكن يملك شيئاً من الشرعية في تسلمه مقاليد السلطة والحكم، بل هو مغتصب له[3].

د- أن توجه "يوليان" عرض المساعدة على العرب لفتح الأندلس والقضاء على حكم "لذريق" ربما تكون قد جاءت من حسن العلاقة التي كانت تربط "يوليان" بأولاد الملك المخلوع "غيطشة" ويقال أن أولاد "غيطشة" كتبوا إلى "يوليان" مساعدته ضد "لذريق" وربما أوحوا إليه فكرة إدخال العرب للأندلس عندما علموا بأشرافهم على البحر عند طنجة[4].

ويذكر بعض المؤرخين أن أولاد "غيطشة" قدموا إلى أفريقية بأنفسهم لطلب العون من العرب للتخلص من "لذريق" وإعادة المُلك لهم. وفي ذلك يقول "ابن

---

(1) الصوفي، خالد: تاريخ العرب في الأندلس (الفتح وعصر الولاة)، دار النجاح (بيروت، 1971)، ص76.

(2) خالد الصوفي: المرجع السابق، ص77. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص24.

(3) المرجع نفسه، ص77. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص24.

(4) المرجع نفسه، ص77، كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص24، السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص67.

عذاري المراكشي": أن أبناء "غيطشة" ومعهم "يوليان" ذهبوا للقاء "طارق بن زياد" فسأل أحدهم: ما جاء بك؟، فقال له: إن أبي مات فوثب على مملكتنا بطريق يقال له "لذريق"؛ فأهانني وأذلني؛ وبلغني أمركم، فأجابه إلى ذلك..."[1].

هـ- يرى البعض[2] إن ما دعى "يوليان" للاستعانة بالعرب كان سبباً أخلاقياً أكثر منه سياسياً، وهو إقدام الملك "لذريق" لاغتصاب "لفلورندا" ابنة "يوليان" حاكم مدينة "سبتة" الأمر الذي أثار حفيظة أبيها ودعاه إلى أن يستدعي المسلمين من المغرب ويحثهم على فتح بلاد الأندلس انتقاماً من "لذريق".

وملخص هذه الرواية أن الكونت "يوليان" له ابنة تتصف بالجمال وتُدعى "فلورندا" "Florinda" وأنه جرياً على عادة الطبقة الراقية آنذاك، أرسلها والدها إلى القصر الملكي القوطي "بطليطلة" لتتأدب وتتعلم فيه أسوة بغيرها من بنات الطبقة الراقية، ثم حدث أن رآها الملك "لذريق" فأعجب بجمالها، واعتدى على شرفها، فكتبت إلى أبيها تخبره بذلك فجاء "يوليان" إلى القصر الملكي وأخذ ابنته من هناك، وهو يضمر الحقد والانتقام من الملك.

وتضيف الرواية التاريخية أن الملك "لذريق" أرسل إلى "يوليان" يطلب منه أن يرسل إليه صقوراً للصيد جرياً على عادته، فرد عليه "يوليان" بقوله: "لأوردنّ عليك طيوراً لم تسمع قط بمثلها[3]، ويقصد بذلك العرب. ثم اتصل "يوليان" بـ"موسى بن نصير" وهوّن عليه فتح الأندلس مبيناً له سوء أوضاعها وأحوالها فاستجاب "موسى"

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، 6/2. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص25.

(2) ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (بولاق، 1284هـ)، 171/4. كذلك ابن عذاري: البيان المغرب، 7/2، المقري: نفح الطيب، 236/2، أحمد العبادي: المرجع السابق، ص ص262-263، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص25.

(3) ابن عذاري: البيان المغرب، 7/2. كذلك ابن خلدون: العبر، 171/4، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص25.

لطلبه، وأقدم على غزوها بعد أن أخذ الإذن من الخليفة الأموي "الوليد بن عبدالملك" بدمشق.

و- وفي رواية أخرى ترويها المصادر الأسبانية، ملخصها أن الملك القوطي السابق "غيطشة" "Akhlia" لما عُزل عن ملكه ذهب أنصاره إلى خليفة الكونت "يوليان" حاكم سبته فقادهم بدوره إلى "موسى بن نصير"، حيث تم الاتفاق على أن يمدهم بجيش من عنده ليرد إلى ملكهم المعزول عرشه مقابل جزية سنوية يؤديها للعرب[1]. وهذه الرواية تبدو أقرب للحقيقة من سابقتها لأنها تتفق مع طبيعة الأحداث في ذلك الوقت خصوصاً وأن مدينة "سبتة" كانت ملجأ لكثير من العناصر الساخطة والناقمة على الحكم القوطي[2].

ز- ويذكر المقري: "أن حديث "يوليان" إلى "موسى بن نصير" عن بلاد الأندلس وحسنها وفضلها وما جمعت من أشتات المنافع وطيب المزارع وكثرة المياه وعذوبتها مع ضعف أهلها شوّق "موسى بن نصير" إلى فتح الأندلس، وكأن الأطماع والغنائم هي التي دفعت المسلمين إلى الفتح[3].

ح- يرى البعض أن الحرب كانت مستعرة بين المسلمين والبيزنطيين الذين يهاجمون الشواطئ الأفريقية من جزر البليار[4]، و"صقلية"، و"سردينة". كما أن أسطول القوط انضم إلى أسطول الروم في مراقبة السواحل الأفريقية[5]، مما حمل المسلمين

(1) أحمد العبادي: المرجع السابق، ص262. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص26.

(2) المقري: نفح الطيب، 237/1. كذلك محمد عنان: المرجع السابق، 39/1، محمد زيتون، المرجع السابق، ص155، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص26، أحمد العبادي: المرجع السابق، ص262.

(3) المقري: نفح الطيب، 237/1. كذلك محمد عنان: المرجع السابق، 39/1، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص26، محمد زيتون: المرجع السابق، ص154.

(4) الجزر الشرقية "منورقة" و"ميورقة" و"يابسة" وهي أصغرها = علي الشطشاط: المرجع السابق، ص26.

(5) أمير علي: المرجع السابق، ص11. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص26، محمد زيتون: المرجع السابق، ص155، سيديو: تاريخ العرب العام (بدون مكان، بدون تاريخ)، ص158.

على الاستيلاء على جزائر "القمر"، فتوجه المسلمون لفتح الأندلس إنما هو مواصلة لهذه الحرب التي كانت مشتعلة بينهما، ولكن في أغلب الأحوال أن فتحهم للأندلس ما هو إلا أمر طبيعي يتمشى وحقيقة الدعوة الإسلامية، وطبيعة القائمين عليها، وقد تمّ ذلك بعد أن تهيأت الظروف والأحوال المناسبة والملائمة للفتح[1].

كان هذا الفتح الميمون سيتم بإذنه تعالى حتى وأن حاولت أسبانيا تفادي ذلك، لأن المدُّ الإسلامي تمكن من التغلب على كافة الحواجز والمعوقات، وكذلك على الأمم التي كان وضعها أفضل وأحسن ومقاومتها أشد وأقوى، إذ أن إحكام الظروف المادية وإتقان الأمور العسكرية لا يقوم بها الفتح الإسلامي وحده، ولكنه قبلها قام بمستلزمات العقيدة، فهي عامل النصر، كان عدد المسلمين قليلاً وعدتهم أقل، ويحاربون في أرض جديدة ما خبروها، لكن عوامل الفتح تكمن في النوعية الباهرة لهذا الجيش الفريد والصفات الإنسانية التي حلته بها عقيدته الربانية الخالدة، ويتضح مما سبق أن فتح الأندلس لم يكن مجرد مغامرة صادفها التوفيق، وإنما كانت منذ الوهلة الأولى فتحاً مدبراً جرى فيه المسلمون على أسلوبهم في الفتوحات[2].

2- العوامل المساعدة للفتح:

هناك عدة عوامل ساعدت المسلمين على فتح الأندلس أهمها:

أ- تمكن المسلمون من الاستقرار في أفريقية واعتناق البربر الإسلام وحماستهم لحمل دعوته، وبذلهم أرواحهم في سبيل ذلك، ورغبتهم في أن يكون لهم من الجهود من أجل دعوة الإسلام مثل ما للعرب المسلمين[3].

ب- ما اتصف به المسلمون من صفات اليقظة والحذر مكنتهما من التعرف على حال بلاد الأندلس عملياً بتوجيه بعض الحملات الخفيفة السريعة التي تُعرف بها طبيعة

---

(1) علي الشطشاط: المرجع السابق، ص26. كذلك محمد زيتون: المرجع السابق، ص155.

(2) عبدالرحمن الحجي: المرجع السابق، ص34-35. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص156.

(3) علي الشطشاط: المرجع السابق، ص 27، كذلك محمد زيتون: المرجع السابق، ص156.

البلاد وحالة أهلها، مما أعطى المسلمين جسارة على مواجهة عدوهم[1].

ج- تعريف الخلافة بخطة الفتح وإحاطتها علماً بمجريات الأمور لتكون على أهبة للمساعدة وإرسال المدد، وهذا يُعطي حملة الفتح الصفة الشرعية من قِبل الخلافة الساهرة على حماية المسلمين ودينهم الحنيف[2].

د- بذل المسلمين جهداً كبيراً لإنشاء دار صناعة السفن (ترسانة بحرية) وتكوين أسطول بحري في الشمال الأفريقي ابتداءً من ولاية "حسان بن النعمان الغساني"[3]، ومواصلة "موسى بن نصير" التوسع في تكوين الأسطول[4]. ففي هذا الشأن يقول المقري: "فقد أخذ في عمل السفن حتى صار عنده منها عدة كثيرة"[5].

هـ- المساعدات الكبيرة التي قدمها الكونت "يوليان" ورجاله للمسلمين، حيث أطلعوهم على عورات ونقاط ضعف الأسبان[6].

3- مراحل الفتح العربي للأندلس:

بعد أن أرسى "موسى بن نصير" ومن معه كلمة الإسلام بجهودهم في الشمال الأفريقي، كانت الخطوة التالية الطبيعية هي فتح الأندلس، وقد اتبع موسى خطة سليمة، أكمل بها جهود من سبقوه، من أجل ترسيخ قدم الإسلام في المغرب الكبير، لذلك جهز "موسى بن نصير" جيشاً من نوع جديد يحمل لواء العلم والمعرفة الإسلامية لترسيخ

---

(1) علي الشطشاط: المرجع السابق، ص28. كذلك محمد زيتون: المرجع السابق، ص157.

(2) محمد زيتون: المرجع السابق، ص157.

(3) كان من كبار رجال عبد الملك، وكان رجلاً شريفاً ينتسب إلى آل غسان ولهذا لُقب بالغساني، تولى ولاية أفريقية خلال المدة من 71 إلى 85هـ/690-704م، حارب الروم وطردهم من قرطاجنة، = علي الشطشاط: المرجع السابق، ص28.

(4) علي الشطشاط: المرجع السابق، ص 28. كذلك محمد زيتون: المرجع السابق، ص157.

(5) ينظر: نفح الطيب، 214/2. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص28، محمد زيتون: المرجع السابق، ص157.

(6) علي الشطشاط: المرجع السابق، ص 28.

وتفقيه المغاربة هذا الدّين، مثل هذه الخطوة كانت مهمة آنذاك، وأمكن بهذا لا أن يُرسخ الإسلام في قلوبهم فحسب، بل غدوا يتحمسون لنشر الإسلام في الخارج[1] حتى كانت أكثرية جيش "طارق بن زياد"المتجه إلى الجزيرة الأيبيرية من المسلمين المغاربة الذين تحمسوا لهذه العقيدة، حباً لها وتضحية من أجلها[2].

ففي سنة (91هـ/710م) أرسل موسى بن نصير بعثة استطلاعية يقودها قائد من قواد البربر يُسمى "طريف بن زرعة بن أبي مدرك" فقام بمهمته خير قيام، وأغار على الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة وعاد بغنائم وافرة دون أن يلقى مقاومة، ومن ذلك الحين أصبح اسم طريف يطلق على بلدة صغيرة جميلة في أقصى الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة[3].

تشجع "موسى بن نصير" بهذه النتيجة فندب "طارق بن زياد" لفتح الأندلس فعبر إلى الأندلس في (شعبان 92هـ/أبريل-مايو 711م)، ونزل بصخرة جبل طارق[4] "Gibraltar"، كما عُرف به المضيق، وبكل اللغات، وهذه مكافأة دنيوية طيبة على عمل "طارق" وتخليداً لبطولته، زيادة على تخليد مكانته في نفوس المسلمين وغيرهم ممن يُقدرون هذه الصفات ويشيدون بها. ولقد سُمي هذا الجبل بعد الفتح الإسلامي بأسماء أخرى، مثل: الصخرة وجبل الفتح[5] ولكن الشائع هو جبل طارق[6]. وقد عُرف

---

(1) المقري: نفح الطيب، 239/1. كذلك عبد الرحمن الحجي: المرجع السابق، ص43، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص29.

(2) عبد الرحمن الحجي: المرجع السابق، ص ص43-44. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص29.

(3) ابن عذاري: البيان المغرب، 512، كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص31، أحمد العبادي: المرجع السابق، ص565.

(4) ابن عبد الحكم، عبد الرحمن (م: سنة 257هـ/871م)، فتوح أفريقية والأندلس، (الجزائر، 1947)، ص205. كذلك المقري: نفح الطيب، 145/1-146، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص32-33، مؤنس، حسين: معالم تاريخ المغرب والأندلس، مطابع المستقبل (القاهرة، 1980م)، ص235.

(5) المقري: نفح الطيب، 160/1-230. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص33.

(6) عبد الرحمن الحجي: المرجع السابق، ص49. كذلك حسين مؤنس: المرجع السابق، ص235.

قبل ذلك بجبل "كالبي Mons Caole"، وهناك أنشأ قاعدة وحصناً يحتمي به إذا حدث ما لم يكن متوقعاً[1].

وعن هذه الحملة يذكر "ابن حيان" أن "موسى بن نصير" قد جهز "طارق" "في سبعة آلاف من المسلمين جلهم من البربر في أربع سفنٍ وحط بجبل "طارق" المنسوب إليه في (شعبان 92هـ/أبريل – مايو 711م)، ولم تزل المراكب تعود حتى وافاه جميع أصحابه عند الجبل"[2].

سار الجيش الإسلامي منحدراً إلى جنوب إسبانيا في الجزيرة الخضراء "Algeciras" وهناك وقعت مناوشات في معركة أو أكثر مع قوات القوط وانتصر فيها المسلمون[3].

ويذكر في هذا الخصوص المقري التلمساني أن "لذريق" حاكم الأندلس قد سمع بالخبر "وكان يومئذٍ في جهة "البشكنس" فبادر في جموعه وهم نحو مائة ألف ذوي عدد وعُدة، وكتب "طارق" إلى "موسى" بأنه قد زحف إليه "لذريق" بما لا طاقة له به، وكان عمل من السفن عدّة، فجهز له فيها خمسة آلاف من المسلمين، فكملوا بمن تقدم أثنى عشرة ألفاً، ومعهم "يوليان" صاحب "سبتة" في حشوده يدلّهم على العورات، ويتحسس لهم الأخبار، وأقبل نحوهم "لذريق" ومعه خيار العجم "الكفار"، وأملاكها وفرسانها، وقلوبهم عليه وقالوا: إن هذا الخبيث (يقصدون بذلك لذريق) غلب على سلطاننا، وليس من بيت الملك، وهؤلاء القوم الذين طرقوا بلادنا، لا حاجة لهم في استيطانها إنما غايتهم أن يملأوا أيديهم من الغنائم ويخرجوا عنا، فلنهزم ابن الخبيثة، إذ نحن لقينا القوم، فلعليهم يكفوننا أمره، فإذا هم انصرفوا عنا، أقعدنا في مُلكنا من يستحقه، فأجمعوا

---

(1) علي الشطشاط: المرجع السابق، ص33. كذلك حسين مؤنس: المرجع السابق، ص235.

(2) المقري: نفح الطيب، ص231. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص33.

(3) ابن عذاري: البيان المغرب، 9/2. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص33، حسين مؤنس: المرجع السابق، ص235.

على ذلك[1]. وقد اختلفت الروايات التاريخية في عدد جيش "لذريق" فجعلتها بعضها[2] مائة ألف بينما جعلها "ابن خلدون" أربعون ألفاً[3].

كان الجيش القوطي يفوق الجيش العربي مرات عديدة في العدد والعُدة، وربما في التنظيم والتدريب، وهو يحارب في بلد يعرفه ويعرف مخابئه وطبيعته وهو قريب من مصدر الإمداد، لكن الجيش الإسلامي كان متفوقاً بالروح المعنوية، بقوة العقيدة الإسلامية، وأهدافها السامية، بينما الجيش القوطي يفتقد ذلك، وهذه المعاني النبيلة كانت عاملاً من عوامل انتصار العرب على أعدائهم[4].

وفي وادي لكة على مقرُبة من "شذونه"، و"كان يُطلق عليها نهر برباط" جرت معركة طاحنة بين المسلمين والأسبان بدأت بمناوشات، ثم اشتبك الطرفان في هذه المعركة التي استمرت ثمانية أيام من الثامن والعشرين من رمضان إلى الخامس من شوال سنة 92هـ/710م[5]. وقد انتهت المعركة بهزيمة مدمرة للجيش الإسباني وفرار قائده "لذريق" الذي اختفى، ويقال إنه غرق أو قتل[6]. وقد تحقق في المسلمين قوله تعالى: "كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ واللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ"[7].

---

(1) ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عامر: تاريخ افتتاح الأندلس، حققه وقدم له ووضع فهارسه إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني (بيروت، 1982)، ص30. كذلك المقري: نفح الطيب، 1/233-232، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص34.

(2) المقري: نفح الطيب، 1/231. كذلك حسين مؤنس: فجر الأندلس، دار المعارف (القاهرة، 1959)، ص72. علي الشطشاط: المرجع السابق، ص34.

(3) ابن خلدون: العبر، 4/154، كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص34.

(4) عبدالرحمن الحجي: المرجع السابق، ص53. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص34.

(5) حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص71، كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص35.

(6) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة في ذكر الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بها بينهم، نشره وعلق عليه لافوينتي والكنترا (مدريد، 1987)، ص9، كذلك ابن عذاري: البيان المغرب، 2/8، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص35، حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص236.

(7) سورة البقرة، من الآية 249.

هذا وقد غنم المسلمون في هذه المعركة غنائم كثيرة، واستشهد من المسلمين ثلاثة آلاف، فأسرع "طارق" بمن معه إلى "قرطبة" حيث كانوا بروح معنوية عالية نحو النصر[1].

كان انتصار المسلمين على القوط في معركة وادي لكه قد ساعد المسلمين على ترسيخ أقدامهم في الأندلس، "وما أن وصل خبر هذا الانتصار العظيم إلى إفريقية حتى أقبلوا نحوه من كل حدب وصوب، وخرقوا البحر، فلحقوا بطارق ففاض سيل البربر على الأندلس وأخذوا يستقرون في المناطق المفتوحة، وتضخم جيش المسلمين إلى حد يصعبُ معهُ تقديره بعد هذه المعركة"[2].

استمر طارق في فتوحاته، حيث وجد أن الأبواب مفتوحة أمامه فمضى مسرعاً نحو "استجه" لفتحها وكان معظم الجنود الأسبان الذين فروا من المعركة قد لجأوا إلى تلك المدينة، مما اضطر "طارق" إلى طلب العون من "يوليان"، الذي خف إليه مسرعاً، ويبدو أنه بعد مجيء "يوليان" إلى "استجه" بجيشه رأى كثرة الجيش المتجمع فنصح "طارق" بتفريق جنده في بعوث جانبية، فقال له: "قد فتحت الأندلس فخذ من أصحابي أدلاء، ففرق معهم جيوشك وسر أنت إلى مدينة طليطلة"[3].

اتجه "طارق" بالجيش الرئيسي شمالاً نحو العاصمة "طليطلة" وفي الوقت نفسه أرسل أقساماً من جيشه إلى المناطق الجانبية، فاتجه قسم إلى "قرطبة" بقيادة "مغيث الرومي"، "مولى عبد الملك بن مروان" ففتحها بعد حصار دام ثلاثة أشهر، واتجه قسم آخر إلى "البيرة" ونواحيها ففتحها[4].

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، 8/2. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص36، حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص72.

(2) المقري: نفح الطيب، 259/1. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص38، حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص72.

(3) ابن عذاري: البيان المغرب، 2/91-100. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص39.

(4) المقري: نفح الطيب، 1/260-261، كذلك ابن عذاري: البيان المغرب، 289/2، أحمد العبادي: المرجع السابق، ص69.

وقد وجد طارق وقواده معاونة من اليهود المقيمين في أسبانيا بسبب اضطهاد القوط لهم، ولهذا اعتمد "طارق" عليهم في حفظ البلاد المفتوحة، وفي الوقت الذي كان فيه الجيش الإسلامي متفرغاً لعملية الغزو[1].

واستمر "طارق" في زحفه الخاطف نحو الشمال حتى بلغ العاصمة طليطلة، فدخلها دون مقاومة تذكر، إذ كان حكامها وأهلها قد فروا منها، فكانت المدينة شبه خالية تقريباً[2]. وهنا تشير المصادر العربية بإسهاب إلى الكنوز والذخائر التي غنمها المسلمون من كنائس المدينة وقصورها[3].

ثم خشي "طارق" أن يقطع عليه العدو الطريق في هذه البلاد الجبلية الوعرة، لاسيما وأن فصل الشتاء قد اقترب، وتعب المسلمون من الجهد الذي بذلوه، وثُقلوا بالغنائم التي جمعوها، فاستنجد "طارق" بقائده "موسى بن نصير"[4].

وفي شهر (رمضان عام 93هـ/يونيو 712م) عبر "موسى" المضيق بجيش كبير من ثمانية عشر ألف مقاتل، معظمهم من العرب بعصبياتهم القيسية واليمنية ومن بينهم عدد من التابعين، وقد عرفت هذه الجماعة العربية الأولى بطالعة "موسى"[5].

وسار "موسى" في طريق غربي عبر الطريق الذي سلكه "طارق"، وفتح مدن أخرى لم يفتحها "طارق"، مثل "قرمونة Carmona" و"أشبيلية Sevilla" و"ماردة"، ثم التقى بطارق عند نهر "التاجو Tajo" بالقرب من العاصمة طليطلة[6]، ثم تابعا القائدان سيرهما نحو جبال "ألبرت Pirinios" في أقصى الشمال، وأخذت المدن تتساقط في

---

(1) أحمد العبادي: المرجع السابق، ص70.

(2) ابن عذاري: البيان المغرب، 17/2، كذلك عبد الحميد العبادي، المرجع السابق، ص70.

(3) ابن عذاري: البيان المغرب، 12/2، كذلك المقري: نفح الطيب، 264/1-265.

(4) عبد الحميد العبادي: المرجع السابق، ص70.

(5) علي الشطشاط: المرجع السابق، ص58. كذلك أحمد العبادي: المرجع السابق، ص70، حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص237.

(6) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص16. كذلك ابن عذاري: البيان المغرب، 19/2، عبد الحميد العبادي: المرجع السابق، ص70.

أيديهما تباعاً مثل "سرقسطة Zaragoza"، و"شقة Huesca" و"لاردة Lerida"، حتى بلغا شاطئ البحر الشمالي "Cantabrico" عند حدود فرنسا الجنوبية[1].

وهكذا انتهى كل من "موسى" و"طارق" من فتوحاتهما، وكانت أوامر الخليفة "الوليد بن عبد الملك" قد قضت برجوعهما إلى دمشق، فرجع موسى ومعه طارق بعد أن خلف على الأندلس ابنه "عبدالعزيز ابن موسى بن نصير" في أواخر عام (95هـ/714م)[2].

ثالثاً: عصر الولاة:

بعودة القائدين "موسى" و"طارق" إلى دمشق يبدأ في الأندلس ما يُعرف بعصر الولاة (95-138هـ/14-755م) الذي استمر حتى وصول "عبدالرحمن الداخل" (الأول) ابن معاوية بن هشام، وما ترتب بعده[3]. وفي هذا العصر كانت الأندلس ولاية عربية تابعة للخلافة الأموية بدمشق.

لقد تولى حكم الأندلس بعد فتحها إلى أن دخلها "عبد الرحمن الداخل" حوالي عشرين أميراً في فترة قاربت نصف قرن من الزمن وكان أولهم "عبد العزيز بن موسى بن نصير" وآخرهم "يوسف بن عبد الرحمن الفهري". وقد استمر بعضهم في الحكم عدة أشهر والبعض الآخر عدة سنوات، وهذا وحده يكفي لإعطائنا فكرة عن عدم الاستقرار الذي ساد الأندلس خلال هذه الفترة[4]. وليس المهم معرفة أسماء الولاة الذين حكموا، ومدة حكمهم ولكن المهم هو معرفة الأعمال التي حدثت أثناء فترات

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، 16/2. كذلك عبد الحميد العبادي: المرجع السابق، ص70، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص69.

(2) ابن عذاري: البيان المغرب، 16/2-17، كذلك المقري: نفح الطيب، 255/1-259، محمد زيتون: المرجع السابق، ص168-169.

(3) عبد الرحمن الحجي: المرجع السابق، ص131. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص61، حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، 241.

(4) علي الشطشاط: المرجع السابق، ص61، كذلك محمد زيتون: المرجع السابق، ص191.

حكمهم والنتائج المترتبة عليها، ثم المشاكل الكبرى التي واجهت الحكم العربي في الأندلس[1].

أ - **عبد العزيز بن موسى بن نصير** (ذو القعدة سنة 95هـ/سبتمبر 714م - رجب سنة 97هـ/716م):

قبل عودته إلى المشرق عين "موسى" ابنه عبد العزيز والياً على الأندلس[2]، فكان أول ولاتها، وكذلك جعل قاعدتها مدينة "أشبيلية"، وأهم الأعمال التي قام بها تثبيت أقدام المسلمين في الأندلس، حيث يُنسب إليه فتح الجزء الجنوبي الشرقي من "شبه الجزيرة الإيبيرية"، وحصَّن أثناء ذلك الثغور، وقمع الفتن التي نشبت بين القبائل، وكان من خير الولاة، إلاّ أن مدته لم تطل لوثوب الجند عليه وقتلهم له، لأشياء نقموها عليه وكان قتله في صدر رجب من سنة (97هـ/716م) بمدينة أشبيلية فكانت ولايته سنة واحدة وعشرة أشهر[3].

ب- أيوب بن حبيب اللّخمي:

كان أول ولاة الأندلس بعد "عبد العزيز بن موسى"، وهو ابن عمة الوالي القتيل "عبد العزيز"[4]. كان "أيوب" عاقلاً حليماً، استطاع تهدئة الأوضاع، بقي في ولايته ستة أشهر نقل خلالها العاصمة إلى "قرطبة"[5] المدينة الأكثر توسطاً في

---

(1) علي الشطشاط: المرجع السابق، ص61، كذلك حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص241.

(2) المقري: نفح الطيب، 218/1. كذلك ابن عذاري: البيان المغرب، 23/2.

(3) ابن عذاي: ابيان المغرب، 25/2. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص64، نصر الله، سعدون: تاريخ العرب السياسي في الأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، (بيروت، 1998)، ص27.

(4) المقري: نفح الطيب، 218/1، كذلك ابن عذاري: البيان المغرب، 32/2، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص64، سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص27.

(5) ابن عذاري: البيان المغرب، 25/2.

الأندلس، حيث أخذ مجدها السياسي في التألق منذ ذلك الحين، حتى بلغ أوجه في عصر الخلافة[1].

ج- الحر بن عبد الرحمن الثقفي (97-100هـ/716-719م):

بعد أن أقال "محمد بن يزيد" والي أفريقية "أيوب بن حبيب اللخمي" عين مكانه "الحر بن عبد الرحمن الثقفي"، فقدم الأندلس في ذي الحجة عام 97هـ/716م[2]، ومعه أربعمائة رجل من وجوه أفريقية، وبقي في الولاية ما يقرب من ثلاث سنوات، ثم استبدله الخليفة "عمر بن عبد العزيز" "بالسمح بن مالك الخولاني"[3].

د- السمح بن مالك الخولاني (100-102هـ/719-721م):

ولاه "عمر بن عبد العزيز" على الأندلس فوصلها في رمضان من عام (100هـ/719م)، بعد أن جعلها ولاية مستقلة عن أفريقية تتبع الخلافة مباشرة في دمشق لأهميتها[4].

كان السمح حكيماً ذا عقل وخبرة، قمع الفتن والمنازعات وأصلح الإدارة ومسح الأراضي وخمّسها وقرّر الخراج عليها، واهتم بالجيش لأنه عماد الحكم في ذلك القطر النائي فهدأت الاضطرابات وساد الأمن والنظام والتف الزعماء حوله، واهتم بالعاصمة "قرطبة"، فجدد بناء قنطرة قرطبة الشهيرة على الوادي الكبير بتوجيه من الخليفة "عمر بن عبد العزيز"[5].

---

(1) إبراهيم بيضون: المرجع السابق، ص94. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص64.

(2) المقري: نفح الطيب، 219/2. كذلك ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 144/4.

(3) ابن عذاري: البيان المغرب، 25/2. كذلك حسين مؤنس: فجر الأندلس، 135، خالد الصوفي: المرجع السابق، ص207.

(4) ابن خلدون: العبر، 199/4. كذلك سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص29.

(5) المقري: نفح الطيب، 219/1. كذلك ابن عذاري: البيان المغرب، 26، الحميدي. أبو عبد الله بن أبي نصر: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، نشر محمد بن تاويت الطنجي (القاهرة، 1952)، ص34.

بعد أن حقق الهدوء في الداخل استأنف الغزو إلى "لانجدوك" أواخر (101هـ/719م) فعبر البرتات من باب الروسيون واستعاد "أربونة" و"قرقشونة"، واجتاح "غاليس" القوطية وكانت هذه الغزوة في سنة (101هـ/720م)[1].

نظم السمح "سبتمانيا" وأقام بها حكومة إسلامية ووزّع الأراضي بين الفاتحين والسكان وفرض الجزية على النصارى وترك لهم حرية إقامة شعائرهم الدينية[2].

وفي ربيع سنة (102هـ/712م) خرج السمح بالصائفة ليغزو فيما وراء "البرت" "البيرنيه" فاستشهد في "طرشونة" (في 9 ذي الحجة 102هـ/9 يونيو 721م)، فكانت ولايته ما يقرب من ثلاث سنوات[3].

هـ- ولاية عبد الرحمن الغافقي (ذي الحجة سنة 102هـ/721م):

بعد استشهاد السمح اختار القادة عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي للقيادة، فارتد نحو الجنوب بمن تبقى من الجيش، واختارته الجماعة حاكماً على الأندلس ريثما يتم تعيين والٍ من الخلافة، بقي في منصبه مدة قصيرة أخمد خلالها تمرد الولايات الشمالية[4].

و- عنبسة بن سحيم الكلبي (صفر سنة 103هـ/722م - شعبان 107هـ/مطلع 726م):

وصل عنبسة إلى الأندلس سنة 103هـ/722م، انصرف إلى تنظيم الإدارة، وإصلاح الجيش ثم سار سنة 105هـ/724م إلى الشمال عبر جبال "البيرنيه"، واستعاد

---

(1) سحنون نصر الله: المرجع السابق، ص30.

(2) ابن عذاري: البيان المغرب، ص26. كذلك أحمد العبادي: المرجع السابق، ص83، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص66، حسين مؤنس: المرجع السابق، ص30.

(3) ابن خلدون: العبر، 118/4. كذلك المقري: نفح الطيب، ج1، ص221، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص66، حسين مؤنس: المرجع السابق، ص30.

(4) ابن عذاري: البيان المغرب، 26/2. كذلك حسين مؤنس: المرجع السابق، ص30.

المدن التي خرجت بعد استشهاد السمح، واستولى على "قرقشونة" و"نيمة"[1]. وتابع زحفه شمالاً في وادي "الرون"، ولكن نكب المسلمون مرة ثانية، فإن "عنبسة" أثناء عودته إلى الجنوب تصدت له حشود من الفرنجة، أصيب أثناء المعركة بجراح بالغة توفي على أثرها في (شعبان 107هـ/726م) فتراجع الجيش الإسلامي إلى الداخل، واختل حبل الأمن في الأندلس، واضطربت الأوضاع فيها فقد توالى على الحكم فيها خلال خمس سنوات ستة ولاة أولهم "عزرة بن عبد الله الفهري" الذي تولى قيادة الجيش عقب وفاة "عنبسة" وبقي في مركزه مدة شهرين[2]. ثم خلفه "يحيى بن سلمة الكلبي" ولاه "بشر بن صفوان الكلبي" والي أفريقية الذي دخل الأندلس في شوال (107هـ/726م)، ودامت ولايته سنتين ونصف سادها الهدوء، وبعد وفاة "بشر بن صفوان" خلفه على أفريقية "عبيده بن عبد الرحمن السلمي"، الذي عزل "يحيى" من ولايته وعيّن مكانه على الأندلس" عثمان بن ابي نسعة الخثعمي" فقدم إليها في شعبان (110هـ/728م) ثم عُزل وخلفه "الهيثم بن عبيد الكناني" من قبل "عُبيدة السلمي" فقدم إلى الأندلس في (محرم 111هـ/729م)[3]، وكانت ولايته حوالي عشرة اشهر، وقد توفي الهيثم بعد سنتين من ولايته.

وتولى إمارة الأندلس بعد موت "الهيثم بن عبيد الكناني" "محمد بن عبد الله الأسجعي" وذلك لمدة شهرين حتى أسندت الولاية إلى "عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي" من قبل "عبيدة بن عبد الرحمن السلمي" والي أفريقية[4].

---

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 197/4. كذلك سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص31، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص69، خالد الصوفي: المرجع السابق، ص224.

(2) المقري: نفح الطيب، 220/4. كذلك ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 197/4، سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص31.

(3) المقري: نفح الطيب، 220/4. كذلك ابن عذاري: البيان المغرب، 26/2، ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص38، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص69.

(4) خالد الصوفي: المرجع السابق، ص225–226. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص70.

ز – عبـــد الـــرحمن الغـــافقي (الولايـــة الثانيـــة) (صـــفر ســـنة 112هـــ- رمضان114هـ/730-732م):

تولى "عبد الرحمن بن عبد الله الغـــافقي" إمـــارة الأنـــدلس فـــي صـــفر ســـنة 112هـ[1]/730م، كان "عبد الرحمن" حاكماً قديراً[2]، وإدارياً بارعاً ومصلحاً كبيـــراً وعسكرياً موهوباً ظهرت مواهبه العسكرية عندما عاد بالجيش العربي بعـــد استـــشهاد "السمح الخولاني" ويعد أهم ولاة الأندلس وأقدرهم[3]. بدأ عهده بزيارة مناطق الأندلس، اطلع على أحوالها،ونظم شؤونها وعهد بإدارتها إلى ذوي الكفاءة، وقمع الفتن، وعامل أهل الذمة معاملة حسنة فرد إلى النصارى الكنائس والأموال المصادرة ونظم الضرائب وأصلح الإدارة واهتم بالجيش ونظمه وحصن الثغور ودفع المظالم عن الناس، وكـــان يطوف في المدن ويحقق في شكايات الرعية، لا يميز بين مسيحي ومسلم، وعزل كثير من القواد والمسؤولين الذين ثبت ظلمهم للرعية[4]. وقد أعلن الجهاد ضـــد الفرنجـــة، فتجمعت حوله جموع المتطوعين،وتكوّن من هذه الحشود الإسلامية جيش هائل يتراوح عدده ما بين سبعين ألفاً ومائة ألف، جُلّهم من البربـــر، إذ أن العـــرب كـــانوا وقتئـــذ مشغولين بمنازعتهم القبلية[5].

جرت أحداث معركة "بلاط الشهداء" بقيادته مع الفرنجة والتي استمرت حـــوالي عشرة أيام في رمضان سنة (114هـ/نوفمبر 732م)[6]، واستـــشهد "عبـــد الـــرحمن الغافقي" في هذه المعركة في موضع يقع بـــين مـــدينتي "تـــور" (Tours) و"بواتيـــه"

(1) علي الشطشاط: المرجع السابق، ص70. كذلك سعدون نصر الله: المرجـــع الـــسابق، ص32، أحمـــد العبادي: المرجع السابق، ص83.

(2) ابن عذاري: البيان المغرب، 28/2. كذلك المقري: نفح الطيب: 220/2، ابن خلدون: العبر، 119/4.

(3) ابن عبد الحكم: فتوح أفريقية والأندلس، ص216-217. كذلك الحميدي: جذوة المقتبس، ص6 و255، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص70.

(4) السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص140. كذلك سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص33.

(5) السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص140. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص71.

(6) علي الشطشاط: المرجع السابق، ص71.

(Poitien) (حوالي 323 كم جنوبي باريس). وانتهت المعركة بانكسار الجيش الإسلامي وانسحابه من ميدان المعركة[1].

ح- عبد الملك بن قطن الفهري (الولاية الأولى) (شوال 114-رمضان115هـ/732-734م):

بعد استشهاد "عبد الرحمن الغافقي" وانسحاب المسلمين من بلاط الشهداء صدمة قوية في نفوس المسلمين وخاصة أنه لم يتحقق لهم النصر، أرسل والي أفريقية "عبيدة بن عبد الرحمن" "عبدالملك بن قطن الفهري" والياً على الأندلس في جيش من خيرة جنده، وأمره بالعمل على حماية الأندلس واسترجاع هيبة المسلمين وتثبيتها في جنوب فرنسا[2]، وقد دخل في شوال من سنة (114هـ/732م) وكانت مدة ولايته سنتين.

هذا وقام بغزو أرض البشكنس وكان ذلك في سنة (115هـ/733م)، فأوقع بهم وغنم، ثم عزل في رمضان سنة (116هـ/734م)[3]، وولي "عقبة بن الحجاج السلولي" من قبل "عبيد الله بن الحبحاب" والي أفريقية في شوال سنة (116هـ/734م)، فأقام خمس سنين محمود السيرة مجاهداً مظفراً[4].

ط- عبد الملك بن قطن الفهري (الولاية الثانية) (122-123هـ/739-740م):

ولي "عبد الملك بن قطن الفهري" الأندلس ولايته الثانية خلال سنة

---

(1) عبد الرحمن الحجي: المرجع السابق، ص193-194. كذلك عبد الحميد العبادي: المرجع السابق، ص46-47، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص71.

(2) خالد الصوفي: المرجع السابق، ص236-237. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص75، سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص38.

(3) ابن عذاري: البيان المغرب، 28/2. كذلك محمد زيتون: المرجع السابق، ص241، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص75.

(4) المقري: نفح الطيب، 236/1. كذلك ابن عذاري: البيان المغرب، 29/2، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص75.

(122هـ/739م)[1] صاحب فترة ولايته هذه قيام الثورات وانتشار الفتن من خارج الأندلس وداخلها.

ي- بلج بن بشر القشيري (123هـ/740م):

لم يكن القضاء على فتنة البربر بالأندلس بشير خير باستقرار الأمور فيه، حتى اندلعت فتنة بين العرب أنفسهم عند طلب "عبد الملك بن قطن بن بلج" الرحيل عن الأندلس حسب الشرط الذي اشترطه عليهم قبل عبورهم، فاختلفا في ذلك، فلما ألحّ عليهم في تنفيذ الشرط نهضوا إليه، فأخرجوه من قصره "بقرطبة"، ثم قبضوا على "عبدالملك" وقتلوه[2] وولي على الأندلس "ثعلبة بن سلامة العاملي"[3].

ك- ولاية ثعلبة بن سلامة العاملي (شوال سنة 124هـ/742م):

عندا توفي "بلج" ولي أهل الشام[4] بالأندلس على أنفسهم "ثعلبة بن سلامة العاملي"، حاول ثعلبة إعادة النظام، ولكن نفوذه كان محدوداً، إذ بقيت أكثر أقاليم الأندلس خارج سلطته وخاصة الأقاليم الوسطى والشمالية حيث يعتصم فيها القادة الثائرون، يساعدهم العرب الأندلسيون والبربر[5].

ودارت معارك بينه وبين خصومه، فهزمهم، وحدث ما لم يكن بالحسبان إذ وصل إلى الأندلس والٍ جديد هو "أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي"، ولاه والي

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، 30/2. كذلك علي الشطشاط، المرجع السابق، ص76.

(2) ابن عذاري: البيان المغرب، 31/2. كذلك مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص41، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 251/1، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص78.

(3) ابن القوطية: تاريخ افتتاح والأندلس، 41. كذلك ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 254/1، المقري: نفح الطيب، 59/1، 60.

(4) أصبح بلج وأصحابه يعرفون "بالشاميين" بينما كان عرب الأندلس الأولون يعرفون "بالبلديين" أي أنهم قد مضى زمن على وجودهم في الأندلس = علي الشطشاط: المرجع السابق ص 79 هامش (1)

(5) ابن القوطية: في تاريخ افتتاح الأندلس، 42. كذلك سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص41.

أفريقيـة "حنضلـة بن صفوان" بناءً على أمر الخليفة "هشام بـن عبـد الملـك" فـي دمشق[1].

ل- أبو الخطار بن ضرار الكلبي (125-128هـ/742-745م):

دخل "أبو الخطار" الأندلس في رجب (125هـ/743م)، قـبض علـى زمـام السلطة وأطلق سراح المعتقلين لدى ثعلبة[2]، وأعاد الهدوء إلى البلاد، وفرق الشاميين على مختلف قطاعات الأندلس، وأرسل جند الشام إلى "ألبيرة" وجنـد "حمـص" إلـى "أشبيلية" وجند "فلسطين" إلى "شذونه" و"الجزيرة" وجند "الأردن" إلـى "ريّـه" وجنـد "قنسرين" إلى "جيان" وجند "مصر" إلى "باجة"[3].

وكان إنزالهم على أموال العجم من أرض ونعم، وأبقى البلـد علـى أرزاقهـم وأراضيهم لم ينقصهم شيء فسروا بذلك، كما سر أيضاً جند الشام إذ وجدوا أنفسهم في بلاد تشبه بلادهم فاستقر بهم المقام وتحسنت أحوالهم المعاشية[4].

م- ثواب بن سلامة الجذامي (رجب-شعبان سنة 128هـ/746م):

كانت ولايته متداخلة مع ولاية "أبي الخطار" إذ أنّ هذا كان لا يزال يعتبر نفسه هو الوالي الشرعي للبلاد بعد أن تمكن من الفرار من سجنه، بينما كان "ثوابة" يتربـع

---

(1) ابن عبد الحكم: فتوح أفريقية والأندلس، ص221. كذلك ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص142، الحميدي: جذوة المقتبس، ص34، ابن الأثير: الكامل في التاريخ/260/1، ابن عذاري: البيان المغرب، 33/2، سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص42.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 260/1. كذلك سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص42.

(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 261/1. كذلك ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأنـدلس، ص44، سـعدون نصر الله: المرجع السابق، ص42.

(4) ابن الابار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله: الحلة السيراء في أشعار الأمـراء، نـشر حـسين مـؤنس (القاهرة، 1963)، 63/1. كذلك ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص44.

في الواقع على عرش السلطة ويسعى للقضاء على "أبي الخطار" قبل أن يتفاقم خطـــره من جديد ويتمكن من انتزاع الولاية منه[1].

ولا نستطيع التأكد من المدة التي قضاها في الحكم ولكن من المرجح إنها كانت سنة واحدة[2]، أو سنتين على حد قول "ابن عذاري"[3].

ن- يوسف بـن عبد الرحمن الفهـري (آخـر ولاة الأنـدلس) (129-138/747-755م):

تولى "يوسف بن عبد الرحمن الفهري" ولاية الأنـدلس[4] فـي (ربيـع الثـاني 128هـ/يناير 747م) دون الرجوع إلى الخلافة في دمـشق لأنهـا كانـت مـشغولة بمشاكلها الخاصة، ولم يكن بمقدورها أن تعمل شيئاً لمساعدة الأندلس.

تولى يوسف الولاية في ظروف لا يحسد عليها، فقد انهارت الأندلس واضمحلت السلطة المركزية، واستقلت النواحي، وبدأ نصارى الشمال أعمالهم العـسكرية،وعرفت البلاد الجفاف، فأجدبت الأرض وحلَّ الجوع، واضطر عدد كبير من المسلمين لمغادرة الأندلس إلى المغرب[5]. وقد عمل يوسف بهمة عالية للتغلب على هذه المصاعب، فزار الأقاليم وعزل الحكام الفاسدين، وقمع الفوضى وأصلح الطرقات، وعدل نظام الضرائب ونظم الأندلس إدارياً، واهتم بالجيش ونظمه وأحسن تدريبه ليكون جاهزاً لقمع الفـتن والثورات، ولم يكد ينتهي من إخماد الثورات التي قامت ضده، حتى فوجئ بخطر جديد

---

(1) علي الشطشاط: المرجع السابق، ص81. كذلك خالد الصوفي: المرجع السابق، ص283.

(2) المقري: نفح الطيب، 237/1. كذلك مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص90، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص82.

(3) ابن عذاري: البيان المغرب، 35/2.

(4) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 278/1. كذلك ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأنـدلس، ص44، سـعدون نصر الله: المرجع السابق، ص43.

(5) ابن عذاري: البيان المغرب، 37/2. كذلك ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 461/4، سعدون نـصر الله: المرجع السابق، ص44.

جاءه من المشرق ألا وهو خطر الأمير الأموي "عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبد الملك" (الداخل) وذلك في غرة ربيع الأول سنة 138هـ/755م)، حيث استطاع نزع الإمارة وإنهاء عصر الولاة[1].

2- السمات العامة لعصر الولاة:

نظرة واحدة على هذه القائمة الطويلة لعشرين من الحكام الذين تعاقبوا على الحكم خلال أربعين عاماً، تدل على أن العصر عصر اضطراب وعدم استقرار،ويلمح المرء ظواهر لهذا الاضطراب وتلك الفوضى عندما يقرأ الروايات المتعلقة بتلك الفترة عند المؤرخين الذين أرخوا للأندلس[2]، إذ نجد فيها:

أ- عدم وجود قاعدة أو قانون لتعيين الولاة، فرغم أن التقليد جرى على اعتبار الأندلس تابعة لوالي أفريقية في "القيروان" يعين عليها من يختاره، لكن هذه القاعدة كانت تخرق دائماً، فمثلاً نجد "عمر بن عبد العزيز" يعين "السمح بن مالك الخولاني" لولاية الأندلس من قِبله مباشرة، وفي أحيان أخرى كانت القبائل البربرية والعربية على مقياس أوسع تعين هي الوالي من قبلها دون اعتبار لرأي والي أفريقية أو موافقة الخليفة في "دمشق"، كما جرى الحال عند تعيين "أيوب بن حبيب اللخمي"، في أول العصر، و"بلج الجذامي"، و"يوسف بن عبد الرحمن الفهري"[3].

ب- إذا استثنينا وجود والٍ للأندلس، وقاضٍ إلى جانبه يسمى بقاضي الجند، لا نجد أثراً لجهاز إداري أو مالي، فليس هناك ذكر في الروايات التاريخية في مقاطعات

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، 38/2. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص84، خالد الصوفي: المرجع السابق، ص302، محمد زيتون: المرجع السابق، ص226.

(2) بدر، أحمد: دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها من الفتح حتى الخلافة، مكتبة أطلس، ط2 (دمشق، 1972)، 34/1.

(3) ابن عذاري: البيان المغرب، 36/2. كذلك أحمد بدر: المرجع السابق، ص34.

الأندلس المختلفة أثناء هذا العصر موظفين إلى جانب الوالي، أو أشخاص مسؤولين عن المال وجبايته[1].

ج- الأندلس في هذه الفترة كانت بلداً يسيطر عليه جند منقسمون إلى عرب وبربر وكل قسم منهم ينقسم بدوره إلى قبائل تعيش كل منها في منطقة معينة وتخضع لرئيسها[2].

رابعاً: عصر الإمارة في الأندلس:

1- قيام الدولة الأموية في الأندلس ووصول عبد الرحمن الداخل إلى الحكم: (138-172هـ/755-788م)

سقطت الدولة الأموية في المشرق بعد معركة "الزاب" في (11 جمادي الثانية سنة 132هـ/749م)، وانتقلت إلى بني العباس وخرجت الأندلس وشمال أفريقية من قبضة الخلافة رسمياً[3]. وكانت سيطرة الخلافة الأموية على الأندلس خلال فترة عصر الولاة سيطرة اسمية فقط، وبطش العباسيون بالأمويين إذ عهد الخليفة العباسي "أبو العباس" إلى عمه عبد الله بن علي باستئصال الأمويين انتقاماً منهم لما اقترفوه بحق الهاشميين، فكانت مذبحة "أبي فطرس" في فلسطين، حيث قتل منهم أكثر من سبعين شخصاً، وتشاء الظروف أن ينج من المذبحة أحد أفراد تلك الأسرة ألا وهو "عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك"، وقد اتجه نحو أفريقية لعدة أسباب، منها لتطرفها عن مركز الخلافة العباسية، واستقلال "عبد الرحمن بن حبيب"

---

(1) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص24-25. كذلك ابن عذاري: البيان المغرب، 33/2، أحمد بدر: المرجع السابق، ص34.

(2) ابن عذاري: البيان المغرب، 38/2. كذلك مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص61 و62، أحمد بدر: المرجع السابق، ص34.

(3) طلفاح، خير الله: حضارة العرب في الأندلس (بدون مكان، بدون تاريخ)، ص62. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص87، سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص53.

بولايتها[1]، ولوجود أخواله من البربر من قبيلة بني نفرة، ويمم وجهه شطر المغـرب، واجتاز فلسطين متخفياً فمر بمصر[2] وغادرها إلى برقة ملتجئاً إلى أخواله مـن بنـي نفرة في طرابلس[3]، حيث أقام عندهم يدرس الوضع ويفكر بالاستيلاء على أفريقيـة، ولكن حاكمها "عبد الرحمن بن حبيب الفهري" كان يقظاً، ويخشى علـى ملكـه مـن الأمويين الفارين[4].

حاول "عبد الرحمن الفهري" اعتقاله، ولكنه نجا وفرَّ مع مرافقيه إلى المغـرب الأقصى[5] رغم الصعاب، ولجأ إلى شيخ بربري يدعى "وانسوس"[6]، نال حظوة لديـه فيما بعد. ثم حلَّ في "مليلة"، وهو يدرس أوضاع الأندلس خاصة وأن للأمويين أنصار فيها. وفي سنة (136هـ/753م)، وصلته أخبار مشجعة من الأندلس، فقد اشتد الخلاف بين اليمنية والمضرية، فأرسل مولاه "بدراً" إليها ليثبت دعوة الأمويين بين أنـصارهم الشاميين[7]، فنزل بدر بساحل البيرة حيث كان يستقر الجنود الشاميون، بعد أن أرسلهم إليها "يوسف الفهري" وهو تدبير من التدابير التي أقدم عليها "يوسف الفهري" لإخمـاد الفتنة، وكان يترأس الجنود زعيمان من أنصار الأمويين هما "أبو عثمان عبيد الله أبـو عثمان" وصهره "عبد الله بن خالد"، فأجتمع بدراً بهما وقدَّم إليهما كتاب عبد الرحمن[8] يشكو فيه ما ابتلوا به ويعظِّم عليهم حقه ونزوعه إليهم وما صنع به "ابن حبيب" وبقومه

---

(1) ثار عبد الرحمن بن حبيب الفهري على والي أفريقية حنظلة بن صـفوان واسـتقل بولايـة أفريقيـة والمغرب وخرج عن طاعة الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور.

(2) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص53-55. كذلك المقري: نفح الطيب، 312/1، ابن عذاري: البيان المغرب، 42/2، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ص362، سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص53.

(3) المقري: نفح الطيب، 307/1. كذلك ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ص362، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص88.

(4) سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص53.

(5) ابن عذاري: البيان المغرب، 41/2. كذلك سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص54.

(6) ابن عذاري: البيان المغرب، 42/2-43. كذلك المقري: نفح الطيب، 328/1.

(7) علي الشطشاط: المرجع السابق، ص90.

(8) ابن عذاري: البيان المغرب، 46/2.

بأفريقية ويُعلمهم أنه إن دخل إلى "يوسف الفهري" لم يأمنه، ويعرض إنه إنمـــا يريــد الاعتزاز بهم وأن يمنعوه وأن تهيأ لهم ما فيه طلب سلطان الأندلس أن يعلموه[1].

استجاب "أبو عثمان" للطلب، وكانت تربطه صلة "بالصميل بن حاتم"، كذلك سار لمقابلته في "طليطلة"، حيث يُقيم فيها بعد هزيمته في "سرقسطة"، ويلقي بـــاللوم علـــى يوسف لأنه قصَّر في مساعدته، وعرض "أبو عثمان" الأمر على "العميل" فأبدى فتوراً، واقترح على "أبي عثمان" بأن ينزل "عبد الرحمن" في كنف "يوسف"، وأن يتزوج ابنته، وصرفه بوعود غامضة[2]، وكان "الصُميل" يفضّل بقاء "يوسف" في الحكم لأنه يشاركه فيه[3].

غادر بدر الأندلس على ظهر مركب خاص من "أبي عثمان" يــصحبه بعــض أنصار الأمويين، وأطلع سيده على مجريات الأمور، عندها تــشجع "عبــد الــرحمن" وتفاءل خيراً، وجاز المضيق إلى الأندلس، ونزل بثغر "المنكّب" بساحل البيرة في ربيع آخر 138هــ/756م[4]، واستقبله "أبو عثمان" واستضافه في قصره في "طرّش"، حيث استقر فيها ينظم أموره ويضع خططه للمستقبل[5].

وفي هذه الأثناء كان "يوسف بن عبد الرحمن الفهري" المتغلب على الأندلس قد انتصر على الثائرين عليه في "سرقسطة" وبدأ يتخلص من خصومه الذين كانوا يعارضــون بعــض تصرفاتــه حتى تكون الأندلس خالصة له ولولده من بعده، ولكنه فوجئ بقدوم "عبد

---

(1) مؤلف مجهول: مجموعة أخبار، ص67. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص88، محمد زيتون: المرجع السابق، ص243.

(2) ابن عذاري: البيان المغرب، 45/2. كذلك المقري: نفح الطيب، 307/1، ابن القوطية: تــاريخ افتتــاح الأندلس، ص22، سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص54.

(3) سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص54.

(4) الحميدي: جدوة المقتبس، ص37. كذلك ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 362/1، ابن عذاري: البيــان المغرب، 44/2.

(5) ابن عذاري: البيان المغرب، 46/2. كذلك المقري: نفح الطيب، 307/1، سعدون نصر الله: المرجــع السابق، ص55.

الرحمن بن معاوية" إلى الأندلس وتأييد موالي الأمويين والقبائل اليمنية له، لهذا بدأ يضع الخطط للتخلص منه، وقد شاور "الصميل" في أمره فأشار عليه بالمكر به ومخادعته، وهوّن عليه ذلك، وذلك لحداثة سنه، وقال له وهو قريبُ عهد بزوال النعمة، فهو يغتنم ما تدعو إليه، ثم أنت بعد ذلك متحكم فيه وفي الذين سعوا له بما تُحب[1].

رفض "عبد الرحمن" العروض التي تلقاها من "يوسف الفهري" وأرسل وفداً إلى "طرّش" محملاً بالهدايا مع رسالة، لأنه كان يطمع في حكم الأندلس، الذي أصبح قاب قوسين أو أدنى بعد التأييد الذي لاقاه، وقد انضم إلى عبد الرحمن أثناء زحفه على عدد كبير من الجنود حيث بلغ عدد جيشه في "أشبيلية" حوالي 3000 فارس. ولما أنس من نفسه القوة توجه نحو قرطبة للاستيلاء عليها في مطلع ذي الحجة (138هـ/756م)[2].

عبر "عبد الرحمن" بجيشه النهر، ونشبت معركة عنيفة[3] في (ذي الحجة 138هـ) انتصر فيها "عبد الرحمن"، إذ كان يقود جيشاً متماسكاً يلتهب حماسة، ودامت المعركة حتى الضحى حيث حلت الهزيمة بجيش "يوسف" وقتل كثير من قادته وفرسانه[4].

وهرب "يوسف" إلى طليطلة والصميل إلى جنوب "جيان" ودخل "عبد الرحمن" العاصمة "قرطبة" وصلى صلاة الجمعة في الجامع، وتلقى البيعة بالإمارة في القصر يوم (10 ذي الحجة 138هـ/13 مايو 756م)، واتبع سياسة الاعتدال مع خصومه ومنع الجنود من الاعتداء على أسر وحريم وأموال خصومه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً[5].

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، 45/2. كذلك المقري: نفح الطيب، 328/1، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص90.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 362/1. كذلك سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص56.

(3) تسمى هذه المعركة بمعركة المصارة، بأحد أرباط قرطبة.

(4) محمد زيتون: المرجع السابق، ص252. كذلك سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص56، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص92.

(5) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص26-27-28. كذلك ابن عذاري البيان المغرب، 47/2، 48، 49، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 363/1، مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص86-90، سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص57.

استطاع "عبد الرحمن" بعد تشرد وهوان أن يظفر بحكم الأندلس ويتربع على كرسي إمارتها، ولكن ذلك الحكم لم يتوطد إذ كتب عليه أن يقضي حياته بقمع الثورات التي هبت في وجهه، فقد غدت الأندلس وقبل أن تسقط الدولة الأموية نهباً للأقوياء الذين استقلوا ببعض أنحائها، وقد قضى "يوسف الفهري" طيلة حكمه يحاول عبثاً إخماد تمرد الزعماء، فكان على "عبد الرحمن" القيام بأعباء هذه المهمة وهي إعادة توحيد الأندلس، فكانت المعركة معركة الدولة الموحدة والإمارات المستقلة، معركة السلطة المركزية والإقطاع المحلي[1].

وهكذا أمضى عبد الرحمن حكمه الذي امتد ثلاث وثلاثين سنة (138-172هـ/755-788م) في كفاح مستمر تعرض خلاله إلى أكثر من ست عشرة ثورة لم تتح له فرصة للراحة والاستقرار[2].

اهتم عبد الرحمن بالجيش الذي كان عماد حكمه والأداة الفعالة في قمع الثورات العديدة، حتى بلغ عدده حوالي المئة ألف جندي[3]، بالإضافة إلى البربر والموالي وعددهم أربعون ألفاً[4].

واهتم كذلك بالبحرية حيث أقام دُوراً لبناء السفن في الثغور البحرية والنهرية في "إشبيلية" و"قرطاجنة" و"طرطوشة" وغيرها، حتى أنه فكّر بالعودة إلى المشرق بهذا الجيش، وكان ذلك عام (163هـ/779م). ولكن ثورة الشمال وعبور الفرنج إلى الثغر الأعلى حالا دون تنفيذ هذه المهمة[5].

---

(1) أحمد العبادي: المرجع السابق، ص100. كذلك سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص57.

(2) الحميدي: جذوة المقتبس، ص26. كذلك ابن عذاري: البيان المغرب، 2/47-48، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص98، سعدون نصر الله، المرجع السابق، ص69.

(3) المقري: نفح الطيب، 2/74. كذلك محمد زيتون: المرجع السابق، ص267-268.

(4) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص58. كذلك محمد زيتون: المرجع السابق، ص267، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص99، سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص69.

(5) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص58. كذلك سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص69.

أولى عبد الرحمن العاصمة "قرطبة" عناية خاصة، فأنشأ فيها مدينة "الرصافة" مقره، وفي سنة (150هـ/766م) بدأ بإنشاء سور "قرطبة"[1].

كذلك بنى كثيراً من المساجد، وقد بدأ ببناء المسجد الجامع في "قرطبة" على أنقاض كنيسة قوطية قديمة، وأكمل بناءه فيما بعد ابنه "هشام"، وبلغ ما أنفقه "عبدالرحمن" على بنائه مئة ألف دينار وكذلك أنشأ داراً للسكة[2].

بعد عُمْر قارب الستين عاماً توفي "عبد الرحمن بن معاوية الأموي" يوم الثلاثاء لست بقين من ربيع الآخر، وقيل لعشر خلون من جمادي الأول سنة (172هـ/788م)، ودُفن بقصر قرطبة، وخلفه ابنه "هشام" بعهدٍ منه[3].

2- هشام بن عبد الرحمن (الرضا) أو المرتضى (172-180هـ/788-796م):

هو أبو الوليد هشام الرضا بن عبد الرحمن الداخل، ولد عام 139هـ/756م[4]، وأمه أم ولد تُدعى "حلل"، وقد عهد إليه والده "عبد الرحمن" بولاية العهد، وكان يقيم "بماردة" عند وفاة والده، أخذ له البيعة أخوه "عبد الله" الملقب البلنسي على مضض لأنه كان يرى أنه وأخاه "سليمان" أحق بولاية العهد منه. ودخل "هشام" "قرطبة" وبويع

---

(1) خالد الصوفي: تاريخ العرب في الأندلس (عصر الإمارة) من عبد الرحمن الداخل إلى عبدالرحمن الناصر، منشورات جامعة قاريونس، (بنغازي، 1980)، ص93. كذلك حسين مؤنس: المرجع السابق، ص266، سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص69.

(2) المقري: نفح الطيب، 308/1. كذلك العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق أحمد زكي باشا (القاهرة، 1924)، ص212، خالد الصوفي: تاريخ العرب في الأندلس (عصر الإمارة)، ص94.

(3) ابن عذاري: البيان المغرب، 60/2. كذلك المقري: نفح الطيب، 155/1، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص98، أحمد بدر: المرجع السابق، ص100، Perez de urbal primeros - Arabs. arbil T. XXIV, 1953, p. 508-510.

(4) الحميدي: جذوة المقتبس، ص78. كذلك ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 83/5، ابن عذاري: البيان المغرب، 62/2، سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص70.

بالإمارة في مطلع جمادي الأولى (172هـ/788م) وله من العمر 33 سنة[1].

امتد حكمه أكثر من سبع سنوات، إذ توفي في الثالث من شهر صفر عام (180هـ/796م)، واشتهر بثقافته العالية وعلمه الواسع وبتقواه التي أهلته لينال لقب الرضا، وفي عهده بدأ المذهب المالكي ينتشر، وبدأ فقهاء هذا المذهب يلعبون دوراً بارزاً في السيطرة على أمراء الحكم وتوجيه شؤون الدولة[2].

كان هشام حاكماً ورعاً، جيد الطباع والشمائل، منصرفاً إلى تحري الحق والعدالة لصالح أمته. ولهذا لُقب بالرضا، وشبهه بعض المؤرخين بالخليفة الأموي "عمر بن عبدالعزيز"[3].

وعلى الرغم من أن هذا الأمير كان رجل سلام يفضل السلم على الحرب، إلا أنه كان مضطراً إلى الدخول في حروب عديدة لتوطيد ملكه، فقد حارب أخاه "سليمان" وانتصر عليه، كذلك أخمد ثورتين يمنيتين قامتا في نواحي "سرقسطة" و"برشلونة" الأولى كانت بقيادة سعيد بن القائد المعروف بالحسين بن يحيى الأنصاري" الذي أغلق أبواب سرقسطة في و جه "شارلمان" والثانية بقيادة "مطروح بن سليمان بن يقطان الأعرابي" الذي لعب دوراً بارزاً في تلك الغارة التي قضى فيها على مؤخرة جيش "شارلمان" في جبال "البرتات"، ولكن هذه الفتن أخمدت بسهولة وقُتل أصحابها[4].

وبعد أن وطد "هشام" حكمه في الداخل، اتجه نحو محاربة المسيحيين في الشمال مدفوعاً في ذلك بنزعته وحماسه الديني، فحارب الأسبان في ولاية "اشتوريش" في شمال غرب أسبانيا، وكان لهذه الولاية جبهتان مع الحدود الإسلامية، جبهة شرقية وهي

---

(1) ابن الخطيب، لسان الدين بن الخطيب محمد بن عبد الله: أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام - تحقيق ليفي بروفنسال، دار المكشوف (لبنان، 1956)، ص11. كذلك أحمد العبادي: المرجع السابق، ص113، خالد الصوفي: تاريخ العرب في الأندلس (عصر الإمارة)، ص109.

(2) ابن عذاري: البيان المغرب، 61/2. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص109، محمد زيتون: المرجع السابق، ص271.

(3) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص11. كذلك أحمد العبادي، المرجع السابق، ص113.

(4) أحمد العبادي: المرجع السابق، ص113.

منطقة القلاع "Castellas" التي صارت "قشتالة" فيما بعد، وجبهة غربية هي منطقة "غاليسيا" أو "جليقية". كذلك أرسل "هشام" حملات صيفية على ولاية "سبتمانيا" الفرنجية في جنوب فرنسا، وغنم منها غنائم مكّنته من بناء عدة مساجد على شاطئ الوادي الكبير[1].

أثناء حكمه قام هشام بإنشاءات عديدة، فقد أتم بناء مسجد قرطبة، وجدد قنطرتها الشهيرة التي بناها "السمح الخولاني" وكان ينفق الأموال في افتداء الأسرى المسلمين حتى لم يبق أسير مسلم واحد في عهده، وخصص أموالاً لأسر الشهداء[2].

وفي عهده جعلت اللغة العربية لغة التدريس في مدارس ومعاهد النصارى واليهود، وكان لذلك أثره البالغ في التقريب بين أصحاب المذاهب المختلفة، وبث روح التفاهم والوئام بينهما ولاسيما بين المسلمين والنصارى، مما جعل العديد من النصارى يعتنقون الدين الإسلامي، بعد أن وقفوا على أصوله وتفاصيله[3]. كما كان لهذا العمل دوره المهم في نشر الحضارة الإسلامية فيما بعد في أوروبا، ولقد عمل الأمير "هشام" على نشر العدل في كافة بلاد الأندلس، وطبق في ذلك الكتاب والسنة[4].

وكان الأمير "هشام" يؤثر مجالس الفقهاء والمحدثين، وفي عهده انتشر مذهب الإمام "مالك بن أنس"، وقد نقل مذهبه إلى الأندلس عدد من الفقهاء الذين رحلوا إلى المشرق ودرسوا في المدينة المنورة على يد "مالك" وعادوا يحملون مذهبه إلى الأندلس وحلّ المذهب المالكي محل المذهب الأوزاعي الذي كان يعمل به الأندلسيون[5].

---

(1) أحمد العبادي: المرجع السابق، ص113. كذلك محمد زيتون، المرجع السابق، ص275-276.

(2) ابن عذاري: البيان المغرب، 66/2. كذلك ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 101/5، سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص72.

(3) علي الشطشاط: المرجع السابق، ص112. كذلك محمد عنان: المرجع السابق، ص226، محمد زيتون: المرجع السابق، ص276.

(4) محمد زيتون: المرجع السابق، ص276.

(5) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص120. كذلك السلاوي: الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب (الدار البيضاء، 1954)، 61/1، المقري: نفح الطيب، 158/1، سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص73.

3- الحكم الأول بن هشام (الربضي) (180-206هـ/796-821م):

تولى الإمارة الحكم[1] بعهد من أبيه وبويع في 8 صفر سنة (180هـ/796م) وعمره ست وعشرون سنة.

شبه هذا الأمير بالخليفة المنصور العباسي في شدة بأسه وحزمه وقوة عزيمته، وحسن تدبيره، وهذه الصفات جميعاً مكّنته من القضاء على الثورات والفتن التي هددت عرشه[2].

كان طاغية قاسياً على خصومه مع نزعة إلى الإنصاف والعدالة[3]. كان يميل إلى اللهو ويؤثر الشعراء والندماء على الفقهاء الذين أدركوا أن نجمهم أفل مع تولية "الحكم"، لذلك أخذوا يعملون في السر لإبعاد الأمير عن الحكم وانتزاع السلطة منه، وبدأوا يعرضون به في المساجد ويحرضون العامة عليه مستغلين نزعة "الحكم" إلى البذخ واللهو، ولاقت أقوالهم آذاناً صاغية في صفوف الشعوبيين من بربر ومولدين الذين كانوا يكنون للعرب الحقد والكراهية لاستئثارهم بالحكم، وكان هؤلاء، وخاصة البربر، على استعداد للثورة، وكان تحريض الفقهاء لهم حافزاً على ذلك[4].

توفي الحكم في آخر سنة (206هـ/821م) بعد أن وطّد ملك بني أمية، وقضى على أعدائه[5]. كذلك اهتم بنشر العدالة وسيادة الإنصاف بين الرعية[6].

---

(1) كنيته أبو العاصي، وأمه زخرف، ولد سنة 154هـ، وتوفي سنة 206هـ، بعد أن حكم ستاً وعشرين سنة وأحد عشر شهراً = ابن عذاري: البيان المغرب، 68/2.

(2) المقري: نفح الطيب، 240/1. كذلك أحمد العبادي: المرجع السابق، ص118، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص114.

(3) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص120. كذلك نفح الطيب، 318/1، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 101، السلاوي: الاستقصاء، 61/1، ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص61، سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص73.

(4) سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص73.

(5) السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص266. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص121.

(6) السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص266.

وقبل وفاته أخذ البيعة لابنه "عبد الرحمن" ثم "المغيرة" من بعده، وكان ذلك في الحادي عشر من ذي الحجة سنة 206هـ/821م، وبعد وفاته صلى عليه ابنه عبد الرحمن ودُفن في مقبرة القصر المعروفة بالروضة[1].

والحكم أول أمراء بني أمية أظهر فخامة المُلك في الأندلس إذ أقام حاشية كالملوك من الحرس الخاص، واستخدم الصقالبة وأغلبهم من الرقيق والخصيان، أقاموا في القصر، وكانوا يجلبون من سائر أنحاء أوروبا النصرانية أطفالاً من الجنسين ويربون تربية إسلامية حتى بلغ عددهم حوالي 5 آلاف[2].

ورغم الاضطرابات التي حصلت في عصره إلا أن العلوم ازدهرت فيه وبرز عدد من الشعراء والعلماء والأدباء، منهم: الشاعر الخاص للحكم "عباس بن ناصح الجزيري الثقفي"، فقد كان شاعراً ولغوياً وفيلسوفاً بارعاً في الهندسة والفلك، ومن مشاهير العصر "عباس بن فرناس التاكرني" الفيلسوف والعالم الرياضي والفلكي والكيميائي[3].

4- عبد الرحمن الثاني الحكم (الأوسط) (206-238هـ/821-852م):

هو "أبو المُطرِّف عبد الرحمن بن الحكم"، الابن الأكبر "للحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل"، ولد "بطليطلة" في شعبان سنة (176هـ/792م)، عهد إليه أبوه بولاية العهد باعتباره أكبر أولاده، ثم لأخيه "المغيرة" من بعده فلما توفي الحكم (206هـ/821م) خلفه ابنه الأمير "عبد الرحمن" وكان عمره آنذاك ثلاثاً وعشرين سنة وتسعة أشهر، وتوفي ليلة الخميس الثالث من شهر ربيع الآخر سنة (238هـ/852م)

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، 77/2. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص121.

(2) المقري: نفح الطيب، 320/1. كذلك ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 203/1، سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص81.

(3) محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، ص252. كذلك سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص82.

عن عمر قد بلغ اثنين وستون سنة[1]. وعُرِف بعبد الرحمن الأوسط لأنه ثاني ثلاثة سموا بهذا الاسم، وقاموا بأمر الأندلس، وهما: عبد الرحمن الداخل، وعبد الرحمن الناصر[2].

كان عالماً بعلوم الشريعة والفلسفة وكانت أيامه أيام هدوء وسكون، حيث استطاع القضاء على الثورات والفتن الداخلية، كما كثرت الأموال في عهده، واتخذ القصور والمنتزهات، وجلب إليها المياه من الجبال، وأقام الجسور، وبنى الجوامع، وزاد في جامع قرطبة رواقين، ومات قبل أن يستتمه، فأتمه ابنه محمد من بعده[3].

كان الأمير عبد الرحمن شاعراً أديباً ذا همة عالية، اشتهر بكثرة غزواته وفتوحاته العظيمة، لم يلقِ المسلمون معه بؤساً، ولم يروا في أيامه يوماً عبوساً، وهو أول من جرى على سنن الخلفاء في الزينة والشكل، وترتيب الخدمة، وكسا الدولة أبهة العظمة، واتخذ السكة بقرطبة، وفخم ملكه[4].

وفي عهده برزت الأرستقراطية العربية حيث عرف بلاط "قرطبة" مظاهر البذخ والترف، وأحاط نفسه بالأكفاء واستوزرهم منهم الحاجب "عبد الكريم بن عيسى بن شهيد"، و"يوسف بن بخت"، و"هاشم بن عبد العزيز"، وكان الوزراء يأتون إلى القصر بأوقات منظمة لبحث شؤون الأندلس ولهم مقر خاص سمي "بيت الوزراء" ووصلت أعطياتهم إلى 350 ديناراً شهرياً[5].

ومن أهم أعماله أنه قام بالعديد من الإصلاحات الإدارية والمعمارية والصناعية والزراعية، ورفع من شأن الوظائف العامة وأحاطها بالهيبة والمسؤولية، وزادت أموال

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، 80/2. كذلك المقري: نفح الطيب، 344/16، ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص76، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص122.

(2) المقري: نفح الطيب، 347/1. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص122.

(3) المقري: نفح الطيب، 347/1. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص122.

(4) ابن عذاري: البيان المغرب، 91/2. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص123.

(5) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص82. كذلك سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص90، خالد الصوفي: تاريخ العرب في الأندلس (عصر الإمارة)، ص171.

الجباية في عهده فبلغت مليون دينار وأنشأ داراً لسك النقود في "قرطبة" وجعلها أندلسية بقيم وأوزان جديدة[1].

وقد ارتفع شأن الإمارة الأموية في عهده، وأصبحت الدول الأجنبية تطلب ودها وتقيم معها علاقات سياسية متينة وقد حدث ذلك بعد انتصار "المعتصم بالله" على الإمبراطور البيزنطي في أنقره وزبطرة وعمورية[2].

5- محمد بن عبد الرحمن بن الحكم:

(238-273هـ/852-886م)

لم يكن الأمير "محمد" أكبر أبناء "عبد الرحمن الأوسط"، ولكنه كان أصلحهم للأمر برأي أبيه ورجال إمارته، وقد رشحه عبد الرحمن لولاية العهد، وأخذ رجال الدولة بالالتفاف حوله، فلما توفي "عبد الرحمن" صار الأمر إليه دون مشقة وتولى الأمير "محمد[3] بن عبد الرحمن" الإمارة في 4 ربيع الآخر سنة (238هـ/852م)، وكانت وفاته يوم الخميس لليلة بقيت من شهر صفر 273هـ/886م، وهو ابن خمس وستين سنة، وكانت مدة حكمه ما يقرب من خمس وثلاثين سنة[4].

أبقى أكثر المسؤولين في أيام والده في مراكزهم وخاصة الوزراء، ووضع نظاماً خاصاً للوزراء وقربهم من أهل الشام على غيرهم، وكان يشرف على أعمال الوزراء والكتاب[5].

---

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 16/7-17. كذلك ابن عذاري: البيان المغرب، 87/2، 88، المقري: نفح الطيب، 345/1-346، ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص78-83، محمد زيتون: المرجع السابق، ص299-300، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص127.

(2) وقعة عمورية حدثت في (25 شعبان سنة 223هـ/13 أغسطس سنة 838م).

(3) كنيته أبو عبد الله، وأمه بهيرة، مولده في شهر ذي القعدة سنة 207هـ/822م - ابن عذاري: البيان المغرب، 93/2.

(4) ابن عذاري: البيان المغرب، 93/2، 94. كذلك ابن الخطيب: أعمال الأعلام، 20، 23، المقري: نفح الطيب، 350/1-352، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص133.

(5) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص95. كذلك سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص92.

ولقد وجه الأمير "محمد" عناية واهتمام كبيرين لأمور الدولة الداخلية والخارجية حفاظاً عليها من الثائرين في الداخل والمغيرين والمتربصين بها من الخارج، وقضى معظم مدة حكمه في غزوات متعاقبة وحملات لتأديب الثوار في الداخل، وحملهم على الطاعة، والوقوف في وجه الممالك النصرانية، وحماية ثغور المسلمين واهتماماً بمصالحهم، كما اهتم بالإصلاحات الداخلية خلال فترة حكمه[1].

6- المنذر بن محمد بن عبد الرحمن:

(273-275هـ/886-888م)

ولد سنة 229هـ/843م، وبويع بالإمارة في 8 ربيع الأول سنة 273هـ/أغسطس 886م، وهو في الرابعة والأربعين من عمره، وعين على حجابته "هاشم بن عبد العزيز" ولكنه انقلب عليه بعد شهرين وقتله وسجن أولاده في جمادي الأول 273هـ/886م. وعين مكانه عبد الرحمن بن أميه بن شهيد، وقد دامت مدة حكمه سنتين إلا سبعة عشر يوماً، وذفن بقصر قرطبة وصلى عليه أخوه عبد الله[2].

خصه المؤرخون بالكثير من مديحهم وتنبأوا له بمستقبل باهر وحكم سعيد فيما لو طال أمد إمارته فقالوا عنه أنه: "لو عاش عاماً واحداً زائداً، لم يبق بين يديه ثائر في الأندلس[3].

وصف بأنه من أهل العقل والسخاء والإكرام لأهل العلم والصلاح، وقد قرب إليه كل العلماء والأدباء[4]. وكان الساعد الأيمن لأبيه في حماية الدولة، فقد حارب الثوار المتربصين الخارجين على الدولة، ومدافعة المهاجمين لها، وكان متصفاً

---

(1) علي الشطشاط: المرجع السابق، ص133. كذلك محمد زيتون: المرجع السابق، ص304.

(2) ابن عذاري: البيان المغرب، 2/113-114. كذلك ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص113، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص143، سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص98-99.

(3) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، 3/24. كذلك خالد الصوفي: المرجع السابق، ص274.

(4) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص113. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص143.

بالشجاعة والعزم والحزم والصرامة[1].

تسلم "المنذر" إرثاً ثقيلاً من المشاكل، لم يكن من السهولة إيجاد حلول لها، فالتمزق السياسي بلغ مداه، والحركات الانفصالية أخذت تتفشى في كل الأقاليم والمؤامرات تزحف إلى القصر، وقد تصل إلى الأمير نفسه[2].

ولقد شمر "المنذر" عن ساعديه لمحاربة الثائرين والمارقين والمنشقين على عصا الطاعة وكان على رأسهم "ابن حفصون"[3] وأخذه بالعزم، وكاد أن يقضي عليه لولا أن المنية فاجأته وهو محاصره[4].

7- عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم:

(275-300هـ/888-912م)

ولد الأمير "عبد الله" سنة 229هـ/843م، وبويع بالإمارة في اليوم الذي توفي فيه أخوه المنذر منتصف شهر صفر 275هـ/يونيو 888م تحت أسوار "ببشتر"، كان أول عمل قام به العودة إلى "قرطبة" حاملاً جثمان أخيه حيث دفنه في مقبرة القصر وتولى الحكم في ظروف صعبة جدا، فلم يحسده عليها أحد ولم يعترض إخوته على ذلك وبدأ كفاحه الطويل مع الثورات التي عصفت بالأندلس في كل ناحية ومدينة حتى انحسرت سلطة الحكومة في "قرطبة" العاصمة وضواحيها، عمل طوال ولايته على قمع الثورات والحفاظ على الملك بأيدي الأمويين[5].

---

(1) علي الشطشاط: المرجع السابق، ص143.

(2) إبراهيم بيضون: المرجع السابق، ص264. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص143.

(3) ابن عذاري: البيان المغرب، 116/2.

(4) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص113. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص144.

(5) ابن عذاري: البيان المغرب، 120/2، 121. كذلك ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص115، مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص150، سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص100.

كانت أخطر الثورات ثورة المولد "ابن حفصون" الذي تنفس الصعداء بموت الأمير "المنذر"[1] وأغار على المناطق المجاورة واستولى على "اشذونة" وسار الأمير بنفسه سنة 276هـ/889م وهاجم حصن "ببشتر" معقل ابن حفصون ولكنه لم يقض على الثائر فعاد إلى "قرطبة"[2].

توفي الأمير عبد الله عام 300هـ/912م وهو ابن اثنتين وسبعين سنة، فكانت مدة خلافته خمساً وعشرين سنة وخمسة عشر يوماً[3].

8- السمات العامة لعصر الإمارة:

1- فبينما اتسم عصر الولاة كله بطابع الصراع بين القبائل والصراع على السلطة، فإن عصر عبد الرحمن اتسم بطابع النزاع بين "عبد الرحمن الداخل"، الذي يمثل سلطة الدولة، وبين القبائل التي اعتادت على العيش حرة من الخضوع[4].

2- وجود بقايا نزاعات عنصرية، تمثلت في قيام البربر القاطنين في الجبال الجنوبية، في منطقتي "غرناطة" و"تاكرنا"، بالثورة عدة مرات وبالإغارة على من يجاورهم[5]، وكذلك منازعات قبلية بين المضرية واليمانية، مستترة حيناً خلف أحد الطامحين، أو سافرة على شكل نزاع دموي بين قيسي ويمني[6].

(1) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص118. كذلك سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص100.

(2) سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص100.

(3) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص26-28. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص145.

(4) أحمد بدر: المرجع السابق، ص111.

(5) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 144/6 و318-319.

(6) المصدر نفسه، 117/6-118.

3- أغلب الأحداث التي حصلت، كان يسيرها محرك جديد لم يكن معروفاً في السابق، وهو النزاع بين الغالبين ممثلين بسلطة الأمير، والعرب المسلمين من جهة، وبين المطلوبين من سكان البلاد بقسميهم المولدين والمستعربين من جهة أخرى[1].

4- ظهر على مسرح الأحداث في هذا العصر بالأندلس نزاع، أقل شأناً بين الفئات، لكن الرابطة في هذه الفئات أو المجموعات لم تكن قائمة على الدم، كما كان في السابق، بل على المذهب داخل الدين الإسلامي[2].

5- اتسم هذا العصر بطابع التقدم الحضاري والفكري بالأندلس، فرغم الصراع بين الغالبين والمغلوبين وبين المجموعات ذات المذاهب المختلفة إلا أن العصر كان عصر سلام نسبي، وقد انصرفت أقسام كبرى من المجتمع إلى بذل الجهد في شتى الميادين الاقتصادية، فالأرض أصبحت ثابتة تقريباً في أيدي ملاكها، والأجهزة الإدارية صارت تتكامل يوماً بعد يوم، والزراعة تزدهر، ونشطت التجارة وخاصة مع المشرق، والتجارة تحمل مع البضائع دائماً كتباً وأفكاراً، وهكذا بدأت بالتكون خلال هذه الفترة الثقافة الأندلسية التي كانت فرعاً من الثقافة العربية الإسلامية في المشرق[3].

خامساً: عصر الخلافة في الأندلس:

(316-422هـ/928-1030م)

1- عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله) (300-350هـ/912-961م)

لما توفي الأمير "عبد الله" سنة 300هـ/912م، ظفر حفيده "عبد الرحمن بن محمد"[4] بالإمارة دون أعمامه وأعمام أبيه، وكانوا أحق منه بالإمارة شرعاً، ولكنهم

(1) أحمد بدر: المرجع السابق، ص111.

(2) أحمد بدر: المرجع السابق، ص112.

(3) المرجع نفسه، ص112.

(4) هو عبد الرحمن بن محمد، حفيد الأمير السابق عبد الله بن محمد، وقد كنى بأبي المطرف قبل توليه الحكم = ابن عذاري: البيان المغرب، 2/158-233. كذلك المقري: نفح الطيب، 1/533-381، ابن=

تخلوا له عنها زاهدين فيها لما يحيط بها من أخطار، وكان اعتلاء الإمارة "بقرطبة" يعني التعرض لهذه المكاره والأخطار[1].

وكان عبد الرحمن قد ولد قبل مقتل والده بعدة أسابيع في 22 رمضان 277هـ/ديسمبر 890م، وتكفل جده بتربيته فعاش في كنفه مغموراً بالعطف والحنان، دربه على ممارسة الحكم، وبويع بالإمارة يوم الخميس مستهل ربيع الأول 300هـ/912م، في قاعة المجلس الكامل بقصر قرطبة[2].

وهكذا تهيأت لهذا الفتى الإمارة من حيث لا يدري، وأصبح أمير قرطبة بلا منازع، في الوقت الذي كانت الأندلس فيه جمرة تتقد وناراً تضطرم[3].

كان الناصر أميراً حازماً، وذكياً عادلاً، وعاملاً شجاعاً، محباً للإصلاح وحريصاً عليه، قاد الجيش بنفسه، فأنزل العصاة من حصونهم، لشجاعته وسياسته الحكيمة، بالسيف تارة، وبالسياسة الرشيدة والحكمة تارة أخرى، عفا عمن طلب الأمان وعاد إلى الطاعة. أحبه رعيته وأخلصوا له، وكان هو قدوتهم، لذلك استطاع أن يقضي على العصاة، ويعيدُ للأندلس هيبتها ووحدتها ومكانتها بين الدول[4].

بعد أن استتب الأمر "لعبد الرحمن" في الأندلس أقدم على أمر خطير وهو تلقبه بلقب خليفة تيمناً بأجداده الأمويين خلفاء دمشق[5]. فانتهى بذلك عهد الإمارة سنة

=الخطيب: أعمال الأعلام، ص28-41، السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص279-319، عبد الرحمن الحجي: المرجع السابق، ص297-230، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص151.

(1) علي الشطشاط: المرجع السابق، ص151. كذلك السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص279.

(2) سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص113.

(3) علي الشطشاط: المرجع السابق، ص151. كذلك السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص279-280.

(4) ابن عذاري: البيان المغرب، 233/2-224. كذلك ابن الخطيب: أعمال الأعلام، 41-42، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص152، عبد الرحمن الحجي: المرجع السابق، ص279، أحمد العبادي: المرجع السابق، ص168.

(5) ابن عذاري: البيان المغرب، 198/2. كذلك إبراهيم بيضون: المرجع السابق، ص282-283، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص155.

316هـ/928م، في وقت كانت الظروف الداخلية والخارجية متاحة تماماً لإعلان هذه الخطوة[1].

بلغت الأندلس في عهد الناصر ذروة ازدهارها، فقد اهتم بالعمران وخاصة العاصمة "قرطبة" حتى نافست عواصم العالم الإسلامي والنصراني في ذلك الوقت، فقد بنى قصراً جديداً اسماه "دار الروضة" جلب إليه المهندسين والبنائين من كل مكان وجر إليه المياه من الجبل في قناطر، وأنشأ فيه منتزهات رائعة[2].

وأصبحت تستقطب الآلاف من البشر، تزدحم بالمنازل والقصور وتخترقها الشوارع، وتعج أروقة المساجد فيها بالعلماء والفقهاء وبعض طلاب العلم، كما تجتذب صورها أجواء الشعر والغناء[3]. وكانت قرطبة قد ضاقت بسكانها، فأنشأ مدينة "الزهراء" في سفح جبل العروس شمال غرب العاصمة على مسافة ستة أميال[4].

وبنى في الزهراء قصراً زخرفه حتى غدا تحفة فنية رائعة، وخاصة المجلس الملوكي، وسماه قصر الخلافة، وعمر في عاصمته الجديدة مسجداً جامعاً، كان يعمل فيه ألف رجل من العمال والفنانين وزوده بما يتطلبه البناء فجاء آية في الروعة والجمال[5].

---

(1) إبراهيم بيضون: المرجع السابق، ص283.

(2) ابن خلدون: المقدمة، ص190. كذلك المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس (بيروت، بدون تاريخ) 87/1، سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص129.

(3) علي الشطشاط: المرجع السابق، ص158. كذلك إبراهيم بيضون: المرجع السابق، ص298، سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص129.

(4) ابن عذاري: البيان المغرب، 247/1. كذلك المقري: نفح الطيب، 103/1، سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص130.

(5) المقري: نفح الطيب، 106/1. كذلك سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص131.

وبلغ عدد الدور في قرطبة ثلاثة آلاف داراً، ومساجدها ثلاثة آلاف مسجد، ودور قصر الزهراء 400 وعدد الحمامات 300، وعدد الأرباض 28 ربضاً، وبلغت النفقة على بنائها 25 درهماً من الدراهم القاسمية وستة أقفزة و3 أكياس[1].

وقد وصفها "ابن حوقل" عندما زار الأندلس في عهد "الحكم بن الناصر" بقوله: "ليس لها نظير بالمغرب فخامة حال، وسعة تملك"[2].

واهتم "الناصر" بجامع قرطبة، فجدد الواجهة وزاد فيها كثيراً سنة 346هـ/957م، وهدم المئذنة وبنى مكانها المنارة سنة 340هـ/950م والتي تمتاز بفخامتها وارتفاعها، وهي مربعة الشكل[3].

كذلك اهتم بالجيش لأنه عماد الدولة وسياج الوطن، وقد أدى المهمة الموكولة إليه، فقضى على الثورات وصد الأعداء ووطد الأمن ووحد البلاد[4].

كما ازدهرت الحياة الاقتصادية في عهده خاصة بعد توحيد البلاد والقضاء على الثورات، وازدادت موارد الدولة، وهذا يدل على كثرة الأموال الطائلة التي أنفقها على المنشآت التي أقامها، وبلغت جباية الأندلس في عصره 5,400,000 من المقطعات ومن السوق 765000 ديناراً عدا الغنائم، وقد ترك 5 مليارات ديناراً في بيوت المال عند وفاته[5].

---

(1) المقري: نفح الطيب، 102/1. كذلك ابن عذاري: البيان المغرب، 230/2. سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص131.

(2) ابن حوقل، محمد بن علي الموصلي الحوقلي البغدادي: صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة (بيروت، بدون تاريخ)، ص78. كذلك سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص131، أحمد العبادي: المرجع السابق، ص208.

(3) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص38. كذلك سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص131.

(4) سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص131.

(5) المقري: نفح الطيب، 355/1. كذلك ابن عذاري: البيان المغرب، 232/2، ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص38.

انعكس ازدهار الحياة الاقتصادية رخاءً على مدينة قرطبة، فبلغت ذروة التطور والتقدم فنمت المدينة نمواً كبيراً حتى بلغ عدد سكانها أكثر من نصف مليون نسمة[1].

وزهت شمس الأندلس في عهد "الناصر" وبلغت ذروة تطورها الحضاري، وأضحت محط أنظار العالم فتسابقت الدول لإقامة علاقات ود وصداقة معها، وكانت مؤهلة لهذا الدور لقيادة العالم الغربي آنذاك[2].

وكانت الدولة البيزنطية في طليعة الدول التي أسرعت لإقامة علاقات دبلوماسية مع الأندلس بالرغم من نأي المسافة بينهما، ففي سنة 338هـ/948م[3] وفدت على "الناصر" رسل إمبراطور القسطنطينية "قسطنطين السابع"، فاستقبلهم "الناصر" بالحفاوة والتكريم، وكان الوفد يحمل هدية قدمها للناصر منها كتابان أحدهما لديسقوريدس[4] عن الأعشاب مكتوب اللغة اليونانية والثاني نسخة من تاريخ أوروسيوس باللاتينية ويتضمن تاريخ العالم القديم وقصص الملوك السالفين[5].

وأهم سفارة وفدت عليه كانت سفارة "أوتو الأكبر" إمبراطور ألمانيا وتسمية الرواية العربية "هوتو" أو "هيوتو" سنة 344هـ/956م[6].

(1) المقري: المصدر السابق، 356/1. كذلك ابن عذاري: المصدر السابق، 232/2.

(2) سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص132.

(3) ابن خلدون: العبر، 142/4. كذلك ابن جلجل، سليمان بن حسان "أبو داود": طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، (القاهرة، 1955)، 447/2. ابن عذاري: البيان المغرب، 215/2. سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص132.

(4) ديسقوريدس طبيب وكيميائي يوناني من كيليكيا عاش في القرن الأول الميلادي وباولوس أوروسيوس مؤرخ قوطي عاش في القرن الخامس وكتب تاريخاً باللاتينية = سعدون نصر الله، المرجع السابق، ص133 هامش رقم (1).

(5) سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص133.

(6) ابن خلدون: العبر، 143/4. كذلك ابن عذاري: البيان المغرب، 218/2، سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص133.

وأخيراً مات الخليفة الناصر سنة 350هـ/961م وهو في سن الثالثة والسبعين من عمره، بعد حكم دام نصف قرن وعلى الرغم من هذا العهد الطويل فقد نسبت إليه عبارة كتبها بنفسه في آخر حياته يقول فيها: "أيام السرور التي وصفت لي دون تكدير في مدة سلطاني يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا فعُدَّت تلك الأيام، فوجد فيها أربعة عشر يوماً"[1].

ومما يدل على عظمة هذا الخليفة ومدى احترام الملوك له أن الملك الأسباني "أوردونيو الرابع" ملك "ليون" حينما زار الأندلس في أوائل عهد الخليفة "الحكم المستنصر بالله"، سأل عن قبر "الناصر" وذهب إليه وركع أمامه في خشوع مُظهراً احترامه الكبير لذكراه[2].

كذلك نجد المؤرخ المشهور "دوزي" في كتابه "تاريخ المسلمين في أسبانيا" يشيد بشخصية "عبد الرحمن الناصر" ويعتبره في عداد الملوك العصريين لا كخليفة من خلفاء العصور الوسطى على أساس ما يتحلى به من صفات كالروح الديمقراطية والأخذ بأسباب المدنية، وغير ذلك من الصفات التي تفرق بين الملك العصري والملك القديم[3].

2- الحكم الثاني المستنصر بالله (350-366هـ/961-976م)

من حسن الطالع أن الذي خلف "عبد الرحمن الناصر"، كان كبير أولاده وولي عهده الحكم الذي اتخذ لقب المستنصر بالله، وكان خير خلف لخير سلف، ويمكن القول

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، 232/2. كذلك المقري: نفح الطيب، 379/1، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص179، أحمد العبادي: المرجع السابق، ص209.

(2) ابن خلدون: العبر، 145/4. كذلك أحمد العبادي: المرجع السابق، ص209، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص179.

(3) أحمد العبادي: المرجع السابق، ص209.

أن حكمه كان مكملاً لحكم أبيه، فإذا كان "الناصر" رجل حكم وسياسة وحـــروب، فقــد كان الحكم المستنصر رجل علم وحضارة[1].

بويع أبو المطــرف الحكم الثاني المستنصر بالله، بعد وفاة والده لثلاث خلــون من رمضان سنة 350هـ/961م، وتوفي ليلــة الأحــد لثلاث خلون من صفر من سنة 366هــ/976م، فكانت مدة حكمه خمس عشــر سنة، وسبعة أشهر، وثلاثة أيام[2].

وحين تولى "المستنصر بالله" الحكم كانت الأندلس مستقرة علــى أســس ثابتــة موحدة، حدودهــا آمنة تتمتع بالازدهار والعمران الباهر، وكان "الحكم" قد أعده أبــوه لمثل هذا المنصب فأسند إليه أموراً مهمة في حياته، واســتمر "الحكــم" راعيــاً لهــذا الموكب، أكمل مشاريع بدأت قبله، وأنشأ غيرها، وعرف بصفات كثيرة، منهــا حبــه للعلم، وزهت الأندلس في عهده بمجالس العلم والعلماء والجامعات والمكتبات العامــة وكان "الحكم" نفسه عالماً كبيراً جلب الكتب من البلاد الإسلامية كافة وبذل فيها الأموال الطائلة[3].

لقد بلغت الحضارة الإسلامية في الأندلس خلال مدة حكمه قمة مجدها، ووصلت "قرطبة" حاضرة الخلافة إلى قمة البهاء والعظمة، وأصبحت درة في جبين الحــضارة تنافس مدن العالم الكبرى "بغداد"، و"روما" و"القسطنطينية" فــي الاتــساع والتخطــيط والعمران[4].

وللخليفة "المستنصر بالله" أعمال عمرانية كثيرة من أهمها الزيادة الكبيرة التــي عملها في مسجد "قرطبة"، ومن الأعمال الخيرية التي قام بها علــى ســبيل المثــال لا

---

(1) حسين مؤنس: المرجع السابق، ص333.

(2) ابن عذاري: البيان المغرب، 233/2. كذلك المقري: نفح الطيب، 386/1، علي الشطــشاط: المرجــع السابق، ص180.

(3) المقري: المصدر نفسه، 396/1. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص180.

(4) سالم، السيد عبد العزيز، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، (دراسة تاريخية، عمرانيــة أثريــة فــي العصر الإسلامي)، دار النهضة العربية (بيروت، 1971)، 61/1. كذلك علــي الشطــشاط، المرجــع السابق، ص181.

الحصر ابتنى داراً للصدقة بغربي الجامع اتخذها مقراً لتوزيع الصدقات على الفقـــراء والمساكين[1].

وفيما يتعلق بسياسة "المستنصر بالله" الخارجية فإنها كانت اســتمراراً لـــسياسة والده "الناصر"[2].

3- خلافة هشام بن الحكم وتسلط المنصور بن أبي عامر:

توفـــي الحكم الثاني المستنصـــر بالله في 4 صفر سنة 366هـ/976م، وخلفه ابنه الصبـــي "هشـــام المؤيد بالله" فـــي الخلافة وكان عمره لا يتجاوز الثانية عشرة[3].

لم تجرِ الأمور على نحو ما قدر "المستنصر" إذ بعد وفاته وقعت أزمة في أمـــر من يخلفه ويسير دفة سير الحكم، وانقسم الناس إلى أحزاب مختلفـــة، كل حـــزب لـــه رأيه الخاص الذي يناسبه فرجال الدولة من وزراء ومن إليهم يرون أن يتـــولى هـــذا الصبي "هشام بن الحكم" لأن لهم مصلحة في ذلـــك، بينما الفريـــق الآخر، وهو فريق الجند ومـــن إليهم لا يعجبهم أن يكون على رأس الدولـــة صبي قاصـــــر ضـــعيف، والفريـــق الثالث محايـــد يولـــي المصلح فقط، وفريق رابع سلبـــي، لا يهمـــه الأمر، هذا إلى جانب عامـــة الناس وفقرائهـــم الذيـــن لا يرون إلا مـــن يبـــدل عـــسرهـــم يسراً[4].

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، 240/2.

(2) علي الشطشاط: المرجع السابق، ص184.

(3) ذكر المقري أن عمره كان تسع سنوات (نفح الطيب، 396/1). بينما ذكر ابن خلدون أنه قد ناهز الحلم (العبر 147/4)، بينا ذكر ابن عذاري أن عمره كان إحدى عشرة سنة وثمانية أشهر (البيان المغـــرب، 253/2).

(4) أحمد العبادي: المرجع السابق، ص223.

في هذه الأثناء ظهر رجل قوي هو "أبو عامر محمد بن عبد الله بن عـامر"[1] وجده "عبد الملك" أحد الوجوه الذين دخلوا الأندلس مع جيش "طارق بن زياد" في أول الداخلين من المغرب[2]، ولقب بالمنصور فيما بعد، وأسس الأسرة العامرية المتمثلة في الحاجب "المنصور بن أبي عامر" وولديه "المظفر" و"عبد الرحمن"، فتاريخ الأندلس في الفترة 366-399هـ/976-1008م، هو تاريخ أسرة ليست من بيت الملـك، ولكنهـا استطاعت أن تستبد بالحكم وتصرف شؤونه تصرفاً تاماً[3]، وغدا الحاجب "المنـصور" هو الحاكم الحقيقي للأندلس[4].

وجد "المنصور" أمامه طريقاً شاقاً طويلاً مليئاً بالخصوم والأعداء فـي داخـل البلاد وخارجها، ولكنه استطاع بعزيمته الجبارة وذهنه المتقد أن يوقع بين خـصومه، ويضرب بعضهم ببعض، ثم يصرعهم واحد بعد الآخر غير مبالٍ بضمير أو أخلاق في سبيل الوصول إلى مآربه[5].

وبعد أن تخلص "محمد بن أبي عامر" من خصومه[6] ومنافسيه وانتصر علـى

(1) ولد محمد بن أبي عامر سنة 328هـ/940م. ونشأ في مقاطعة الجزيرة الخضراء في قريـة طـرش موطن عشيرته ومسكن أجداده، وهي من أطيب بلاد الأندلس أرضاً وأصحها هـواء، إن التـواريخ لا تذكر عن طفولة محمد بن أبي عامر شيئاً يذكر رغم الشهرة التي اكتسبها هذا الرجل فيما بعد، والدور الكبير الذي لعبه في تاريخ أسبانيا فحسب، بل في تاريخ الأمة العربية بصورة عامة = خالد الـصوفي: تاريخ العرب في أسبانيا عصر المنصور الأندلسي، دار الكتاب العربي، ص13.

(2) ابن الخطيب: أعمال الإعلام، ص59. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص193.

(3) أحمد العبادي: المرجع السابق، ص229.

(4) المرجع نفسه، ص229.

(5) علي الشطشاط: المرجع السابق، ص193.

(6) حمل الحاجب المصحفي على نكبة الصقالبة الخصيان الخزام بالقصر فنكبهم وأخـرجهم مـن القـصر وكان عددهم أكثر من ثمانمائة، وسلط غالب على المصحفي حتى نكبه ومحا أثـره مـن الدولـة، ثـم استعان على غالب بجعفر بن علي بن حمدون، وقد مات غالب في إحدى المواقـع = المقـري: نفـح الطيب، 1/396-398.

الأسبان في غزوات عدة[1] قادها بنفسه تلقب "بالمنصور" سنة (371هـ/981م) ودعي له على المنابر (عقب دعاء الخليفة).

لقد كان "المنصور" رجل سياسي وحربي من ناحية، ومن ناحية أخرى امتاز بها "المنصور" وهي اهتمامه بالإدارة، فقد أثبت هذا الرجل أنه إداري قدير يشرف بنفسه على كل صغيرة وكبيرة من شؤون الدولة، ومن المسائل التي اهتم بها "المنصور" كرجل إداري، مسألة استتاب الأمن، وضبطه في البلاد، وبذلك قلت الجرائم والاضطرابات في عهده[2].

كما اهتم المنصور بإعادة تنظيم الجيش تنظيماً عسكرياً جديداً يختلف عما كان عليه في السابق، ولقد أفاد هذا النظام الجديد في بادئ الأمر، إذ زالت العصبية القبلية بين فرق الجيش، واستطاع "المنصور بن أبي عامر" أن يفرض على الجيش نفوذه وسلطانه، وأن يحرز به انتصاراته الحربية المشهورة ضد الأسبان[3].

واهتم "المنصور" بالقضاء وأظهر صرامة شديدة في تنفيذ العدل ولو كان ذلك ضد أولاده وكبار حاشيته[4].

أما أعمال "المنصور" المعمارية فكثيرة منها القصر المعروف باسم المدينة الزاهرة، كذلك الزيادة التي أجريت في جامع قرطبة ومن منشآته أيضاً قنطرة "قرطبة" التي بناها على الوادي الكبير وقنطرة "استجه" على شنيل، وسط الجبال، فسهلت الطرق الوعرة والشعاب الصعبة، هذا إلى جانب الجباب والسبل لسقي الناس[5].

---

(1) بلغ عدد غزواته سبعاً وخمسين غزوة = المقري: المصدر نفسه، 400/1. كذلك ابن عذاري البيان المغرب، 257/2، 310/2. Levi-provenç, op. cit., II, p. 235.

(2) أحمد العبادي: المرجع السابق، ص241.

(3) أحمد العبادي: المرجع السابق، ص242.

(4) ابن عذاري: البيان المغرب، 290/2. كذلك أحمد العبادي: المرجع السابق، ص244.

(5) ابن عذاري: البيان المغرب، 288/2. كذلك ابن الخطيب: أعمال الإعلام، ص67، أحمد العبادي: المرجع السابق، ص245.

أما علاقات المنصور الدبلوماسية مع ملوك أوروبا وأسبانيا فكانت مع الدولة البيزنطية علاقة ودية تبودلت فيها الهدايا والرسل، وعلاقته مع الإمبراطور "أوتو الثالث" ملك ألمانيا وإيطاليا والإمبراطورية الرومانية المقدسة (983هـ/1002م) كانت علاقات سلمية مبنية على التفاهم وتبادل الاحترام، كذلك توطدت العلاقات بين "المنصور" وبعض ملوك أسبانيا[1].

توفي المنصور في 27 رمضان سنة 392هـ/1002م، وهو ابن خمس وستين سنة وعشرة أشهر، وكان له من الولد الذكور "عبد الملك" و"عبد الرحمن الناصر"، فكانت مدة حكمه منذ تقلد الحجابة إلى أن توفي خمس وعشرون سنة وأربعة وأربعون يوماً[2].

وذكرت بعض المصادر الأندلسية[3] أنه دفن في مدينة "سالم" "Mednacel" إذ توفي تقريباً وهو يعدّ لغزوة أو أنه عائداً منها، وتنفس النصارى الصعداء لموته، ودل على هذا الارتياح عبارة موجزة دونها أحد الرهبان في تقويمه، وهو: "في سنة 1022م مات "المنصور" وذفن في الجحيم"[4].

(1) Augustin: La chrétiente Medieval, Histoire du monde, Tome VII, p. 247 (Paris. 1929), p. 247

(2) ابن عذاري: البيان المغرب، 301/2. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص196.

(3) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 80-81. كذلك ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة - تحقيق محمد عبد الله عنان، (القاهرة، 1977)، 72/2، ابن بسام الشنتريني، أبو الحسن علي (م: سنة 542هـ/1147م)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (القاهرة، 1939)، المجلد الأول، القسم الرابع، ص55، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص196.

(4) Dozy. R. Histoirire des Musulmas d Espagne Traduction Espagnole parmagdlena Fuenes (Barcelona, 1954), p. 283.

4- سقوط الدولة الأموية:

ولي الحجابة بعد وفاة "المنصور" ابنه "عبد الملك" الذي تلقب بالمظفر سيف الدولة[1]، وأقره هشام على ما كان عليه أبوه معه، وقد سار المظفر على سياسة والده الجهادية ضد الأسبان النصارى، ودامت أيام حكمه حوالي سبع سنين، حيث مات سنة تسع وتسعين وثلاثمائة أو ثمان وتسعين[2]. أثناء غزوته ضد الملك "سانجة ابن غرسية: Sancho Garcia" وقيل إنه مات مسموماً أو أصيب بذبحة قلبية[3]، فأعيد إلى قصره في العمارية، فمات قبالة دير "أرملاط" من أحواز قرطبة[4].

تولى الحكم (الحجابة) بعده أخوه "أبو المطرف عبد الرحمن" المعروف "بشنجول[5]: Sanchuela"، وقد سمّاه الخليفة بالمأمون وتلقب بالناصر، "فكان يدعى بالحاجب الأعلى المأمون ناصر الدولة"[6].

كان "عبد الرحمن" ضعيف الشخصية، ميالاً إلى الدعة والاسترخاء في أجواء الترف، قليل الاهتمام بالسياسة الجهادية التي كانت مقياس كفاءة الحاكم الأندلسي آنذاك[7]. وبعد مضي شهر ونصف من توليه الحكم طلب "عبد الرحمن" من الخليفة

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، 83/2. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص196، أحمد العبادي: المرجع السابق، ص248.

(2) المقري: نفح الطيب، 423/1. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص196.

(3) ابن عذاري: البيان المغرب، 3/3.

(4) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص89.

(5) هذا اللقب تصغير لسانشو (شانجه) أحد ملوك أسبانيا، حيث كان حفيداً له من جهة أمه القشتالية الأصل، التي كانت قد أهديت للمنصور في إحدى غزواته = ابن عذاري: البيان المغرب، 38/3. كذلك إبراهيم بيضون: المرجع السابق، ص338، هامش (4).

(6) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص90. كذلك ابن عذاري: البيان المغرب، 38/3، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص197.

(7) إبراهيم بيضون: المرجع السابق، ص338. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص197.

"هشام المؤيد" أن يوليه عهده[1] من بعده وأن يتسمى بولي عهد المسلمين، فأجابه "هشام" إلى ذلك لضعفه وسوء نظره ونقصان فطرته فولاه عهده وذلك سنة 399هـ/1008م[2].

لقد هز هذا الحادث الدولة الأموية هزاً عنيفاً، وعزّ على المضربين أن ينتقل العرش إلى اليمنيين[3]، وأن تخرج الخلافة عن قريش، فانبعثت العصبية العربية القديمة وانتهز المضربون فرصة غياب عبد الرحمن العامري في الشمال وقاموا بحركة قوية، فخلعوا هشاماً عن العرش، وولوا رجلاً من أحفاد الناصر، وهو: محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر[4]، ولقبوه بالمهدي بالله[5].

ولما بلغت الأخبار "عبد الرحمن بن المنصور"، رجع من غزوته في الشمال، وكان كلما اقترب من "قرطبة" انفض عنه جماعة من جيشه حتى صار في قلة من أصحابه، فاعترضه معترض من خصومه فقبض عليه وجز رأسه وحمله للمهدي وجماعته[6].

والفترة الباقية من العصر الأموي بالأندلس مليئة بالفتن والاضطرابات، تصارعت فيها العناصر المختلفة في الدولة كالبربر والصقالبة وأهل قرطبة، وخُربت فيها مدن عامرة كالزهراء والزاهرة ويكفي للدلالة على مدى انقسام الدولة واضطرابها

---

(1) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص91-93. كذلك ابن عذاري: البيان المغرب، 44/3-46، المقري: نفح الطيب، 324/1-325.

(2) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص91-93. كذلك ابن عذاري: البيان المغرب، 44/3-46، المقري: نفح الطيب، 324/1-325.

(3) إن العامريين كانوا من أسرة عربية تنتمي إلى قبيلة معافر اليمنية، وأنهم كانوا من أوائل الذين دخلوا الأندلس صحبة طارق بن زياد = علي الشطشاط: المرجع السابق ،ص 197هامش (6)

(4) كنيته أبو الوليد، أمه أم ولد اسمها عزنة لقبها كبارة وتعرف بالعرجاء لخلع كان بها، ولقب نفسه بالمهدي، ولقبه العامة المنقش لهشاشته وطيشه وخفته = ابن عذاري: البيان المغرب، 50/3.

(5) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، 97/3. كذلك ابن عذاري: البيان المغرب، 49/3-50، 60-61.

(6) ابن عذاري: البيان المغرب، 49/3-50. كذلك المقري: نفح الطيب، 426/1، أحمد العبادي، المرجع السابق، ص254.

في هذه الفترة الأخيرة أن عدد الخلفاء الأمويين الذين حكموا فيها كان يزيد على عدد الخلفاء الذين حكموا قبلهم منذ بداية الدولة الأموية في الأندلس[1].

وفي 12 ذي الحجة سنة 422هـ/1031م سقطت الدولة الأموية في الأندلس، بعد عزل آخر خلفائها "هشام الثالث المعتد بالله" وإجلاءمن تبقى من المروانية عن قرطبة[2].

وهكذا خرج حكم الأندلس من أيدي الأمويين لأول مرة، وحكم في النصف الأول من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي نحو عشرين أسرة مستقلة، في نحو عشرين مدينة أو مقاطعة، ويسمى هؤلاء بملوك الطوائف، وبذلك تبدأ مرحلة جديدة من مراحل تاريخ الإسلام في الأندلس[3].

---

(1) أحمد العبادي: المرجع السابق، ص254. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص198.

(2) أحمد العبادي: المرجع السابق، ص254.

(3) علي الشطشاط: المرجع السابق، ص200.

الفصل الثاني
الأحوال العامة في الأندلس
قبل سقوط غرناطة

أولاً: الأندلس من المجد إلى الانهيار.

1- تمزق وحدة الأندلس.
2- تقدم الدويلات النصرانية في الأندلس.

ثانياً: دعوة أهالي الأندلس للمرابطين وعبورهم الأندلس.

1- تدخل المرابطين.
2- المرابطون في الأندلس لعزل ملوك الدويلات.

ثالثاً: استنجاد الأندلسيين بالموحدين في شمال أفريقية.

1- جهاد الموحدين في الأندلس وانتصار الأرك العظيم.
2- تحالف الممالك النصرانية وانهزام الموحدين.

رابعاً: تاريخ مملكة غرناطة تحت حكم بني الأحمر أو بني نصر:

1- صمود غرناطة وأسبابه.
2- الحروب الصليبية ضد غرناطة وحصارها.
3- شروط التسليم.

الأحوال العامة في الأندلس
قبل سقوط غرناطة

أولاً: الأندلس من المجد إلى الانهيار:

لقد كان للفتنة التي عصفت ببلاد الأندلس عقب سقوط الخلافة الأموية سنة (422هـ/1031م) دوراً كبيراً في حالة الضعف والوهن التي تجسدت في بعض الخلفاء الذين تولوا عرش الخلافة وأثبتوا عدم مقدرتهم على المواجهة ضد من يحاول المساس بوحدة البلاد والانفصال عنها، ويتضح ذلك من مهادنتهم لنصارى الأسبان والاستعانة بهم لتأمين سلطانهم وبقائهم بسدة الحكم[1]، كما شكلت سوء سيرة البعض منهم اللا أخلاقية وانغماسهم في الملذات مثل "محمد بن هشام بن عبد الجبار" السبب في اشمئزاز الأهالي من سلوكياتهم، رغم إسداء النصيحة لهم من بعض العلماء والقضاة، كالقاضي "ابن ذكوان"، والعلامة "ابن حزم" لتغيير مسلكهم ولكن دون جدوى[2].

ولعبت الرياسات المحلية التي نشأت بمدن الأندلس على أسس قوية دوراً في رفض التبعية لحاضرة الخلافة التي فقدت سلطانها الروحي، مما أفرز استقلالها عنها واستغناءها عن أي سلطة مركزية أخرى تظهر فيها[3] معتمدة في ذلك على فشل بعض الخلفاء في إقرار السياسات التي تخدم الراعي والرعية وتضمن مصلحة البلاد[4].

---

(1) المراكشي، محي الدين أبو محمد عبد الواحد: المُعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد زينهم ومحمد عزب، دار الفرجاني للنشر (ليبيا، 1994م)، ص47. كذلك السيد محمود عبد العزيز: الأندلس، دائرة معارف الشعب، مطابع الشعب (القاهرة، 1959م) ص912، نجيب، مصطفى: حماة الإسلام، دار الكتاب العربي (بيروت، د.ت)، ص317-318.

(2) ابن عذاري: البيان المغرب، 80/3.

(3) خالص، صلاح: إشبيلية في القرن الخامس الهجري، دار الثقافة (بيروت، 1965م)، ص23.

(4) الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، المكتب التجاري الوطني للطباعة والنشر (د.م، د.ت)، 31/1.

ومن تلك السياسات الخاطئة ترك أقاليم البلاد ومدنها مفتوحة وغير متصلة بحاضرة الخلافة، مما سهل لها الاستقلال عنها، كما حدث في خلافة "سليمان المستعين بالله" حين قام بتوزيع كور الأندلس على رؤساء القبائل الذين لم يتأخروا في إعلان الانفصال، وكما فعل بنو حمود في إعلان الثورة عليه في عام (407هـ/1016م)[1].

لقد أسهمت التركيبة الاجتماعية في تصدع الخلافة وانهيارها وصارت العناصر المشكلة للمجتمع الأندلسي من أهل البلاد، والمغاربة والصقالبة[2]، حيث كانت تنحاز كل فئة من هؤلاء لأصولها العرقية متكتلة مع بعضها البعض ضماناً لبقائها وحفاظاً على وجودها[3]. وأسفر الصراع بينها على استيلاء الأسر العربية على معظم قواعد الأندلس ومنها قرطبة وإشبيلية وسرقسطة وبلنسية والمرية، وسيطر المغاربة على مالقة والجزيرة الخضراء ورندة[4] "Randa" وقرمونة[5] "Garmona" و"مورو"، أما فئة الصقالبة فقد خضعت لهم معظم المناطق الشرقية[6]. وقد عمد كل فريق منهم، أي

---

(1) ابن خلدون: العبر، 4/327-328. كذلك أبو زهرة، محمد: ابن حزم حياته وعصره - وآراؤه الفقهية، مطبعة علي أحمد مخيمر، (القاهرة، 1954م)، ص97. عبد العزيز سالم، مالقة، دائرة معارف الشعب، مطابع الشعب (القاهرة، 1959)، 2/88.

(2) الصقالبة: تعني بالإفرنجية السلاف ويقال لهم سلافون أيضاً وهو مأخوذ من كلمة سلافة باللسان الصقلبي ومعناها المجد أو سلفون ومعناها الكلام وفسروها على أنه يراد منها الدلالة على أمم مختلفة تتكلم بلغة واحد، وأطلق اسم الصقالبة بالعربية لأن العرب صاغوا هذا الاسم من كلمة سكلاف، أو سكلافون تحريفاً لكلمتي سلاف أو سلافون. انظر: البستاني، بطرس: دائرة معارف القرن العشرين، دار المعرفة (بيروت، د.ت)، مج 742/10.

(3) عبود، إمحمد: التاريخ السياسي والاجتماعي لإشبيلية في عهد ملوك الطوائف، مطابع الشويخ، (تطوان، 1983م) 29.

(4) رندة: مدينة خصبة بأرض الأندلس، ويجري بها نهر الذي يتوارى في غار ولا يرى جريانه أميالاً ثم يخرج إلى وجه الأرض = القزويني، زكريا بن محمد: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر (بيروت، 996م) ص532.

(5) قرمونة: مدينة بالأندلس تقع إلى الشرق من إشبيلية وهي مدينة كبيرة تقع على سفح جبلي وعليها سور من الحجارة = الحميري: الروض المعطار، 461.

(6) عنان، محمد عبد الله: العصر الثاني في دول الطوائف، مكتبة الخانجي (القاهرة، 1990)، ص14.

العرب، والمغاربة، والصقالبة، أن يجعل وجوده شرعياً ويقطع الطريق على الطامعين في السيطرة عليه وطلب الولاء منه، فقد لجأ القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد بإطلاق دعوته الكاذبة في إشبيلية بوجود الخليفة هشام المؤيد[1] بأن أحضر شخصاً شديد الشبه به ويُدعى "خلف الحصري" وأعلن للناس بأنه الخليفة المفقود وأخذ منه عهداً بحجابته وكان الهدف من ذلك طمع بني عبّاد في ضم أكبر عدد من مدن الأندلس تحت إمرتهم[2] وأذعن لهم صاحب بلنسية "عبد العزيز بن أبي عامر" وصاحب دانية والجزائر الشرقية "الموفق العامري" والوزير "أبو الحزم بن جهور" حاكم "قرطبة"، الذي تراجع عن مساندته له، مما نتج عنه قيام ابن عباد بمحاربته[3] وسار الصقالبة على نفس الوتيرة رغبة منهم في ضمان الأمر لهم، حيث أقام "أبو الجيوش مجاهد العامري"[4] خليفة من أشراف "قرطبة" وهو الفقيه "أبو عبد الله المعيطي" وسماه "المنتصر بالله" وأثبت اسمه في السكة، وعندما شعر باستبداده وعلانيته على ارتكاب المعاصي قام بعزله إثر عودته من غزوته لجزيرة سردانية[5] كما لجأ ملوك الطوائف إلى استخدام الفقهاء والعلماء كوسيلة روحية لتدعيم ركائز حكمهم وتبرير تصرفاتهم[6]. وقد أنكر عليهم ذلك المؤرخ ابن حزم ووصفهم بأسوأ الأوصاف[7].

---

(1) المراكشي: المُعجب، ص89. كذلك محمد مصطفى النجار، وأحمد مجاهد مصباح: فتوحات الإسلام في أفريقيا والمغرب والأندلس، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة، 1967)، ص306، كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله للعربية نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، ط11 (بيروت، 1998)، ص307.

(2) ابن عذاري: البيان المغرب، 3/190-198، 200.

(3) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، 2/154-155.

(4) مجاهد بن عبد الله العامري أبو الجيوش الموفق مولى عبد الرحمن الناصر بن محمد بن أبي عامر وكان من أهل العلم والأدب: "الضبي: المصدر السابق، 2/357، ترجمة رقم 1379".

(5) المصدر نفسه، 2/200.

(6) ابن عذاري: البيان المغرب، 3/254.

(7) ابن حزم: الرد على ابن النغريلة، تحقيق إحسان عباس، مكتبة دار العروبة (القاهرة، 1960)، ص173-174.

مما سبقت الإشارة إليه يتضح أن ملوك الطوائف عملوا على إحاطة حكمهم بصفة شرعية بإقامة خليفة لجوارهم ليكون السند الشرعي لوجودهم ووسيلة ممهدة لضم أكبر عدد من المدن تحت سلطتهم ونفوذهم، غير أن هذه الطموحات لا تتحقق بسرعة، وإن تحققت فإنها تتلاشى خلال فترة قصيرة من الزمن لكثرة المتنافسين والطامعين في الاستيلاء على المدن الكبيرة لاسيما "قرطبة" التي كانت حاضرة الخلافة الأموية في عصر الإمارة والخلافة في الأندلس[1].

وبرزت على السطح بعد صراعات مريرة على السلطة في الأندلس أربع دويلات غلبت على نواحي البلاد وشكلت العمود الفقري لممالك الأندلس الإسلامية وهي بنو عباد بإشبيلية وسيطروا على عزب الأندلس واتسع نفوذهم في عهد "المعتمد بن عباد"[2]، حتى شمل قرطبة، ولتفادي مخاطرهم فقد عمل بعض ملوك الطوائف على مهادنتهم والعمل على إرضائهم ومنهم "بن باديس بن حبوس"[3] بغرناطة، وابن الأفطس ببطليوس[4] "Batelous" وابن صمادح بالمرية[5] وفي شرق الأندلس كانت السيطرة للفتيين العامريين، وفي جنوب الأندلس ظهر نفوذ المغاربة من بني حمود وبني زيزي

(1) ابن حزم: الرد على ابن النغريلة، ص174.

(2) المعتمد على الله أبو القاسم محمد بن المعتضد بالله أبي عمرو عباد بن الظافر بن المؤيد بالله أبي القاسم محمد قاضي إشبيلية بن أبي الوليد بن قريش بن عباد بن عمرو بن أسلم بن عمرو بن عطاف بن نعيم اللخمي ويرجع أصله إلى النعمان بن المنذر أحد ملوك الحيرة = ابن خلكان: المصدر السابق، 21/5 ترجمة رقم 686.

(3) باديس بن المنصور بن بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي الحميري، أبو مناد، نصير الدولة، صاحب أفريقية من ملوك الطوائف الصنهاجية بالقيروان، تولى الحكم بعد وفاة أبيه سنة 386هـ/996م = الزركلي، خير الدين: الأعلام لأشهر الرجال والنساء والمستعربين والمستشرقين (د.م، د.ت)، 5/2.

(4) بطليوس: مدينة جليلة في بسيط من الأرض عليها سور منيع، ولها ربض كبير أكبر من المدينة ويقع في شرقها، وتقع بطليوس على ضفة نهر يانة = الإدريسي، أبو عبد الله بن محمد (ت548هـ): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة، 1994م)، مج 545/2.

(5) ابن خلدون: المصدر السابق، 341/4، أرسلان، شكيب: خلاصة تاريخ الأندلس، دار مكتبة الحياة، (بيروت، 1983)، ص33-34.

الذين سيطروا على مالقة وغرناطة، أما وسط الأندلس فقد خضعت لسلطان بني ذي النون أمراء طليطلة الذين كانت صراعاتهم مستمرة مع بني عباد لأجل فرض السيطرة والاعتراف بالتبعية[1]. وهذه الانقسامات إن دلت على شئ فإنما تدل على حب السلطة لأولئك الملوك الذين شغلتهم أطماعهم الشخصية عن جمع الصفوف والاستعداد لمواجهة عدو الإسلام بدلاً من الدوران حول حلقة مفرغة أسفرت عن ضعفهم وسقوطهم.

أ- تمزق وحدة الأندلس:

كما كان لظهور أولئك الملوك ظروف أسهمت في بروزهم على مسرح الأحداث كانت هناك أسباب أخرى أدت إلى تخاذلهم وتفرقهم وتناحرهم وضعف سلطانهم، وذهبت أدراج الرياح تلك الوحدة التي جمع "الناصر" شتاتها، فتفرقت كلمتهم وتشتت قوتهم وصاروا لقمة سائغة في أيدي الأعداء، ومن تلك الأسباب[2]:

أ- غياب التعايش السلمي بين دول ملوك الطوائف وبروز منطق الحرب والتهديد والتوسع على حساب الغير.

ب- الاستعانة في هذا الصراع حتى بالعدو المشترك من نصارى الأسبان ضد من يحمل نفس اللّغة والدّم والديانة.

ج- تغليب المصلحة الشخصية على المصلحة العليا للبلاد في الوحدة والقوة، فالغاية الشخصية لهم تسمو وترقى فوق مصلحة البلاد[3].

ونستدل على ذلك من خلال الصراعات والحروب والفتن التي حدثت بينهم بسبب التنافس والتصارع من أجل الظفر بأكبر قدر ممكن من السلطة والنفوذ، ونورد

---

(1) أشباخ، يوسف: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عنان، مكتبة الخانجي (القاهرة، 1996م)، ط2، 31/1.

(2) عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس، ص154.

(3) الطيبي، أمين توفيق: دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، الدار العربية للكتاب (ليبيا - تونس، 1994)، ص156.

مثالاً على ذلك الصراع الذي نشب بين "يحيى بن إسماعيل بن ذنون"[1] صاحب "طليطلة" وبين سليمان بن هود صاحب "سرقسطة" واستعانة الأخير بالنصارى، وقد دامت الحرب بينهما من سنة 0435هـ وحتى 438هـ/1043-1046م) حسبما ذكره ابن الخطيب[2]. وبالتالي أدت تلك الحروف إلى استنزاف البلاد ولم تعد قادرة على الصمود أمام نصارى الأسبان الذين استغلوا تفرق كلمتها وانهيار وحدتها في فرض وجودهم عليها، يضاف إلى ذلك الصراعات التي ظهرت في ممالكهم من خلال الصدمات التي تحدث بين أفراد العائلة الواحدة في كل مملكة، وقد انتشر هذا المرض الخطير فنخر في صفوفهم وساهم في ضعفهم من خلال تصفية نفسها بنفسها، كالصراع الذي حدث بين أمراء بني زيزي حيث قام "حبوس بن ماكسن"[3] بتوزيع أعمال غرناطة على أقاربه، الذين استغلوا وفاته وقاموا بمنازعة ابنه "باديس" في تولي حكم "غرناطة" ومنهم "يدر بن حباسة ابن أخ حبوس بن ماكسن، ولم تنجُ أسرة بني ذي النون من ذلك الداء، حيث انتشرت الانقسامات على "المأمون بن إسماعيل بن بني ذي النون" من قبل أخيه "عبد الرحمن" الذي عمل على إيذاء أخيه مستغلاً الصراع الذي حدث بينه وبين سليمان بن هود[4]. وصارت البلاد إلى حال لم يرتح لها حتى الأسبان أنفسهم، فقد رأوا والحزن ملء قلوبهم ما صارت إليه بلادهم وقد أصبحت نهباً مقسماً بين المتغلبين[5].

---

(1) ترد تسميتهم ببني ذي النون = ابن عذاري: البيان المغرب، 276/3.

(2) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، 178/2.

(3) حبوس بن ماكسن بن زيزي بن عناد الصنهاجي صاحب غرناطة في أيام ملوك الطوائف بالأندلس قصد بداية أمره الأندلس مع عم له اسمه زاوي بن مناد وجماعة من صنهاجة للمشاركة في الجهاد ونزلوا بقرطبة إلى أن كانت فتنة انقراض الدولة الأموية، فتوجه زاوي إلى أبناء عمومته بأفريقية، أما حبوس فانصرف بمن معه إلى غرناطة، ولما كثر المتغلبون على أمر البلاد، تولى حبوس أمر غرناطة = الزركلي: المرجع السابق، مج331/2. كذلك ابن بلقين، الأمير عبدالله: التبيان، منشورات عكاظ، (الرباط، 1995)، ص64-65-66.

(4) ابن عذاري: البيان المغرب، 281/3.

(5) عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس، ص154.

2- تقدم الدويلات النصرانية في الأندلس:

كانت الأندلس تعاني كثيراً من ضروب الفوضى والاضطراب، وكان الخطر من سقوط الدولة وتحطمها بادياً للعيان، ذلك أن نصارى الشمال استجمعوا للوثوب على المسلمين، ورأوا الفرصة سانحة لاسترداد الأندلس فاهتبلوها[1]، حيث عمد أولئك الملوك على إقامة حواجز بينهم وبين الأهالي الذين انشغلوا عنها بتتبع أهوائهم ونزاعاتهم الشخصية ويصور لنا ذلك المؤرخ ابن حزم حيث يقول: "اللّهم إنا نشكو إليك تشاغل أهل الممالك من أهل ملتنا بدنياهم عن إقامة دينهم، وبعمارة قصور يتركونها عما قريب من عمارة شريعتهم اللاّزمة لهم في معادهم ودار قرارهم، وبجمع أو أموال ربما كانت سبباً في انقراض أعمارها وعوناً لأعدائنا ... الخ[2]. فكانت سمتهم الظاهرة التربص بالغير واستغلال الظروف لفرض السيطرة وإقرار التبعية، ولا يهم الأسلوب أو السلوك الذي يضمن من خلاله الوصول للهدف المطلوب، فالغاية تبرر الوسيلة، سواء كان ذلك بالخديعة أم التآمر أم بالتحالف حتى مع العدو المشترك من النصارى[3]، الذين من أجلهم قام أولئك الملوك بإقرار المكوس وفرض المغارم على رقاب الأهالي وألزموهم بدفع الجزية حتى يتسنى لهم تأمين متطلباتهم وضمان مناصرتهم لهم، بينما أصبحت حياة شعوبهم يسودها الأسى والحزن من تلك الممارسات التي لا يقرها الدين الإسلامي[4].

فكان على هؤلاء الملوك أن لا يتخذوا من رعاياهم مصدراً لابتزازهم، بل يجب أن يتخذوهم أهلاً وأخوة حتى يكونوا لهم عوناً في الشدة والرخاء[5].

---

(1) عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس، ص156.

(2) ابن حزم: الرد على ابن النغريلة، ص45.

(3) محمد مصطفى النجار وأحمد مجاهد مصباح: المرجع السابق، ص322.

(4) ابن حزم: الردّ على ابن النغريلة، ص175.

(5) الطرطوشي، أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهري: سراج الملوك، جزءان، تحقيق محمد فتحي أبو بكر، الدار المصرية اللبنانية، (القاهرة، 1994 2/59.

وفضلاً عن ذلك فقد نظروا إلى شعوبهم كأنهم عبيد في أيديهم يستخدمونهم في أشق الأعمال، فساءت أحوالهم وتكدر صفو معيشتهم[1] متجاهلين أن إصلاح الرعية خير من كثرة الجنود، وكان الأحرى بهم أن يعاملوهم معاملة شرعية ولا يكونوا عليهم كالأوزار الثقال فتنعدم قدرتهم على النهوض بها[2].

ونتيجة لضعف الوازع الديني عند أولئك الملوك تدنت أخلاقهم وانغمسوا في أعمال اللهو والمجون.ويصف لنا كل من ابن عذاري وابن الآبار حالة المعتضد بن عباد وتعلقه بالمتعة الجنسية مع النساء مبلغاً لم يبلغه أحد، حيث ذكر أن عدد جواريه وصل إلى سبعين جارية[3]، وعم الفساد وانتشر حتى صار مسلكاً لوزرائهم وكبار عمالهم الذين عكفوا على جمع الأموال من الأهالي وصاروا حاجزاً بين أولئك الملوك وشعوبهم[4].

وإن خصال السلطان وصفاته هي التي تصنع من الرعية الانقياد والتبعية، فهو يمثل القدوة لهم في أخلاقه وتصرفاته وحفظ دينه ومروءته، فإذا كان السلطان غير صالح فكيف مصير رعيته؟ وقد أصاب الخليل[5] في قوله أصلح نفسك لنفسك يكون الناس لك تبعاً[6]. ولكن ملوك الطوائف لم ينتبهوا لذلك وغرقوا في ملذاتهم وأصبحوا يدفعون الأتاوات لملك قشتالة حرصاً منهم على مرضاته ودفع مخاطره عنهم[7].

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، 162/3.

(2) الطرطوشي: سراج الملوك، 459/2.

(3) ابن عذاري: البيان المغرب، 207/3. كذلك ابن الآبار: الحلة السيراء، 43/2.

(4) الطرطوشي: سراج الملوك، 289/2.

(5) هو الخليل بن أحمد بن عمرو الفرهيدي أبو عبد الرحمن من أئمة اللغة والآداب، ووضع علم العروض = كحالة، عمرو رضا: معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، دار إحياء التراث العربي، (بيروت، د.ت) 112/4.

(6) الطرطوشي: سراج الملوك، 470/2-472.

(7) دائرة معارف الشعب: السيد محمود عبد العزيز سالم، مقال عن الأندلس، مطابع الشعب، 1959م، (د.م)، ص10.

غيـر أن حساباتهم كانت خاطئة حيث شهدت فترة انهيارهم وضـعفهم اتحـاد مملكتـي قشتالة وليون على يد "فرنانـدو الأول"[1] عام 447هـ/1055م الـذي بـدأ بإعلان الحـرب المعروفة لدى النصـارى بحرب الاستـرداد[2] "Reconguista" والتي سار على نهجهـا ابنه الفونسـو السـادس[3] الذي كـان يجمـع مـن هـؤلاء الملوك المتطاحنين ما يعـد به العدة لدمارهـم جميعـاً. وكـان الفونسـو يقـدم خطوطه في كل فرصـة ويستولي علـى الحـصـون والقـلاع واحـدة إثـر أخـرى حتى وثب وثبة استولـى فيهـا على طليطلـة سنـة (478هـ/1085م)[4]، وقـد أحـدث بوثبته هذه فزعـاً كبيراً فـي صفـوف المسلميـن فـي الأندلـس، وكـان قـول الشاعـر الأندلسي عبد الله بن فـرج اليحصبي المشهـور بابن العسال

(1) فرناندو الأول: فرناندو الأول بن سانشو الكبير، وكان أبوه ملك نبره "نافار" قد عينه على قشتالة سنة 419-458هـ/1028-1065م بعدما اغتال آخر أمرائها "غرسية بن شانجة" سنة 419هـ/1028م، فلعبت قشتالة في عهد "فرناندو الأول" دوراً كبيراً في صراعها مع الممالك الإسلامية في الأندلس واستطاع "فرناندو الأول" أن يضم مملكتي "ليون وجليقة" بالقوة إلى ملكه بعد الهزيمة التي مُني بها صهره "برمند الثالث" ملك ليون في موقعة "تامارون" عام 428هـ/1027م، كما أنه انتزع مملكتي نبره وأرغونة من أخويه "غرسيه ورامبرو"، وصار بذلك من أقوى ملوك أسبانيا النصرانية - يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين، ص11. كذلك عبد الحليم، رجب محمد: العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف، دار الكتاب اللبناني، (بيروت، بدون تاريخ)، ص304، 305.

(2) حرب الاسترداد: سُميت حرب الاسترداد لأنها كانت تهدف إلى استرداد الأندلس من المسلمين، وكان رافع خططها الطويلة الأمد الملك سانشو غرسيه الذي قام بتوحيد الدويلات النصرانية عن طريق المصاهرة،وقد قويت هذه الحركة على يد ابنه فرناندو الأول الذي قام بتوحيد قشتالة، ولكن انتصاراته انهارت بعد وفاته بسبب انقسام دولته بين أبنائه، وظهور الصراعات فيما بينهم، إلا أنـه نجـح ابنـه الفونسو السادس بالدفع بتلك الحرب للأمام - محمد عنان: المرجـع السابق، ص382-383-389-398.

(3) أمين الطيبي: دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، ص156.

(4) عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس، ص156-157.

الطليطلي[1] أصدق تعبير لما حدث في هذه المناسبة:

حثُّو رَوَاحِلَكُمْ يَا أَهلَ الأَنْدَلُسِ
فَمَا البَقَاءُ بِهَا إلاَّ مِنَ الْغَلَــــط
الثُّوبُ يَنْسَلُ مِنْ حافاته وأرى
ثَوْبَ الجَزِيْرَةِ مَنْسُولاً مِنَ الْوَسَطِ
وَنَحْنُ بَيْنَ عَدُو لَنَا لاَ يُفَارِقُنَا
كَيْفَ الحَيَاةُ مَعَ الحياةِ فِي سَفَــــط[2].

ولكن هل يرحل المسلمون كما قال هذا الشاعر؟! إن هذا مستحيل!! هل يلمـــون شملهم ويجمعون أمرهم ويقفون صفاً واحداً في وجه هذا العدو الذي بلغ من جراءتـــه واطمئنانه أن اخترق الأندلس على جواده آمناً مطمئناً حتى وصل إلى أعمـــدة هرقـــل فنزل ليتبرد في المحيط، والذي وضع حامية تزيد على اثنى عشر ألفاً في حصن "لبط" فيوسط بلاد المسلمين، ومن هذا الحصن كانت تخرج جنوده لتعث في الأرض فـــساداً وتنهب وتغير[3].

وكان لابد للأندلسيين من عون خارجي إن أرادوا أن يكبحوا جمـــاح ألفونـــسو الذي ضرى بهم، وصمم على أن يعيد الأندلس للمسيحية وأن يستأصل شأفة المـــسلمين منها، ولم يكن هذا العون بعيداً عنهم بل كان على مرمى البصر وراء العدوة الأخرى، في أفريقية، حيث تقوم دولة المرابطين فاستنجدوا بهم، فاستجاب لهم اخوتهم في الدين للوقوف صفاً واحداً ضد هذا الخطر الداهم، الذي كاد أن ينجح في القضاء على دولـــة الإسلام بالأندلس، فثبت وجودها وحافظت على كيانها لمدة أربعة قرون[4].

---

(1) المقري: نفح الطيب، ج6، 84. كذلك ابن خلكان: وفيات الأعيان، م5، ص28. وقد ورد عنـده "مـن جاور الشر لم يأمن عواقبه".

(2) انظر المعجب، ص73، هامش رقم 2.

(3) عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس، ص157.

(4) المرجع نفسه، ص157-158.

ثانياً: دعوة أهالي الأندلس للمرابطين وعبورهم إلى الأندلس:

في الوقت الذي نجح فيه "يوسف بن تاشفين" في تأسيس دولة كبيرة في المغرب الأقصى، أسهمت بنشر الإسلام وعززت كيانه وأظهرت معالم قوته، تمزقت بالطرف المقابل لها ببلاد الأندلس وحدتها وانهارت عزيمتها وأصبحت دويلات مهددة بالسقوط والانهيار، نتيجة الصراع السياسي الذي ظهر بين ملوكها، الأمر الذي يسر أمام دول النصارى وبالأخص مملكة قشتالة[1] مهمة التهامها.

تعد مملكة قشتالة من أقوى الممالك النصرانية، وكان أول ملوكها فرناندو الذي ورث عرش قشتالة عن طريق المصاهرة، حيث قام "سانشو غرسية" أمير قشتالة بتزويج ابنته لملك نبره "شانجة سانشو" وعن طريق تلك العلاقة ورث "شانجة" عرش قشتالة بعد اغتيال آخر أمرائها "سانشو غرسية" عام (419هـ/1028م)، وعيّن ابنه فرديناند حاكماً لها، فكان أول ملوك قشتالة[2].

وقد أعلن البابا "اسكندر الثاني" (453-466هـ/1061-1073م) قبوله التوبة من جميع المشاركين في تلك الحرب، ومنحهم صكوك الغفران[3]، إثر ذلك قام "الفونسو" بتوحيد الممالك النصرانية، واتجه بها لخوض حرب الاسترداد[4]. لذلك تحددت سياسة "الفونسو" الحربية على فرض سيطرته على ممالك الطوائف، حيث كان يبث الرعب في نفوس المسلمين، ويفرض على ملوكهم دفع الجزية، وعندما تنهار

---

(1) قشتالة: عمل من الأعمال الأندلسية قاعدته تشتالة، سمي العمل بها، وقالوا ما خلف جبل الشارات في جهة الجنوب يسمى أسبانيا وما خلف الجبل من جهة الشمال يسمى قشتالة = الحميري: المصدر السابق، ص483.

(2) يوسف أشباخ: المرجع السابق، ص11.

(3) حسين ممدوح: الحروب الصليبية في شمال أفريقيا وأثرها الحضاري، دار عمار، (الأردن، 1989)، ص130.

(4) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، 181/12. كذلك القلقشندي، أبو العباس أحمد :صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المؤسسة المصرية للطباعة، (القاهرة، د.ت) 252/5، حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص219، يوسف أشباخ: المرجع السابق، ص27.

عزائمهم ويصبحون عاجزين عن دفع مطالبه يقوم بمحاربتهم وإرغامهم على ما يفرضه عليه من شروط[1] التي كان من نتائجها سقوط طليطلة القاعدة الإسلامية الهامة التي وقعت في قبضته سنة (479هـ/1085م)، وكانت السبب المباشر لاستنجاد أهل الأندلس بالمرابطين[2].

بعد أن أخفق "القادر"[3] في مفاوضته على دفع الجزية والاعتراف بسلطانه، ولكن ذلك لم يثنه عن دخولها واستلام زمام الأمور بها، متعهداً له بعدم التعرض لأهلها وعدم المساس بأموالهم وممتلكاتهم[4]. وهكذا صارت طليطلة عاصمة القوط القديمة حاضرة لملك قشتالة وعاصمة لأسبانيا النصرانية[5] وكان سقوطها نذير شؤم لما يترصد الإسلام في الأندلس[6].

وانقلبت موازين القوة، فبدأت قوى الإسلام تفقد سيطرتها في شبه الجزيرة الإيبيرية، يقابلها في الجانب الآخر توحد الممالك النصرانية واجتماع كلمتها برفع راية

---

(1) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، 277/2. كذلك ابن بلقين: الأمير عبد الله، التباين، منشورات عكاظ، (الرباط، 1975)، ص121، ممدوح حسين: المرجع السابق، ص131-132.

(2) أنور الجندي: المرجع السابق، ص323.

(3) القادر: هو يحيى القادر بن ذي النون اعتلى عرش طليطلة عام (467هـ/1074م)، حيث خلف المأمون بن ذي النون على عرش طليطلة حفيده يحيى بن ذي النون الملقب "بالقادر" وكان أبوه إسماعيل بن المأمون قد توفي بعد مولد ابنه "يحيى" بزمن قصير، مما جعل جده المأمون يقربه منه منذ صغره، فعاش "يحيى" فترة شبابه مدللاً بين الجواري، والخصيان، مما أكسبه شخصية ضعيفة جعلته ألعوبة في يد خصيانه وسخرية في أعين جيرانه الذين راحوا يتنافسون فيما بينهم على تجريده مما بيده من ممتلكات وأراضي = ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص179. كذلك دوزي، رينارت: المسلمون في الأندلس، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة، (القاهرة، 1995)، 125/3.

(4) ابن الكردبوس التوزري، عبد الملك: كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء، نشر تحت عنوان تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط، تحقيق أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية (مدريد، 1971)، ص83.

(5) أبو عبيدة الخزرجي: بين الإسلام والمسيحية، تحقيق محمد شامة، مكتبة وهبه، (القاهرة، 1972)، ص23. كذلك أبو خليل، شوقي: الزلاقة بقيادة يوسف بن تاشفين، دار الفكر (دمشق، 1987)، ص18.

(6) أبو عبيدة الخزرجي: المصدر السابق، ص23. كذلك شوقي أبو خليل: المرجع السابق، ص31.

الحرب ضد المسلمين وتجمع جيوشها تحت قيادة واحدة[1]. وفي تلك الظروف الصعبة بادر ملوك الطوائف باسترضاء "الفونسو السادس" بدلاً من مواجهته، وعزموا على دفع الجزية، وبالرغم من ذلك الاستذلال لم يرض "الفونسو" بذلك، بل تطلع للاستيلاء على مدن الأندلس، وإذا شعر بالرفض والمقاومة منهم لجأ إلى أعمال التخريب والتدمير[2].

إزاء هذا الوضع الخطير الذي خيم على بلاد الأندلس، قام شيوخ "قرطبة" وفقهاؤها بدراسة الموقف، ورأى أولئك الشيوخ استدعاء عرب بني هلال بأفريقية، ولكن "عبد الله بن أدهم" قاضي الجماعة "بقرطبة" رفض تلك الفكرة، وقال لهم إذا وصلوا إليكم بنو هلال يخربون بلادكم كما خربوا أفريقية والمرابطين أصلح منهم وأقرب إلينا، وبينما هم يعتزمون مكاتبة "ابن تاشفين" دخل عليهم "ابن عباد" الذي اعتبر "ابن أدهم" رسولاً عنه "لابن تاشفين"، ويبدو أن ابن عباد أراد من ذلك كسب ثقة أولئك الشيوخ والفقهاء عما اقترفه من مخالفته "لألفونسو" من جهة ثانية[3].

وتوالت المكاتبات على أمير المرابطين من ابن عباد وكتابه، ومنهم الوزير "أبي بكر بن الجد" يستصرخونه بالعبور، عندها خرج "الفونسو" في جيش كبير وعاث في الأندلس فساداً حتى وصل إلى حصن "طريف" ومنه خاطب أمير المسلمين بأنه هو أمير الملتين، وقد علم ما ألحقه برؤساء ملوك الأندلس وفرض جبروته عليهم، وطلب منه العبور لتخليصهم أو أن يرسل إليه المراكب ليصل إليه، فكان جوابه بأن كتب على ظهر كتابه "الجواب يا أدفنش ما تراه ما لا تسمعه إن شاء الله"[4].

---

(1) يوسف أشباخ: المرجع السابق، ص76. كذلك ابن الكردبوس: المصدر السابق، ص83.

(2) يوسف أشباخ: المرجع السابق، ص76-77.

(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 141/8. كذلك النويري، شهاب الدين أحمد عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق أحمد كمال زكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة، 1980م) 454/23، ممدوح حسين: المرجع السابق، ص159.

(4) مؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة (الدار البيضاء، 1979)، ص43-45-46. كذلك مقديش، محمود: نزهة الأنظار=

ولابد للباحث من التعرف على روايات المؤرخين المتمثلة في استدعاء ابن عباد للمرابطين،وجعل الفضل له في إنقاذ الأندلس من سيطرة "الفونسو" فيذكر ابــن زرع[1] أن جميع أمراء الأندلس ورؤسائها اتفقوا على دعوة "ابن تاشفين" للعبور بينمـــا يؤكـــد صاحب كتاب الاستقصاء[2] ورود كتاب من "المعتمد بن عباد" على "ابن تاشفين" يعلمه عن سوء أحوال ممالك الأندلس، فكان الرد صريحاً منه إذا فتح الله عليّ "سبته" اتصلت بكم وبذلت جهدي في جهاد العدو، وذكر صاحب الحلل الموشية[3] استــصراخ "ابـــن الأفطس" لأمير المرابطين ودعوته لمناصرته، فضلاً على ذهاب وفود جماعة من أهل الأندلس طالبين العون والمؤازرة، فوعدهم بذلك، أما ابن الخطيب فيؤكد[4] أن "المعتمد" هو الذي قام بالاستنجاد بأمير المرابطين ودعاه للعبور.

ومن خلال ما سبق يتضح للباحث أن جميع الروايات تجعل الفضل في العبـــور لملوك الطوائف، متجاهلين الدور الأساسي الذي قام به المرابطون وهـــو رفـــع رايـــة الجهاد ونصرة الإسلام والمسلمين، ويظهر ذلك في بسط سيطرة المرابطين على كافـــة بلاد المغرب، وبذلك أصبحت دولتهم متاخمة لبلاد الأندلس، وبالتالي فـــإن مـــصيرها مرتبط بها خاصة بعد أن تم الاستيلاء على مدينة "طنجة"، وازدادت رغبة المـــرابطين في الجهاد بعد فتح "سبتة" فصاروا على مقربة من إخوانهم بالأندلس، ويتضح هذا العزم الراسخ والقوي على نصرة الإسلام والمسلمين، ما ذكره المؤرخ المراكشي على لسان

=في عجائب التواريخ والأخبار، دار الغرب الإسلامي (بيروت، 1988)، مج1/436-437. يــذكر أن رد بن تاشفين "الذي سيكون ستراه" مرادفاً إياه ببيت من الشعر:

ولا كتب إلا المشرفية والقنا ولا رسل إلا بالخمسين العرمرم.

(1) ابن أبي زرع، محمد بن علي الفاسي: الأنيس المطرب في روض القرطاس في أخبار ملوك المغـــرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة (الرباط، 1972م)، ص144.

(2) الناصري، الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد: الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيـــق ولـــدي المؤلف جعفر ومحمد الناصري، دار الكتاب (الدار البيضاء، 1954) 32/1.

(3) مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص33-44-45.

(4) ابن الخطيب: أعمال الأعلام 237/3. كذلك الشريقي، إبراهيم: التاريخ الإسلامي خلال أربعـــة عـــشر قرناً (د.م.، 1971)، ص157.

"ابن تاشفين"، حيث قال: "أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين ولا يتولى هذا الأمر أحد إلا بنفسي"[1]. ولا نغفل الدور المهم الذي قام به الفقهاء والعلماء الذين انطلقوا مـــن أرض المغرب وبثوا روح الحماس الديني في بلاد الأندلس حتى أصـــبحت قلـــوبهم متهيئـــة لاستقبال المرابطين، فضلاً على رغبة الأمير "يوسف" في إعداد العدة اللازمة لمواجهة الأعداء المتمثلة في بناء السفن واتخاذ كافة التدابير والاستعدادات لخوض المعركة[2]. وما أن عزم على ذلك حتى أشار عليه كاتبه "عبد الرحمن بن أسبط" بملـــك الجزيـــرة الخضراء، حتى تكون مصدراً لتأمين قواته، وحلقة للوصل بين العدوتين، يضاف إلـــى ذلك تشجيع خاصته على رفع راية الجهاد والإنطلاق نحو الأندلس لتحريرها من ظلـــم "الفونسو" وجبروته[3].

أولاً: تدخل المرابطين:

قام "يوسف بن تاشفين" بمكاتبة "ابـــن عبـــاد" وطلـــب منـــه تـــسليم الجزيـــرة الخضراء،وطريف فاستجاب لذلك بالرغم من معارضة ابنه "الراضي"، وطلـــب منـــه إخلاءها والانتقال عنها، عندها قام "ابن تاشفين" باستدعاء جنوده ورحل إلـــى "ســـبته"، ومنها أخذ بالإشراف على عبور قواته[4] إلى الجزيرة الخضراء، فلما ركـــب الـــسفينة واستقر عليها رفع يديه داعياً الله تعالى أن يُسهل له العبور إن كان ذلك فيـــه صـــلاح للمسلمين، وإن كان غير ذلك سأل الله أن يُصعب عليه الأمر حتى لا يجوزه[5] ووصل

---

(1) المراكشي: في تلخيص أخبار المغرب، ص117.

(2) حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص231.

(3) مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص45-49. كذلك البستاني، بطرس: معارك العرب في الأندلس، دار الجيل، (بيروت، 1980)، ص22-23.

(4) مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص51. كذلك ابن بلقين: المصدر السابق، ص123.

(5) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص145. كذلك أبو العباس الناصري: المصدر السابق، 34/2، شوقي أبو خليل: المرجع السابق، ص39-40.

"ابن تاشفين" للجزيرة الخضراء في شهر جمادى الأول سنة (479هـ/يونيو 1086م)[1] وشرع في بناء أسوارها وشحنها بالأطعمة والأسلحة ورتّب فيها عساكره وأسكنهم بها، ورحل نحو إشبيلية، فتلقاه ابن عباد على مرحلة من الجزيرة[2].

وذكر ابن خلكان أن ابن تاشفين أمر بعبور الجمال فعبر منها ما أغص الجزيرة وارتفع رغاؤها إلى عنان السماء، ولم يكن أهل الجزيرة شاهدوا جمالاً قط من قبل، فصارت الخيل تجمح من رؤيتها، وقد لعبت دوراً كبيراً في نصرة المسلمين لمعركتهم الحاسمة ضد "الفونسو"[3] وأقيمت الضيافات الحافلة، ومنحت الهدايا المستطرفة، وعمَّ الفرح والسرور أرجاء الأندلس بمقدم المرابطين الذين يرون فيهم المخلص الوحيد لما حل بهم من بلاء من جراء اعتداءات النصارى عليهم، وأقاموا ثلاثة أيام بإشبيلية، ثم اتجهوا نحو بطليوس[4] وكتب "ابن تاشفين" لسائر أمراء الأندلس يستنفرهم للجهاد، فلحق به "ابن بلقين" أمير غرناطة وأخوه "المستنصر" صاحب "مالقة" و"راجع" صاحب المرية وابن "الأفطس" صاحب "بطليوس"[5].

وقام "يوسف بن تاشفين" بتقسيم القوات الإسلامية إلى قسمين: قسم الأندلس ويضم القوات الأندلسية وجعل في مقدمته "ابن عباد" و"ابن الأفطس" بميمنته وأهل شرق الأندلس بميسرته وسائر أهل الأندلس في الساقة، أما قوات المرابطين جعلها في المؤخرة ووضع على مقدمتها "داود بن عائشة"، وباقي القوات تولى الأمير قيادتها بنفسه، وكانت جميع القوات منظمة على شكل كمائن موزعة تخرج من كل جهة عند اللقاء مع العدو لتساهم في تعثر تقدمه وتحاصره من جميع الأماكن[6].

---

(1) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، 240/3.

(2) مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص51.

(3) ابن خلكان: المصدر السابق، 116/7.

(4) مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص52. كذلك ابن بلقين: المصدر السابق، 123.

(5) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، 241/3-242.

(6) مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص55. كذلك محمد عنان: دول الطوائف، ص322.

أثناء ذلك وصلت "الفونسو" الأخبار بمقدم المرابطين وهو قائم بحصار "سرقسطة"، فاضطر لفك الحصار عنها وعاد إلى "طليطلة"، ومنها أخذ في طلب النجدة من ملوك وأمراء النصارى حيث أرسل إلى ابن ردمير[1] "Ednradmer" و"البرهانس"[2] "Alvarhanez" اللذين كانا محاصرين "لطرطوشة" وبلنسية فانسحبا عنها، وانضما لقواته، كما انضمت إليه أعداداً كبيرة من "جيليقية" و"بنبلونة" ووفدت عليه سريات من الفرسان من ولايات فرنسا الجنوبية، وعندما اكتملت قواته ارتحل لمواجهة المرابطين[3] وتعمد "الفونسو" نقل المعركة إلى خارج طليطلة حتى تكون في مأمن من قوات المسلمين في حالة هزيمته، أما إذا تحقق له الانتصار فيتسع نفوذه ويسيطر على المناطق التي تحت سيطرة المسلمين[4]. وعندما اقتربت قوات المرابطين والأندلسيين من "بطليوس"، قام "ابن تاشفين" بتخيير "الفونسو" متبعاً طرق السنة في الحروب، حيث طلب منه الدخول في الإسلام، أو دفع الجزية أو القتال، واختتم كتابه بآيات من الذكر الحكيم[5] "وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ"[6].

---

(1) ابن ردمير: هو ملك أرجون ونافار سانشو راميرث "Sancho Reimirez" (1043-1093م) وكان قد هاجم طرطوشة وهو في عهد بدرو الأول = ابن الكرديوس: المصدر السابق، 100، هامش 2.

(2) البرهانس: هو القائد الأسباني المعروف "Alvarhanez" ابن لأخ السيد القنبيطور وكان من كبار قواد الفونسو السادس ملك قشتالة وليون = ابن القطان، أبو الحسن علي بن محمد الكتامي الفاسي: نظم الجمان في أخبار الزمان، تحقيق محمود علي مكي، المطبعة المهدية (تطوان، د.ت) ص76.

(3) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص145-146. كذلك ابن الكرديوس: المصدر السابق، ص94، يوسف اشباخ: المرجع السابق، 84، شوقي أبو خليل: المرجع السابق، ص42، بطرس البستاني: المرجع السابق، ص26.

(4) الحميري: المصدر السابق، ص289. كذلك المقري: المصدر السابق، 96/6، أبو العباس الناصري: المصدر السابق، 42/2.

(5) مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص53. كذلك ابن خلكان: المصدر السابق، 116/7، أبي عبيدة الخزرجي: المصدر السابق، ص25، شوقي أبو خليل، المرجع السابق، ص43، السامرائي، خليل: علاقة المرابطين بالممالك الأسبانية وبالدول الأسبانية، وزارة الإعلام، (العراق، 1985م)، ص140-141.

(6) سورة غافر، الآية 50.

وما أن وصل الكتاب إلى "الفونسو" حتى اعتلته عقدة الغرور ورفض عرض أمير المرابطين، مُظهراً إصراره على القتال معتمداً في ذلك على كثرة قواته[1] التي تضاربت المصادر التاريخية حول عددها، فجاء في كتاب الحلل الموشية[2] أنها ثمانون ألف فارس، وعند ابن الأثير[3] خمسين ألف فارس، وصاحب روض القرطاس[4] مائة وثمانين ألف فارس، وابن الكردبوس[5] ستين ألف فارس، أما الجيش الإسلامي فلم يرد إلا عند صاحب الحلل الموشية[6] الذي قدره على مناهزة الخمسين ألف فارس، بينما حدده صاحب المعجب[7] بعشرين ألفاً.

ومما سبق يتضح للباحث أن تعداد القوات النصرانية كانت تفوق جيش المسلمين كثيراً، وقام "الفونسو" بالرد على "ابن تاشفين" وطلب أن يكون اللقاء يوم الاثنين، متحججاً على أن غداً يوم الجمعة ولا نحب مقاتلتكم فيه لأنه عيدكم، وبعده يوم السبت يوم عيد اليهود وهم كثير في محلتنا، وبعده يوم الأحد عيدنا، فقال أمير المسلمين اتركوا اللعين وما أحب، وكانت قوات المسلمين بظاهر "بطليوس" واحتل "الفونسو" فحص الزلاقة[8] "Sacralias" على أربعة فراسخ[9] من بطليوس[10] ولكن تلك الحيلة

(1) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص146.

(2) الحلل الموشية: مؤلف مجهول، ص56.

(3) الكامل في التاريخ، 142/8.

(4) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص149.

(5) ابن الكردبوس: المصدر السابق، ص94.

(6) مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص56.

(7) المراكشي: المصدر السابق، ص118.

(8) الزلاقة: بطحاء الزلاقة من إقليم بطليوس من غرب الأندلس، وفيها كانت الوقعة الشهيرة بين المسلمين وقوات الفونسو في سنة (479هـ/1086م) = الحميري: المصدر السابق، ص287-288.

(9) فرسخ: مقياس من مقاييس الطول يُقدر بثلاثة أميال أو ثمانية عشر ألف قدم = مصطفى، إبراهيم وآخرون: المعجم الوسيط، (د.م)، (د.ت)، ج688/2.

(10) مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص56. كذلك ابن عذاري: البيان المغرب، 136/4، أما صاحب الكتاب الاستقصاء فيخالف صاحب الحلل الموشية حول نزول القوات الإسلامية ويقول بأنها نزلت=

لم تنطل على المعتمد بن عباد، وقال لأمير المرابطين هذه حيلة فلا تطمئن إليه، وليبق على استعداد، فوافقه على ذلك[1] وأخذ ابن عباد في الاستعداد والتأهب لمواجهة العدو قائلاً الأبيات التالية:

لابدَّ مِنْ فَرَجٍ قَرِيبِ	يأتيك بالعَجَبِ العَجِيبْ
غَزْوٌ عليك مُبَارَكٌ	في طَيِّهِ الفتحُ القَرِيبْ
لله سيفك إنه	سَخَطَ عَلَى دِيْنِ الصَّلِيبْ
لابُدَّ مِنْ يوم يكُونْ	له أخٌ يَوْمُ القَلِيبْ[2]

وصدقت توقعات ابن عبَّاد حيث زحف "الفونسو السادس" بقواته وهاجم الجيش الإسلامي يوم الجمعة 12 رجب 479هـ/أكتوبر 1086م، وقصد قوات ابن عبَّاد واشتبك معها ولكن ابن عباد أظهر صبراً وتجلداً وشجاعة بالرغم من إصابته بعدة جروح، وسيطر عليه اليأس، ولكن عون "ابن تاشفين" وموازرته لم تتأخر، حيث أرسل إليه قوة من المرابطين بقيادة "دواد بن عائشة" ساهمت في تخفيف حدة الهجوم على "المعتمد" وقواته، وسار أثره "يوسف بن تاشفين" وطبوله تدق أصواتها إلى السماء، وقصد محلة "الفونسو" وقضى على من كان بها[3]. واضطرت قوات الفونسو للتراجع

=بفحص الزلاقة وقوات الفونسو نزلت بالقرب من بطليوس، ويضيف أن بين الجيشين نهر بطليوس – أبو العباس الناصري: المصدر السابق، 44/2، ويوافقه على ذلك أبي عبيدة الخزرجي: المصدر السابق، ص25، ابن الكردبوس: المصدر السابق، 92-93.

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، 136/4. كذلك ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص147، بطرس البستاني: المرجع السابق، ص30، خليل السامرائي: المرجع السابق، ص141.

(2) بن عباد، المعتمد: ديوان المعتمد بن عباد، تحقيق رضا الحبيب السويسي، الدار التونسية للنشر، (تونس، 1975)، ص127.

(3) المقري: المصدر السابق، 98/6-99-100. كذلك ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص147-148، ابن كردبوس: المصدر السابق، ص95.

يذكر أن المعركة حدثت في يوم الجمعة 10 رجب 481هـ/1088م، مقديش، محمود: نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، جزءان، دار الغرب الإسلامي (بيروت، 1988)، ص43/1، يذكر تاريخها في 15 رجب 479هـ/1086م. شوقي أبو خليل: المرجع السابق، ص50-51.

لإنقاذ محلتهم، وتراجع المنهزمون من أصحاب "المعتمد" حين علموا بالتحام قوات "ابن عباد" وقوات المرابطين، مع قوات الفونسو، وبذلك أطبقوا على النصارى، وتمكنت قوات المسلمين من إلحاق خسائر فادحة في صفوف "الفونسو" وقواته، كما أدى إلى إصابته بجرح في إحدى ركبتيه، فانسحب إلى تل برفقة خمسمائة فارس متقلين أكثرهم بالجراح[1]. ولم يصل معه إلى "طليطلة" سوى مائة فارس حسبما يذكره المؤرخ ابن أبي زرع[2] وتحقق الظفر والنصر للمسلمين، ومُني العدو بهزيمة ساحقة، وقضى المسلمون ليلتهم في ساحة المعركة فوق أشلاء القتلى والجرحى، وقد اختلطت أهازيج نصرهم بأنين المحتضرين، وقام المسلمون بقطع رؤوس المشركين وبنوها كالصوامع، كما أرسل بأعداد كثيرة منها إلى "بلنسية" و"قرطبة" و"سرقسطة" وصلت نحو العشرة آلاف لكل منها، وأرسل لبلاد المغرب نحو أربعين ألف راس ليشاهدها الناس، فيشكرون الله تعالى على منحهم هذا النصر[3].

ويبدو أن تلك الأعداد يشوبها كثير من المبالغة لأن الخسائر لا يمكن أن تقع في جانب المهزوم فقط، وإنما يصاب بها الفريقين، تتميز تلك المعركة بطابع الجهاد الديني الذي يعد العامل الأساسي في تحريكها، ففي الجانب الإسلامي نجد الأمير "يوسف" ينتقل بين صفوف قواته ويحرضهم على الثبات والمواجهة، ويعمل على بث الحماس في نفوسهم، كذلك نجد في الجانب الآخر للنصارى تولي الأساقفة والرهبان رفع الصلبان والأناجيل لتشجيع قواتهم، وبذلك اتخذ العامل الديني مرتبة الصدارة في تهيئة النفوس لحماية العقيدة وبذل الروح رخيصة في سبيلها[4].

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، 136/4. كذلك شوقي أبو خليل: المرجع السابق، ص52-53.

(2) ابن أبي زرع: المصدر السابق، 149. كذلك يوسف أشباخ: المرجع السابق، ص91.

(3) أبو العباس الناصري: المصدر السابق، 49/2. كذلك ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر: تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، (بيروت، 1996)، 3/2، يوسف أشباخ: المرجع السابق، ص91.

(4) أبو العباس الناصري: المصدر السابق، 44/2. كذلك ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص148.

كما قام فقهاء المسلمين بالاشتراك في المعركة، حيث قاموا بوعظ المقاتلين وتهيئة عزائمهم في الدفاع عن الدين والأرض[1]، كما لعبت الخطط العسكرية التي أعدها "ابن تاشفين" دوراً مهماً في بث الارتباك في صفوف النصارى، ومنها استخدام الإبل التي أسهمت بشكل كبير في جموح خيولهم من ميدان المعركة، فضلاً عن اتباع أساليب مغايرة في قتالهم بأن جعل صفوف المرابطين منتظمة وتزحف نحو العدو بشكل جماعي، معتمدة في مواجهته بالسهام ودرق اللمط[2]، يضاف إلى ذلك استخدام الطبول التي انطلقت دقاتها مدوية وبثت الخوف والذعر في صفوف النصارى، وبالتالي الإستراتيجية التي وضعها "ابن تاشفين" في خوض المعركة هي التي أسهمت في إلحاق الهزيمة بصفوف "الفونسو" وقواته[3]. إضافة إلى عدة عوامل أخرى.

هذا وقد نتج عن هذه المعركة ما يلي:

1- أحدث انتصار المسلمين في هذه الموقعة أصداء عظيمة في نفوس المسلمين بالأندلس، ورفع روحهم المعنوية التي سيطر عليها اليأس نتيجة لما أصابها من ظلم النصارى وطغيانهم[4].
2- انتعاش نفوس الأندلسيين الذين تخلصوا من سطوة ملوك الطوائف عليهم المتمثلة في إزالة ما فرض عليهم من مغارم ومكوس، وعادت إليهم الثقة بأنفسهم من خلال ما لمسوه من عدل ونزاهة المرابطين وأميرهم[5].

---

(1) أبو عبيدة الخزرجي: المصدر السابق، ص25.

(2) اللمط دابة دون البقر لها قرون حادة، تكون لذكرانها وإناثها، وكلما كبر هذا الحيوان طال قرناه، وتصنع درق اللمط من جلود تلك الحيوانات وتستخدم كسترة واقية من ضربات السيوف، وتتميز بحمايتها لجسم الفارس كما تمتاز بخفة وزنها = الحميري: المصدر السابق، ص584.

(3) الحميري: المصدر نفسه، ص291.

(4) المراكشي: المصدر السابق، ص120. كذلك شوقي أبو خليل: المرجع السابق، ص57.

(5) محمد عنان: دول الطوائف، ص372. كذلك حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص247.

3- ساهم هذا النصر في حماية غرب الأندلس من غارات "الفونسو" التخريبية وأدى بالتالي لرفع حصاره عن "سرقسطة" التي كادت تسقط في أيدي قواته، كما نتج عنه انسحاب حاميته من "بلنسية"[1].

ويذكر ابن بلقين قوله "إن الروم قد أشرب من تلك الوقيعة خوفاً وانكماشاً"[2].

وامتد صدى هذا النصر حتى عم كافة أوروبا النصرانية، وساد الذعر في صفوف الأسبان، خوفاً من قوة المرابطين التي حلت بالأندلس[3].

ثانياً: المرابطون في الأندلس لعزل ملوك الدويلات:

لم يكن "ابن تاشفين" ليخلع ملوك الطوائف بناءً على رغبة شخصية أو إيثار للمصلحة الذاتية، بل كان بدافع المحافظة على مصلحة البلاد التي اقتضت عليه ضرورة خلع أولئك الملوك، ومن تلك الأسباب والدوافع ما يلي:

أ- ظهور الانقسامات والخلافات المستمرة بين أولئك الملوك بالرغم من محاولات "ابن تاشفين" لجبر كسرها ولم شملها؛ غير أن جهوده لم تلق الاستجابة وتعزيز ما يرمي إليه من أهداف بغية توحيد كلمتهم[4].

ب- إن القوة المرابطية التي تركها "ابن تاشفين" عقب معركة "الزلاقة" وحصن "لبيط"[5] كانت لغرض تعزيز وضع المسلمين في بلاد الأندلس والعمل على ملاحقة

---

(1) أمين الطيبي: المرجع السابق، ص171.

(2) ابن بلقين: المصدر السابق، ص126.

(3) المراكشي: وثائق المرابطين والموحدين، ص33.

(4) ابن بلقين: المصدر السابق، ص126.

(5) حصن لبيط: هو حصن حصين على رأس جبل شاهق، بينه وبين مدينة لورقة مسير نصف يوم. انظر: مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص67، بينما يأتي ذكر ليط عند ابن الخطيب، انظر: أعمال الأعلام، 249/3. أما ابن أبي زرع وأبو العباس الناصري ورد لفظه باسم البيط انظر: روض القرطاس، ص125، الاستقصاء، 51/2، أما صاحب كتاب التبيان يتفق مع صاحب الحلل انظر: ابن بلقين المصدر السابق، ص126.

النصارى، فلم تجد من ملوك الطوائف سوى التضييق عليهم بدلاً من معاونتهم في القضاء على نشاطات النصارى المرتكزة على إعادة فرض السيطرة عليهم والخضوع لأوامرهم[1].

ج- إن ما حدث لأمير المرابطين "ابن تاشفين" أمام حصن "لبيط" وما لمسه من تخاذل وضعف أولئك الملوك جعله يُدرك تماماً أن العقلية المتجسدة فيهم لم تتغير، وظهرت معالمها واضحة بتفشي النزاعات وظهور الأطماع واشتغال نار الحقد فيما بينهم[2].

د- تأكد لأمير المرابطين أمر هام وخطير ألا وهو إزالة العقبات التي تقف حجر عثرة أمام المسيرة الجهادية في بلاد الأندلس وتحاول أن تشدها للخلف، فعليه قبل أن ينطلق لحرب النصارى أن يزيل ما قد يسد طريقه ويمنعه من تحقيق أهدافه وهم ملوك الطوائف، حتى لا يصبح بين مطرقة تخاذلهم وسندان "الفونسو"[3].

هـ- كما كان للوفود الأندلسية التي قدمت على أمير المرابطين دوراً مهماً والتي نقلت له الصورة الحية عن ممارسات أولئك الملوك غير الشرعية والمتنافية مع روح الإسلام بفرضهم الجزية والمغارم على رقابهم، وقد عبر ابن بلقين عن ذلك مصوراً الموقف حيث قال: "وكانت تلك سفرة أخرج الله فيها أضغان سلاطين الأندلس[4].

---

(1) أبو العباس الناصري: المصدر السابق، 51/2.

(2) مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص70.

(3) ابن بلقين: المصدر السابق، ص128.

(4) المصدر نفسه، ص127.

وكان لها الدور الفاعل في أن يكونوا بمثابة حلقة وصل بين أهالي الأندلس وأمير المرابطين "ابن تاشفين"، ومنهم الفقيه "أبو جعفر بن القليعي"[1]، الذي كان على خلق قويم وسلوك مستقيم جعل منه محل تقدير، واحترام أهالي الأندلس[2]. حيث أصبح مصدراً خطيراً على أولئك الملوك بما ينادي به من مبادئ تقف ضد سياساتهم، ولم يتأخر أمير "غرناطة" في اعتقاله لكتم صوته وإبعاده عن الرعية حتى لا تنساق وراء ما يحمله من أفكار تتنافى مع مطامعهم[3] واعتبر العلماء والفقهاء أن تخاذل أولئك الملوك وضعفهم وعجزهم هو الذي جعلهم يقومون بمهادنة أعدائهم بدلاً من التصدي لهم بكل ما أوتوا من إمكانيات، ودفع العلماء بالمصارحة على أن تصرفاتهم منافية للشرع ومخالفة لمبادئ العزة والكرامة[4]. فقد قام الفقيه المشهور بابن الملجوم "يوسف ابن عيسى"، عندما استفتاه أمير المرابطين في أمر ملوك الطوائف، فكان جوابه صريحاً بإصدار فتواه بضرورة خلعهم قائلاً له: "بأنه من كان من الملوك مصراً على هذه الأوصاف وموجوداً في الوقت إمام أعدل منه، عار من تلك الأوصاف، مؤتمن عن ارتكاب ذلك، وهو قادر على قتال المتغلب على المسلمين الموصوف، بما ذكر فله قتاله وعزله عن ولايته عن المسلمين"[5]. يُضاف إلى ذلك الفتاوى الشرعية التي أصدرها فقهاء المغرب والأندلس التي تجيز لأمير المرابطين الجهاد في الأندلس[6] وللاطمئنان على سلامة ذلك القرار من أية عيوب قد تشوبه تمت مكاتبة عالم المشرق الإسلامي

---

(1) أحمد بن خلف بن عبد الملك بن غالب الغساني يُعرف بابن القليعي ويكنى أبا جعفر = ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود: الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، جزءان، الدار المصرية للتأليف والترجمة (القاهرة، 1966)، 72/1، ترجمة رقم (157).

(2) ابن بشكوال: المصدر نفسه، 72/1.

(3) ابن بلقين: المصدر السابق، ص134-135.

(4) بن بية، محمد عبد الله: الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين، دار الأندلس الخضراء، (جدة، 2000)، ص154. كذلك عبود، امحمد: جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد الرابع (طرابلس، 1990)، ص189.

(5) ابن الأحمر، إسماعيل: بيوتات فاس الكبرى، دار منصور للطباعة والوراقة (الرباط، 1972)، ص15.

(6) ابن خلدون: العبر، 384/6.

الإمام "الغزالي" الذي جاءت فتواه صريحة ومؤيدة لما سبقها من أحكام تجيز شرعاً عزل أولئك الملوك[1]. وتم تأييد تلك القوى والتضامن معها من قبل الإمام الطرطوشي[2].

وبذلك أصبح أمير المرابطين أمام أمر واقع، فهل يستمع لأصوات العلماء والفقهاء المنادية بضرورة خلع ملوك الطوائف، أم يتركهم جاثمين على صدور رعاياهم؟ وبالتالي تصبح الجهود التي بذلها المرابطون والتضحيات الجسام التي تم دفع ثمنها بالأرواح والأموال مهددة بالانهيار والسقوط على يد النصارى وفي مقدمتهم "الفونسو"؟ فاختار "يوسف بن تاشفين" القرار الحكيم الذي يتماشى مع الشرع ويحقق طموحات المسلمين المنادية بضرورة إزالة أولئك الملوك الذين لم يكونوا بمستوى تحمل المسئولية في الدفاع على أوطانهم وعروشهم[3] وأضحى التدخل المباشر للمرابطين وأميرهم في بلاد الأندلس أمراً استراتيجياً فرضته الظروف عليهم من أجل المحافظة على أرواح إخوانهم بالأندلس، وحمايتها من مخاطر النصارى وغاراتهم، فضلاً عن ضمان استمرار الصلة بين العدوتين، وما تشكله من عمق استراتيجية لحماية الساحل المغربي وفق نظرة جهادية صادقة ترمي لتحرير الأرض والإنسان ببلاد الأندلس، ونستدل على ذلك بقول الأمير: "إنما كان غرضنا في ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدي الروم لما رأينا استيلاءهم على أكثرها، وغفلة ملوكها وتواكلهم وتخاذلهم وإيثارهم للراحة، وإنما همة أحدهم كأس يشربها، وقينة يسمعها، ولهو يقطع به أيامه، ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم في طول هذه الفتنة إلى المسلمين"[4].

---

(1) العربي، أبو بكر: شواهد الجلة، تحقيق محمد يعلي، الوكالة الإسبانية للتعاون (مدريد، 1996) ص302-303.

(2) حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص262. كذلك حسين مؤنس: الثغر الأعلى الأندلسي، مجلة كلية الآداب، المجلد الحادي عشر، مطبعة جامعة فؤاد الأول، (القاهرة، 1949)، ص95.

(3) المراكشي: المعجب، ص143.

(4) المصدر نفسه، ص143.

ويتبين مما سبق العزم الراسخ والقوي لأمير المرابطين في أن يجعل جهده ووقته من أجل الذود عن ديار الإسلام والمسلمين وتحريرها من النصارى أولاً وأخيراً.

أما عن الجانب المادي لو كان غرضه مادياً ودنيوياً لما كان غادر الجزيرة عدة مرات فضلاً عن رفضه غنائم معركة الزلاقة وتركها لأولئك الملوك ورعاياهم[1].

وهذا من وجهة نظر الباحث لا يعني أن الأشياء المادية لم تكن خارج حساباته، وإنما لم تكن غايته السامية، فالهدف السامي هو تحرير الأرض وإيجاد الوحدة بين العدوتين ورفع راية الإسلام والمسلمين عالية خفاقة في كل أرجاء المعمورة وبالتالي ضمان تسخير إمكانياتهما في المواجهة والتصدي للأعداء وعلى رأسهم "الفونسو" الذي يتحين الفرصة المناسبة للقضاء على الإسلام والمسلمين في الأندلس وإعادتها للنصارى بكل ما أوتي من قوة[2].

وكان على أمير المرابطين "ابن تاشفين" أن يعد عدته، وينظم صفوفه، ويرسم خططه العسكرية بكل دقة وإتقان لأن هذه المرة سيكون من أجل الإطاحة بملوك الأندلس، الذين عتوا فيها فساداً، وسيمضي بهم وهو معتمداً على نفسه وقواته دون مراعاة الانتظار والدعم منهم، وفي الوقت نفسه عليه أن يأخذ حذره من نصارى الأسبان، ويقطع سبل الاتصال بينهم وبين أولئك الملوك، حتى تسهل عليه تأدية مهامه التاريخية[3].

وانفتحت قرائح الشعراء في ذم أولئك الملوك الطغاة الذين لا تهمهم إلا مصالحهم ومنافعهم وتصوير تخاذلهم وتقاعسهم عن أداء واجباتهم تجاه رعاياهم وبلادهم[4]، وفي ذلك يقول ابن فرج الألبيري:

---

(1) التواتي، عبد الكريم: مأساة انهيار الوجود العربي في الأندلس، مكتبة الرشاد (الدار البيضاء، 1967)، ص312.

(2) المرجع نفسه، ص312، 313.

(3) ابن بسام، أبو الحسن علي الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مج 2، تحقيق إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، (ليبيا، 1975)، القسم الأول، مج885/2.

(4) المصدر نفسه، ص885.

نَادِي الملوكَ وَقُلْ لَهُمْ ماذا الَّذي أحْدَثْتُـــمُ
أسْلَمْتُمُ الإسْلاَمَ فِـــي أسْرِ العِدَا وقَعَدْتُمْ[1]

غير أن تلك التعابير الأدبية والمقاطع الشعرية لم تحرك ساكناً في أجساد ماتت ضمائرها، فلم تعد تكترث بما يدور حولها، بل انشغلت بملذاتها وأهوائها وكأنهم فـــي حالة سلام دائم ولا يهدد وجودهم أي خطر، ولعل ما أورده ابن بسام من أن يخـــوض الإنسان في الحديث عنهم[2].

لقد أوجب واجب الجهاد على المرابطين في بلاد الأندلس مسئوليات جسيمة، فلا يجوز عدلاً وإنصافاً بحق المرابطين أن يطلب القيام بواجب الجهاد وتحرير الأنـــدلس وبذل الأرواح في سبيلها كأغلى شئ يقدمه الإنسان في سبيل نـــصرة دينـــه وإخوانـــه المسلمين، وفي الوقت نفسه نقطع عنهم المدد والعون ونتركهم يتعرضون لنفاذ المـــؤن والأقوات، وبالتالي فإن أمير المرابطين وقواته أصبحوا أمام ضرورة حتمية تفرضـــها عليها واجبات المسلم الصادق التي لا يتأتى نتائجهـــا إلا باستئـــصال منابـــت الفـــساد بالأندلس المتمثلة في ملوكها، لتسير مسيرتهم الجهادية في أمان وتحقق الهدف المنشود، أو أن يتخلوا عن تضحياتهم السابقة ويتعرضون للتمزق والانهيار من خلال هجمـــات النصارى على ما تبقى من بلاد الأندلس، لذا فإن الواجب لا يتم إلا بتنفيذ مـــا أوجبـــه منه[3].

وهكذا تمهد الطريق أمام المرابطين للسيطرة على الأندلس، مما أدى إلى تحولها لاحقاً إلى ولاية مغربية زهاء مائة وخمسين عاماً[4].

ورضي جمهور الأندلسيين – إلى حين – عما آلت إليـــه الـــبلاد بعـــد عـــودة المرابطين إليها وعزل ملوك الطوائف، فقد أمنوا على أرواحهم وأمـــوالهم، واســـتتب

---

(1) المصدر نفسه، ص885.

(2) ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مج256/3.

(3) المراكشي: وثائق تاريخية عن المرابطين، ص36-37. كذلك عبد الكريم التواتي: المرجـــع الـــسابق، ص213.

(4) محمد عنان: دول الطوائف، ص332.

الأمن وساد الهدوء وخضع الناس للقانون، وهزم النصارى وانكمشوا في حصونهم بعد أن خضدت شوكتهم وركبهم الرعب بعد ما أصابهم على أيدي المرابطين[1].

ثالثاً: استنجاد الأندلسيين بالموحدين في شمال أفريقية:

كان من الممكن أن تبقى الأندلس قوية عزيزة بسيوف المرابطين وسواعدهم لو بقيت لهم بداوتهم وبساطتهم وحميتهم وحماستهم، ولكن طبائع الأشياء تأبى بقاء البداوة والخشونة وسط هذا النعيم، فلقد جاء المرابطون إلى الأندلس غلاظاً شداداً لم يعتادوا النعيم والرفه، يتفاخرون بالشجاعة والقوة ولهم قلوب يملؤها تعصب ديني غضوب ساذج، لكنهم لم يلبثوا أن استناموا إلى لذائذ الحياة فانحطت عزائمهم وفسدت أخلاقهم وفقدوا رجولتهم في زمن وجيز لم يتجاوز العشرين عاماً، فلم يعد جيش يعول عليه في صد هجمات النصارى، بل صار جيشهم حشداً غير منظم من رجال كسالى أدمنوا الخمر وبددوا فتوتهم وأصبحوا عبيداً لكل شهوة[2].

وزادوا في فسادهم وبلغ الأمر بهم، وهم المسئولون عن حفظ النظام أن يعبثوا هم بالنظام، فقطعوا الطريق أمام المسافرين وسرقوا كلما وجدوا فرصة للسرقة، وبلغ الضعف بحكامهم أن صاروا تحت سيطرة العواهر من النساء، ومثل هذه الدولة لا يطول بها الأجل ولا تمتد بها الأيام أن هذه الاضطرابات أسهمت بشكل وآخر في انهيارها وتصدع أركانها، بظهور الخطر الموحدي الذي أسفرت تداعياته في تزعزع سلطانهم في بلاد الأندلس[3].

وهكذا اختلت الأحوال في الأندلس، وجدد النصارى هجماتهم، وامتدت غزواتهم من ليون إلى جبل طارق، ولما رأى الأندلسيون المرابطين لا يفعلون حيال ذلك شيئاً ثاروا عليهم فأخرجوهم من البلاد[4].

---

(1) عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس، ص163.

(2) عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس، ص164-165.

(3) المراكشي: المعجب، ص174.

(4) المراكشي: المعجب، ص154. كذلك عبد الحميد العبادي: المرجع السابق، ص165.

وعادت الأندلس إلى حالتها أيام ملوك الطوائف، بل صارت الحالة إلى أشد مما كان، فقد صار الملوك في الأندلس بعدد ما فيها من مدن: فملك ابن "حمدين" "قرطبة"، و"ابن ميمون" "قادس"، و"اللمتوني" "غرناطة"، و"ابن مردانيش" "بلنسية"، وبعض هؤلاء من الأندلسيين وبعضهم من البربر، ثم اختفى هؤلاء جميعاً حينما ظهر الموحدين في الأندلس[1].

وفي هذه الأثناء عادت الأندلس تموج بالفوضى يتغلب المتغلبون على مدنها وكورها، وعاد الأسبان يجددون هجماتهم ويمدون غاراتهم، وعاد الأندلسيون يطلبون النجدة من الموحدين في شمال أفريقية[2].

ورأى الموحدون وقد ورثوا ملك المرابطين أن يحاكوهم في ضم الأندلس، فما لبث "عبد المؤمن" أن أرسل جيشاً سنة (539هـ/1144م)، ولم يمض أكثر من خمس سنوات حتى صارت جميع بلاد المسلمين في الأندلس في يد الموحدين[3]. والجدير بالذكر أن دولة الموحدين قامت في الفترة من (524-668هـ/1130-1269م)[4].

ولكن الموحدين لم يفكروا في أن يجعلوا من الأندلس قاعدة لملكهم، بل أرسلوا إليها نواباً عنهم يحكمونها باسمهم، وبقيت قاعدة ملكهم "مراكش" في المغرب، وكان من أثر ذلك أن ضعفت قبضتهم على الأندلس، فإنه من العسير أن تضبط ولايات متنازعة مختلفة كولايات الأندلس، تتعدد فيها الأجناس، وتختلف فيها الأهواء، والحق أن تاريخ الأندلس إن هو إلا صراع بين أجناس، الأمر الذي أدى إلى ضياع الأندلس من أيدي المسلمين[5].

---

(1) المراكشي: المعجب، ص150.

(2) مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص101.

(3) ابن عذاري: البيان المغرب، 97/4. كذلك عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس، ص168.

(4) عبد الحميد العبادي: المرجع نفسه، ص168.

(5) المرجع نفسه، ص166.

1- جهاد الموحدين في الأندلس وانتصار الأرك العظيم:

انتهز "أبو يوسف يعقوب المنصور" فرصة الفراغ مؤقتاً من أمر بني غانية[1] واتجه بقواه نحو الأندلس، وكان الموقف قد عاد إلى التحرج فيه، إذ أن الضغط النصراني على الأندلس كان قد أصبح كسيلٍ متدفق جرف السدود ولم يعد يجدي فيه إلا عمل حاسم من أعمال الإنقاذ الكبرى كتلك التي قام بها "صلاح الدين" في المشرق، وكان "صلاح الدين" معاصراً "لأبي يعقوب المنصور"[2].

وعاد النصارى إلى غزو أراضي الأندلس، فقد أغار "فرديناند" ملك "ليون" على وادي "آنه"[3] وأخذ "الفونسو هنريكي" ملك البرتغال يوسع حدوده شرقاً وجنوباً على حساب المسلمين فاستولى على "ترجاله" و"يابره" وحصني "سيترينة" و"جلمانية"[4].

وحاصر "بطليوس"، فأرسل الخليفة حملة عسكرية لإنقاذها، وقد تمكن سكانها من تصدي البرتغاليين[5].

توفي "الفونسو إنريكي"[6] في أواخر (581هـ/1185م) وخلفه ابنه "سانشو"، وعقد العزم على انتهاز فرصة انشغال الموحدين ببني غانية ليستولي على بعض بلاد

---

(1) بنو غانية: يقرأ الاسم بتشديد الياء، مؤسس بيتهم محمد المسوفي يُنسب إلى أمه، وكانت من غانة فهي غانيَّة وكانت النسبة إلى الأمهات شائعة بين المرابطين، لأن الرجال كانوا يتزوجون كثيراً فيُنسب الأولاد إلى أمهاتهم تمييزاً لبعضهم عن بعض في البيت الواحد = حسين مؤنس: تاريخ العرب وحضارته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي، مطابع العصر الحديث للنشر والتوزيع، (بيروت، 1992)، مج2، ج2، ص107.

(2) المرجع نفسه، ص108-19.

(3) وادي آنه: وهو أحد الأنهار الأربعة التي تصب في المحيط الأطلسي (وادي مينو، وتاجه،ودويرة) وينبع من قلعة رباح ويصب في المحيط بقسطلة دارج = ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص402، هامش 2.

(4) ابن خلدون: العبر، 499/6 أو العبر 400/6، كذلك سحنون نصر الله: المرجع السابق، ص328.

(5) ابن صاحب الصلاة، عبد الملك بن محمد الباجي: المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، تحقيق: عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي (بيروت، 1987)، ص313.

(6) إنريكي: ملك البرتغال توفي في عام 581هـ/1185م = انظر حسين مؤنس: المرجع السابق، ص109.

غربي الأندلس، وقد اشتد ساعده بحشود صليبية كان بعضها في طريقه من غربي أوروبا إلى بلاد الشام، فكانت تنزل بعض الموانئ البرتغالية في طريقها، وتمكن "سانشو" من إقناع رجال إحدى هذه الحملات بمعاونته في الاستيلاء على "شلب"، وكانت من أكبر موانئ ما بقي من غربي الأندلس في أيدي الموحدين[1].

وعزم الخليفة على السير بنفسه إلى الأندلس لوضع حد لغارات النصارى فاستنفر المسلمين وتجمعت عنده حشود هائلة من العرب بالإضافة إلى الموحدين وعبر المضيق للمرة الثانية في سنة (566هـ/1160م)، ونزل بإشبيلية وطلب من أخيه "عثمان" والي "غرناطة" بمهاجمة "مرسية" حيث يعتصم "ابن مردنيش"[2] والتقى الجيشان في "الجلاب" حيث انهزم "ابن مردنيش" ولجأ إلى "مرسية"، فحاصره الموحدون واستولوا على "لورقة" و"بسطة"، وتوفي "ابن مردنيش" وهو محاصر، فخلفه "ابن هلال" الذي دخل في طاعة الموحدين[3] وسلم لهم الحصون التي كانت خاضعة لأبيه وهي: "بلنسية"، و"مربيطر" و"شاطبة" و"لورقة" و"قرطاجنة"، وأقام الخليفة أربعة سنوات في الأندلس قاد أثناءها حملات ضد الأسبان. ففي سنة (567هـ/1161م) هاجم جنوب البرتغال وحاصر "شنترين" واستولى على "القنطرة"، وفي سنتي (568 و569هـ/1162 و1163م) أغار على نواحي قلعة "رباح" وفي سنة (571هـ/

---

(1) المرجع نفسه، ص109. كذلك سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص238.

(2) ابن مردنيش: هو محمد بن سعد بن مردنيش الجذامي، من أخطر الثائرين الذين ظهروا بشرق الأندلس عند انهيار دولة المرابطين وبداية عهد الموحدين. أصله أسباني ويبدو أن جده مردنيش هذا دخل ولاء الجذاميين فانتسب إليهم، والغالب أن اسمه Martinez، وكان محمد بن مردنيش يتشبه بالنصارى في هيئته ولباسه وسلاحه ويتكلم لغتهم بطلاقة، كما استخدم الكثير من المرتزقة النصارى في جيشه وتسميه المصادر الأسبانية Elrey Lobo أي الملك الذئب = ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص60، هامش 1. كذلك ابن الأبار: المصدر السابق، 232/2، ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص261.

(3) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص314-315. كذلك المراكشي: المعجب، ص249، ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص266.

1165م) عاد إلى المغرب[1].

انتهز الأسبان عودة الخليفة إلى المغرب، ففي سنة (572هـ/1166م)، استولى القشتاليون على "قونكة"[2] وأخذ القشتاليون والبرتغاليون والأرغونيون يشنون الغارات على الأندلس، عندها قرر الخليفة وضع حداً للأسبان بعد أن كثر عيثهم في أراضي المسلمين، فجاء إلى الأندلس للمرة الثالثة سنة (579هـ/1173م) بجيوش جرارة وهاجم مملكة البرتغال وسار إلى "شنترين"، وكان البرتغاليون قد استولوا عليها سنة (541هـ/1146م)، وحاصرها حصاراً شديداً دمر أحوازها، ولكنه لم يستطع فتحها لحصانتها، ولأن ملك البرتغال كان قد استعد للحصار وشحنها بالرجال والسلاح والمؤن، وحل الشتاء فخاف المسلمون من فيضان نهر "تاجه" فأشاروا عليه بالعودة إلى "إشبيلية"[3].

ورأى أن لا جدوى من الحصار الذي طال وحاول محاصرة "إشبونة" وأسرع رجاله بحزم الخيام تمهيداً للرحيل، وعبر أكثر الجنود متزاحمين بشكل فوضوي وبقي مع الخليفة قلة من جنوده، ولاحظ البرتغاليون رحيل معظم الجيش الموحدي فأغاروا على معسكر الخليفة فقتل عدد من قادة الجيش وأصيب الخليفة بسهم مسموم، عندها ارتد الجيش الذي عبر النهر، فتراجع البرتغاليون إلى "شنترين" وحمل الموحدون خليفتهم الجريح ومات بعد يومين سنة (580هـ/1184م)، ونقلوه إلى "إشبيلية" ومنها إلى "تينملل" حيث دُفن بجوار والده عبد المؤمن[4] وخلفه ابنه يعقوب.

---

(1) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص266. كذلك حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته، ص109، سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص328.

(2) يوسف أشباخ: المرجع السابق، ص321.

(3) المراكشي: المعجب، ص258. كذلك ابن صاحب الصلاة: المصدر السابق، ص320، ابن عذاري: البيان المغرب، ص113.

(4) المراكشي: المعجب، ص258. كذلك ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص289، المقري: نفح الطيب، 113/6، ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص268، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 195/9.

استغل البرتغاليون انتصارهم في "شنترين" فهاجموا غرب الأندلس فاضطر يعقوب إلى العبور إلى الأندلس في 3 ربيع الأول سنة (585هـ/1189م)، وسار إلى "شنترين" و"إشبونة" ليثأر لوالده واجتاح المنطقة وعاث فيها تدميراً، وأحرق القرى والمزارع وقتل وسبى السكان، ثم عاد إلى المغرب[1]، فانتهز "بدروبن هنريكي" عودة الخليفة وهاجم "شلب" مستعيناً بالصليبيين الأوربيين الذين جاءوا من إنجلترا وهولندا، وحطوا قبالة "إشبونة" وحاصروا "شلب" من البحر و"بدرو" من البر وتمكنوا من دخولها[2] ثم أغاروا على غرب الأندلس واستولوا على "باجة" و"يابرة" سنة (586هـ/1190م)[3].

استاء الخليفة يعقوب المنصور من تقاعس رؤساء الأندلس وتخاذلهم أمام الأسبان، فقام "محمد بن يوسف" والي قرطبة باستعادة "شلب" و"قصر أبي دانس" و"باجة" و"يابرة" ثم عادة إلى قرطبة[4].

بلغ "الفونسو" عزم الخليفة على العبور إلى الأندلس، وكان أمد الصلح قد انتهى، فجهز جيشه وحدد لهم يوماً للإغارة على المسلمين في الأندلس، فشنوا الغارات في يوم واحد على أراضي المسلمين، واجتاحوا أراضي إشبيلية وعاثوا فيها فساداً وتخريباً، ووردت أخبار هذه الغارة على الخليفة وهو يتأهب لقتال بني غانية في إفريقية، فعدل عن قتالهم وقرر الجواز إلى الأندلس لمحاربة القشتاليين[5] فعبر المضيق في 20 (جمادي الأول 591هـ/أبريل 1194م)، وأقام يوماً في لطريق، ثم رحل إلى "إشبيلية"

---

(1) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص267. كذلك سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص329.

(2) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص269. كذلك المقري: نفح الطيب، 114/6، ابن صاحب الصلاة: المصدر السابق، 380، حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته، ص108-109.

(3)

(4) المراكشي: المعجب، ص280. كذلك ابن خلدون: العبر، 511/6، ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص69.

(5) المركشي: المعجب، 282. كذلك ابن خلكان: المصدر السابق، 425/2، ابن خلدون العبر، 245/6، سعدون نصر الله: المرجع السابق، 330، حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته، ص110.

ونزل قصر "البحيرة"، فاستقبله سكانها، وتفقد "حصن الفرج" وصلى في الجامع الكبير، ثم استعرض قواته، وأغدق عليهم بالأموال ووزع الأسلحة والخيول، وأمر بإخراج السجناء الذين يسمح الشرع بإخراجهم(1).

غادر إشبيلية إلى "قرطبة" في (11 رجب 591هـ/22 يونيو 1194م)، وتابع سيره إلى "الأرك" بالقرب من قلعة رباح، وخيم على مسافة مرحلتين من القشتاليين، وخرجت سرية قشتالية من القلعة تستطلع أخبار المسلمين، فوقعت في كمائن الموحدين فأبادوها(2).

علم "الفونسو" بعبور الخليفة إلى الأندلس، فأسرع إلى "طليطلة" حيث أعد جيشاً كبيراً لقتال الموحدين، وتوجه بهذا الجيش إلى الأرك(3) حصنه الأمامي على حدود الأندلس، وكأنه كان واثقاً من النصر، فبدأ المعركة قبل وصول جيوش حلفائه من "ليون" و"نافار"، حتى أنه أحضر معه جماعة من التجار اليهود ليبيعهم الأسرى المسلمين(4).

نظم الخليفة جيشه فولى الوزير "أبا يحيى" قيادة الجيش، و"ابن صناديد" قيادة الأندلسيين، و"جيرمور بن رياح" قبائل العرب، و"منديل المغراوي" قبائل مغراوة و"محيو بن أبي بكر بن حمامة" قبائل بني مرين و"جابر بن يوسف" قبائل عبد الواد وعين "تجليدر" على قبائل هكسورة ومصمودة و"محمد بن منغفاد" على غمارة و"الحاج أبي فزر" على المتطوعة، وجميعهم بأمرة الوزير "أبي يحيى" واختص نفسه بعسكر

---

(1) محمد عنان: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الثاني، دار سحنون للنشر والتوزيع، ط2 (تونس، 1990)، ص198. كذلك سعدون نصر الله: المرجع السابق، 330.

(2) محمد عنان: المرجع السابق، ص111.

(3) الأرك: هي بالإسبانية Alarcos، وشبوداد ريال هي Ciudad real ومعناها المدينة الملكية. وتقوم مكان الأرك اليوم محلة صغيرة تسمى Sta Maria de Alarcos في فحص قلعة رباح = محمد عنان: المرجع السابق، ص200، هامش رقم (1).

(4) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 9/232-233.

الموحدين والعبيد[1].

وضع الخليفة وقادته خطة الحرب، وقرر البدء بالزحف على معسكر النصارى، وسارت الجيوش الموحدية ببطء نحو الأرك، ونزلت في السهل المجاور، وتقدم النصارى نحو الموحدين الذين لم يردوا عليها لأن الخليفة قرر أن يخوض المعركة في اليوم التالي وهو يوم الأربعاء 9 شعبان/18 يوليو من نفس العام[2].

ويروي لنا صاحب روض القرطاس: "أنه لم استشار قواد الأندلس أحالوا على كبيرهم "أبي عبد الله ابن صناديد"، وأن "ابن صناديد" أبدى رأيه للخليفة بأنه يجب أن تبدأ المعركة باشتباك سائر حشود الأندلس وقبائل العرب، وسائر قبائل المغرب من زناتة والمصامدة وغيرهم وجند المتطوعة، وأن ينتظر الخليفة في المؤخرة ومعه جيوش الموحدين والعبيد والحشم في موضع مستور، فإن أسفرت المعركة عن انتصار المسلمين فيها، وإن أسفرت عن هزيمتهم، فعندئذ يبادر الخليفة في قواته إلى لقاء العدو، وليحمي ظهور المسلمين، ويكون العدو عندئذ قد خبت قواه، فيكون النصر للمسلمين، وأن الخليفة قد أعجب بهذا الرأي وقرر إتباعه"[3].

كانت الجيوش الموحدية على أهبة الاستعداد ومعبأة تعبئة حربية، فجعل القائد "أبو يحيى" الأندلسيين في الميمنة وقبائل المغرب والعرب في الميسرة والرماة والأغزار والمتطوعين في المقدمة، وجعل مركزه في القلب مع قبيلته، وكان مكان المنصور في المؤخرة مع العبيد وجند الموحدين[4].

وقبل بدء المعركة قام الوزير القائد خطيباً، طلب فيه من الحشود بناءً على طلب الخليفة دعاهم فيه إلى التسامح والإخلاص في النيات، ثم ألقى القاضي "أبو علي بن حجاج" خطبة بليغة دعا فيها المسلمين على الاستبسال[5].

---

(1) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص246. كذلك سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص331.

(2) حسين مؤنس: المرجع السابق، ص110. كذلك سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص331.

(3) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص147.

(4) المقري: نفح الطيب، ص116. كذلك سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص331.

(5) ابن عذاري: البيان المغرب، 194/3. كذلك سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص331.

وفي صباح (9 شعبان 591هـ/18 يوليو 1194م)، نشبت المعركة المرتقبة وكان القشتاليون قد غادروا معسكرهم كالبحر الزاخر أسراباً تتلو أسراباً وأمواجاً تعقب أمواجاً، وتقدم في الدفعة الأولى من سبعة إلى ثمانية آلاف فارس اصطدمت بمقدمة جيش الموحدين ثم تراجعت ثم اقتربت ثم تقهقرت، ثم استعدت للهجوم الفعلي وكان الوزير "أبو يحيى" والقائد "ابن صناديد" يحثان الجنود على الثبات[1].

وأخيراً تركز هجوم القشتاليين على القلب الذي يقوده الوزير معتقدين أن الخليفة المنصور يقوده لأنه أمر برفع الأعلام الخليفية على القلب، فصمد الوزير وجنوده ولكن الهجوم كان صاعقاً قُتل فيه الوزير مع جماعة من جنوده، عندها تقدمت سائر فرق الجيش الموحدي وأحاطت بالقشتاليين من كل جانب حيث دارت معركة رهيبة حتى غروب الشمس[2].

وأسفرت هذه المعركة عن هزيمة القشتاليين الذين لاذوا بالفرار إلى حصن الأرك[3] بعد أن فقدوا أعداداً كبيرة من القتلى، واستطاع "الفونسو" الفرار مع عشرين فارساً تحت جناح الظلام إلى "طليطلة"، واقتحم المسلمون حصن "الأرك" وغنموا ما فيه من الذخائر والسلاح[4].

تقدر الروايات الإسلامية عدد القتلى بعشرات الألوف من النصارى، والغنائم بـ 150 ألف خيمة و146 ألف رأس خيل، ومئة ألف بغل، ومئة ألف حمار. وقسم الخليفة الغنائم بعد تخميسها بين المسلمين، وقد نادى الخليفة في عسكره بأن من غنم شيئاً فهو له عدا السلاح[5].

---

(1) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص149-150.

(2) سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص332.

(3) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص247. كذلك المراكشي: المعجب، ص159، ابن خلدون: العبر، 242/6.

(4) ابن أبي زرع: روض القرطاس، 269. كذلك المقري: نفح الطيب، 418/1، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 233/9، ابن الخطيب: أعمال الأعلام، 269/3، سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص332.

(5) المقري: نفح الطيب، 418/1. كذلك ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 233/9.

إثر النصر الذي أحرزه الموحدون بث يعقوب المنصور سرايا جنده فاستولى على عدة حصون، وهاجموا قلعة "رباح" ودخلوها بعد قتال عنيف قُتل فيه نونيودي "قونيتس" أستاذ جمعية القلعة بعد أن كانت في حوزة النصارى منذ نصف قرن تقريباً، وأمر بتطهير جامعها الذي حوله النصارى إلى كنيسة وعين عليها "يوسف بن قادس"[1] وهاجم مدينة طليطلة وضرب عليها الحصار وخرب نواحيها[2].

عاد "يعقوب المنصور" إلى "إشبيلية" بعد هذا النصر العظيم الذي تحقق للمسلمين في هذه المعركة، وأمر بالاستعداد للغزو، واستشار القادة في اختيار مناطق الغزو[3].

ولما انتهى "المنصور" من غزواته وأظهر للقشتاليين قوة الموحدين ارتد جنوباً عائداً إلى "إشبيلية"، بعد أن استولى على حصن "بطربونة" "Pidrobuena" قرب موقعة الأرك، ثم عاد إلى "إشبيلية"، وكانت هذه الحملة الواسعة المدى في أراضي مملكة قشتالة سنة (592هـ/1196م) هي أكبر الحملات التي قام بها المسلمون على بلاد "قشتالة" منذ سقوط "طليطلة" في أيدي النصارى سنة (581هـ/1185م)[4].

ولو قدر "للمنصور" أن يمتد به العمر لكان له شأن بعيد في الجهاد في الأندلس، فقد كان الرجل مجاهداً عظيماً وقائداً مظفراً، عرف كيف يقود رجاله بنجاح في هذه الغارات الطويلة المضنية، وقد زعزعت أعماله الحربية هذه مملكة قشتالة، ولو دخل المنصور "طليطلة"، كما دخل صلاح الدين بيت المقدس قبل ذلك بقليل سنة (583هـ/1187م) لتغير وجه تاريخ المسلمين في الأندلس جملة[5].

---

(1) المراكشي: المعجب، ص283. كذلك المقري: نفح الطيب، 16/6، سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص333.

(2) المرجع نفسه، ص333.

(3) حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته، ص111.

(4) المرجع نفسه، ص111.

(5) محمد عنان: المرجع السابق، ص217.

2- تحالف الممالك النصرانية وانهزام الموحدين:

كانت الأحوال في إفريقية قد ساءت في أواخر عهد يعقوب المنصور ولاسيما حين شغل بأمر الجهاد في الأندلس ضد النصارى الذين يتحينون الفرصة للوثوب على الدولة الإسلامية والقضاء عليها، ولم تسعفه الظروف حين عودته بعد ذلك إلى المغرب، ليعنى بالنظر في شئون إفريقية، وتدارك ما دهمها من الحوادث، حيث فاجأه المرض وتوفي عام (595هـ/1199م)، فكان على ولده الخليفة الفتى "محمد الناصر" أن يواجه هذه الظروف، وأن يقوم بتداركها[1].

جهز الخليفة "الناصر" سنة (599هـ/1203م) حملة إلى جزيرة "ميورقة" حيث بنو غانية الذين ينتهزون الفرص ويغيرون على أراضي الموحدين، فقد هاجم "عبد الله بن إسحاق بن غانية" جزيرة "يابسة" الخاضعة للموحدين أوائل سنة (597هـ/1201م)، وهاجم سنة (598هـ/1202م) جزيرة "منورقة"، واستولى عليها من الموحدين، فاضطر الخليفة إلى مهاجمته وأعد أسطولاً من 300 سفينة منها 70 غراباً و30 طريدة و50 مركباً كبيراً و150 قارباً بالإضافة إلى قوة برية من 2200 فارس و700 من الرماة و115 ألف رجل وكان يقود الحملة البحرية "أبو العلاء بن يوسف بن عبدالمؤمن"، والجيش البري "الشيخ أبو سعيد أبي حفص"، وانطلقت الحملة من جزيرة "دانية" أواخر سنة (799هـ/1203م) وصلت إلى جزيرة "يابسة" بعد عدة أيام، واستولى "أبو العلاء" على "منورقة" واسر صاحبها "ابن نجاح" وأرسله إلى العاصمة حيث أعدم هناك[2].

استمرت الحملة في تقدمها إلى "ميورقة" حيث تصدى لها "عبد الله بن إسحاق"، ودارت معركة رهيبة قُتل فيها "ابن غانية" واقتحم الموحدون الجزيرة ودخلوها وهم يرفعون رأس "عبد الله بن إسحاق"[3].

---

(1) المرجع نفسه، ص251.

(2) ابن عذاري: البيان المغرب، 216/3. كذلك الحميري: الروض المعطار، ص59.

(3) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص153. كذلك الحميري: الروض المعطار، ص110؛ سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص337.

انصرف "الناصر محمد" إلى معالجة أوضاع المغرب عن الاهتمام بأحوال الأندلس، وكان القشتاليون قد أخلدوا إلى السكينة بعد هزيمتهم في الأرك، واجتياح "الخليفة المنصور" لأراضيهم والعيث منها، ولما طال الصراع بين الموحدين وابن غانية، وانقطع عبور المجاهدين إلى الأندلس، أدرك الأسبان النصارى أن الفرصة سنحت لاستئناف الغزو لأراضي المسلمين[1].

وكان "الفونسو الثامن" القشتالي يتحرك للثأر بعد هزيمة الأرك، ولما انتهى أجل الهدنة المعقودة بينه وبين الموحدين جهز حملة سنة (606هـ/1209م)، ومعه فرسان قلعة "رباح" وسار إلى "جيان" و"يابسة"، واستولى على عدة حصون، ثم عاد في العام التالي واجتاح أراضي "جيان" و"يابسة" حتى وصل إلى أطراف ولاية "مرسية"، وعاد إلى "طليطلة" مثقلاً بالغنائم[2].

وفي الوقت نفسه سار "أبو العلاء"، إدريس بن يوسف بالأسطول الموحدي إلى برشلونة واجتاح شواطئ قطالونية، وعاد بالأسرى والغنائم في صيف سنة (607هـ/1210م)، مما أغضب "بيدرو الثاني" ملك "أراجون" فخرج ومعه قوات من فرسان المعبد واستولى على حصون في شمال "بلنسية"[3].

كان لهذه الغارات صدى عميقاً في المغرب، ولم يكن بوسع الحاميات الموحدية الصغيرة التصدي لجيوش النصارى الجرارة، فاستغاثت "بالناصر" خاصة وقد جرى ملك قشتالة على خرق الهدنة بالرغم من احتجاج رسل الخليفة "الناصر" على ذلك، فقرر العبور إلى الأندلس وأرسل الكتب إلى سائر أنحاء المغرب يدعو فيها السكان إلى الجهاد، وكتب إلى ولاة الأندلس بالاستعداد[4]، ولما كمل غادر مراكش يوم السبت (20 رمضان 607هـ/5 فبراير 1211م)، إلى الرباط التي غادرها يوم الاثنين (18 شوال

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، 214/3.

(2) سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص337.

(3) ابن خلدون: العبر، 249/6. كذلك سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص338.

(4) ابن خلدون: العبر، 249/6. كذلك ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص154.

607هـ/4 أبريل 1211م). وقد لاقى الجيش صعوبات أثناء مسيره على سواحل المغرب نتيجة فساد الولاة فأمر الخليفة بعزلهم ومعاقبتهم[1].

وعبرت جيوش الموحدين إلى الأندلس واستقرت في "إشبيلية" نهاية عام (607هـ/1211م)، ثم خرج على رأس الجيش قاصداً قلعة "شلبطره"[2] التي تقع جنوب غرب قلعة "رباح" التي استعادها "أبو المنصور" بعد "الأرك" وهي قلعة حصينة يرابط فيها الفرسان النصارى بعد خروج قلعة "رباح" من أيديهم ومنها يشنون الغارات على أراضي المسلمين[3].

حاصرها الموحدون وقتلوا 400 من النصارى في أرباضها وضربوها بـ 40 منجنيقاً، فاستسلمت بعد 51 يوماً ودخلوها وحولوا كنيستها إلى جامع وذلك في (ربيع الأول 608هـ/أغسطس 1211م)[4] ثم رجع الخليفة إلى "إشبيلية".

كان ملوك إسبانيا النصرانية "ألفونسو الثامن" و"سانشو الثامن" ملك نافار قد عقدا هدنة سنة (604هـ/1207م) مدتها 5 سنوات انضم إليها بيدرو الثاني ملك أراجون، ومما قوى عرى هذا التحالف، وجود البابا "أنوسنت الثالث" على كرسي البابوية الذي كان يضطرم بروح صليبية حاقدة على المسلمين، وكان ملك قشتالة قد رجاه بدعوة الأمم النصرانية لمؤازرته، فاستجاب لمطلبه، وأرسل إلى أساقفة جنوب فرنسا يدعوهم

---

(1) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص155. كذلك ابن عذاري: البيان المغرب، 237/3، محمد عنان: المرجع السابق، ص286.

(2) شلبطرة حسبما يرسمها الحميري (الروض المعطار)، ص109 هي بالإسبانية Salvatierra ويرسمها ابن أبي زرع (روض القرطاس)، ص156، وابن خلدون (العبر)، ج6، ص249 سربطرة أو شربطرة، ويرسمها المراكشي (المعجب)، ص182، شلب ترة، ويقول إن معناها الأرض البيضاء ويتابعه في الرسم النويري (طبعة زيمرو، ج8، ص279).

(3) سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص338. كذلك محمد عنان: المرجع السابق، ص286.

(4) الحميري: روض المعطار، ص110. كذلك سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص338.

إلى المساهمة بأنفسهم وأموالهم في مساعدة ملك قشتالة، وأنه يمنح كل من يلبي الدعوة الغفران[1].

بعد عودة الخليفة من غزوة "شليطرة" إلى "إشبيلية" كان "الفونسو الثامن" القشتالي يستعد للحرب، وقد وفدت "طليطلة" وفود المتطوعين من فرنسا طيلة سنة (608هـ/1211م)، وسائر المدن الأسبانية وفرسان قشتالة وفرسان الجمعيات الدينية، وفرسان قلعة "رباح" و"شنت ياقب" و"الاسبتارية" و"الداوية" و"القوامس" رؤساء أسرة "لارا" والكونت "ديجو لوبيث" و"لوبي دياث دي هارو" مع فرسانهم، بالإضافة إلى مطارنة من فرنسا على رأس مقاتلين وفي مقدمتهم مطران "أربونة" وأسقفا "بوردو" و"نانت"[2].

وفي مايو سنة (609هـ/1212م) بلغ عدد الصليبيين الأوربيين القادمين لمساعدة أسبانيا النصرانية ألفين من البارونات مع حاشيتهم، و110 آلاف من الفرسان و50 ألفاً من الرجال، وقد وصلت مقادير من الأعتدة والمؤن والأسلحة من فرنسا وإيطاليا، وأمر البابا في روما بالصوم ثلاثة أيام إلتماساً للنصر[3].

كان الموحدون يستعدون كذلك لليوم الفاصل في الأندلس، ففي (17 محرم 609هـ/20 يونيو 1212م) خرجت الجيوش النصرانية من "طليطلة" نحو الجنوب وكانت مقسم إلى ثلاثة أقسام: جيش الطليعة من الصليبيين الأوربيين وعددهم 60 ألفاً يقوده القائد القشتالي "ديجولو بيث دي هارو"، والجيش الثاني من قوات أراجون وقطلونية وفرسان الداوية يقوده "بدرو الثاني" ملك أراجون، والجيش الثالث من قوات قشتالة ليون والبرتغال وفرسان قلعة رباح وشنت ياقب والاسبتارية يقوده الملك

(1) سعدون نصر الله المرجع السابق ، ص338-339.

(2) المراكشي: المعجب، ص182. كذلك محمد عنان: المرجع السابق، ص293، سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص339، La orden de calatraud (Ciudad Real, 1959), p. 18.

(3) المراكشي: المعجب، ص182. كذلك يوسف أشباخ: المرجع السابق، ص358-360، محمد عنان: المرجع السابق، ص294.

"الفونسو الثامن" يعاونه الأحبار وعلى رأسهم ردريك مطران طليطلة وعدده حوالي 30 ألف فارس ماعدا المشاة(1).

وخرج "الناصر" من إشبيلية في (20 محرم 609هـ/23 يونيو 1212م)، نحو جيان لقتال النصارى بينما كانت الجيوش النصرانية تسير جنوباً نحو الأراضي الإسلامية، وفي 21 محرم، 24 يونيو من نفس العام وصلت إلى حصن "ملجون" واقتحمته وقتلت حاميته الإسلامية القليلة العدد، ثم تابعت سيرها نحو قلعة (رباح) المنيعة، وكان يتولى الدفاع عنها سبعون رجلاً بقيادة (أبي الحجاج يوسف بن قادس)(2).

وحاصرتها وصمدت القلعة، ولكن رأى قائدها أن لا جدوى من المقاومة فرأى أن يسلمها سلماً بعد حصول الأمان له ولرجاله، وقبل بهذا العرض "الفونسو" لأنه يمكنه من دخول القلعة دون قتال، ولكن بعض حلفائه رفضوا إعطاء الأمان، عندها أصر "أبو الحاج" على القتال فاضطر "الفونسو" إلى الموافقة وتسلم القلعة سلماً وأعطاها لفرسانها السابقين(3).

آثار استيلاء النصارى على القلعة بهذه الطريقة خلافاً بين القشتاليين والصليبيين الوافدين، إذ رأى الوافدون أن ترك المسلمين يغادرون القلعة أحياء عملاً لا يتفق مع أغراضهم الصليبية وقد سرت إشاعات بأن "الفونسو" عثر في القلعة على تحف اختصها لنفسه، فغادر كثير منهم أسبانيا عائدين إلى بلادهم، وقد بلغ عددهم حوالي 50 ألف مقاتل(4).

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، 240/3. كذلك الحميري: الروض المعطار، ص137، محمد عنان: المرجع السابق، ص295.

(2) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص157. كذلك سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص340.

(3) المراكشي: المعجب، 183. كذلك ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص157، Huici Miranda: Las Grandes Batallas, de la reconquista (Madrid, 1956), p. 242, 244, & 245.

(4) يوسف أشباخ: المرجع السابق، ص362-363. كذلك المراكشي: المعجب، ص183، محمد عنان: المرجع السابق، ص297، سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص340.

عاد ابن قادش بعد سقوط قلعة رباح، فمنعه الوزير (أبو سعيد بن جامع) من مقابلة الخليفة وأعطى للخليفة صورة سيئة واصفاً ابن قادس بالخيانة فأمر الخليفة بإعدامه مع صهره دون أن يستمع إلى عرض موقفه بما أثار سخط الجنود الأندلسيين، ولما شعر بذلك الوزير استدعى قادتهم وطلب منهم مغادرة جيش الموحدين إذ لا حاجة لهم[1].

بعد سقوط قلعة "رباح"[2] نظم "الفونسو الثامن" جيشه وخاصة بعد مغادرة الوافدين الأوربيين، واستأنف سيره نحو الجنوب حتى أشرف على مرتفعات جبل الشارات ونزل في ممر موروال يوم الاثنين (10 صفر 609هـ/13 يوليو 1212م)[3].

وتحرك الخليفة "الناصر" نحو الشمال، وقسم جيشه إلى خمسة أقسام القسم الأول من العرب والثاني من قبائل المغرب صنهاجة وزناته والثالث من المتطوعين والرابع من الموحدين والخامس من الأندلسيين وقدر عدده بحوالي 600 ألف رجل[4] وعبر نهر الوادي الكبير واحتلت فرق من الجيش ممرات جبل الشارات ومنها ممر "لوسا" الوعر وخيمت في البسيط تجاه هذا الممر[5].

قرر "الناصر" مقابلة الأسبان في هذا الموضع ويدعى موقع العقاب، وقد كان واثقاً من النصر، فنظم الموحدون الجيش وقسموه إلى خمس فرق: الفرقة الأمامية من

---

(1) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص158. كذلك الحميري: الروض المعطار، ص37، سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص340.

(2) قلعة رباح مدينة تابعة لطليطلة، وتقع إلى الجنوب منها، وقد سُميت بذلك نسبة إلى "علي بن رباح" "اللخمي" الذي اشترك في فتح الأندلس = الحميري: الروض المعطار، ص163.

(3) ابن عذاري: البيان المغرب، 241/3. كذلك حسين مؤنس: المرجع السابق، ص131، محمد عنان: المرجع السابق، ص300.

(4) المقري: نفح الطيب، 538/2. كذلك ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص158، السلاوي: الاستقصاء، 191/1.

(5) السلاوي: المصدر نفسه، 191/1.

المتطوعة، وقوات القلب من الجنود الموحدين والقوات الاحتياطية والميمنة من الأندلسيين والميسرة من البربر وضربت خيمة الخليفة على ربوة عالية تحرسها فرقة العبيد[1].

ونظم النصارى جيشهم وقسموه إلى ثلاثة أقسام: القلب يقوده الملك "الفونسو" مع احتفاظه بالقيادة العليا، والثاني الجناح الأيمن يقوده" سانشو" ملك نافار ومعه الصليبيون من أوروبا والثالث الجناح الأيسر يقوده "بيدرو الثاني" ملك أرجوان[2].

وليلة الإثنين (15 صفر 609هـ/يوليو 1212م)، استعد الفريقان، وبدأت المعركة صباح يوم الاثنين، بدأ النصارى بالهجوم، وهاجمت طلائعهم بعنف مقدمة جيش الموحدين فثبت وتراجع النصارى، ثم أتتهم الإمدادات فلم يستطع عندها الموحدون اختراق صفوفهم، وهاجم صباحاً الجيش النصراني جناح الجيش الموحدي واستبسلت مقدمة جيش الموحدين في الدفاع حتى استشهد جميع أفرادها[3].

وحاول النصارى التقدم إلى قلب الجيش الموحدي فردوا على أعقابهم بعد قتال عنيف، واستطاع جناحا الجيش الموحدي رد الهجوم الذي تعرضا له فتراجع النصارى[4].

ولما شاهد "الفونسو" تراجع قوات النصارى مما ينذر بهزيمة ساحقة، نزل إلى ميدان المعركة بما معه من قوات يقاتل قتال اليائس ومعه ملكا أرجوان ونافار، واندفعت قوات النصارى بهجوم صاعق ارتدت على أثره قوات الميمنة والميسرة عند الموحدين، عندها ركّز النصارى هجومهم على قلب الجيش الموحدي حيث خيمة

---

(1) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص258. كذلك يوسف أشباخ: المرجع السابق، ص367.

(2) يوسف أشباخ: المرجع السابق، ص366. كذلك سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص341، حسين مؤنس: المرجع السابق، ص132.

(3) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص258. كذلك المقري: نفح الطيب، 420/2، محمد عنان: المرجع السابق، ص307.

(4) Primera Cronica General (Ed. Pidal), Vol. II, p. 701. كذلك محمد عنان: المرجع السابق، ص342.

الخليفة، وقد ارتفعت معنوياتهم القتالية بعد هزيمة جناحي جيش الموحدين، وصمد القلب الذي يتألف من جيش الموحدين النظامي، وأخيراً استطاع النصارى اختراق القلب إلى دائرة الحرس الخاص فردتهم سهام الحرس[1]. وأخيراً تمكنوا من اختراق دائرة الحرس فكان أول من دخلها الكونت "البارو نونيزدي لارا"، وبيده علم أبيض على رأس فرقة من الفرنسيين، وصمد الخليفة في هذا الموقف اليائس بعد أن قتل من الحراس العبيد 10 آلاف[2]، وفر على ظهر فرس قدمها إليه أعرابي متجهاً نحو بياسة[3].

ولاذت فلول الجيش الموحدي بالفرار، وقوات النصارى تطاردها وتمعن فيها قتلاً حتى جن الليل ودخل النصارى معسكر الجيش الموحدي الذي أضحى أثراً بعد عين[4].

لقد كانت خسائر معركة "العقاب" فادحة جداً بالنسبة للمسلمين، فقد هلك من الجيش الموحدي حوالي مئة ألف رجل[5].

وأياً كانت الأسباب التي أدت إلى الهزيمة، فإنها كانت حاسمة بالنسبة إلى الأندلس حيث أدت إلى خرابها وسقوطها تباعاً بيد الأسبان[6].

استغل "الفونسو الثاني" انتصار "العقاب"، فاستولى على الحصون القريبة من مكان المعركة منها حصن "العقاب"، و"يلج تولوسا"، ثم تقدم إلى مدينتي "بياسة" و"أبدة" فدخل "بياسة" وقتل سكانها، ثم سار إلى "أبدة" فقاومته وحاصرها 15 يوماً، وعرض عليه سكانها التسليم لقاء مبلغ مليون دينار على أن تترك المدينة حرة، فقبل "الفونسو"

---

(1) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص158. كذلك سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص342.

(2) المراكشي: المعجب، ص183.

(3) المصدر نفسه، ص183.

(4) محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، ص313. كذلك سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص343، حسين مؤنس: المرجع السابق، ص132.

(5) الحميري: الروض المعطار، ص138. كذلك سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص343.

(6) المقري: نفح الطيب، 420/2. كذلك ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص270.

ولكن الأحبار رفضوا ذلك، فلم يُغضبهم، فدخلوا المدينة وأبادوا سكانها البالغ عددهم 60 ألف نسمة تقريباً[1].

وعاد بعد ذلك إلى "طليطلة" وتقرر أن يكون يوم 16 يوليو يوم عيد النصر، أما الخليفة "الناصر" فقد عاد إلى "إشبيلية"، ثم عبر البحر إلى مراكش، واحتجب عن الناس ومرض في أوائل (شعبان 610هـ/1213م)، وتوفي يوم الأربعاء (10 شعبان 610هـ/22 ديسمبر 1213م)، مغموماً من نكبة العقاب[2].

المهم لدينا أن تلك المعركة كانت قاصمة الظهر بالنسبة لمستقبل الأندلس، فقد تضعضعت، وتوالت وثبات المنافسين للموحدين فيها فتبددت قوتهم وطمع فيها أمراء الأندلس، فأزاحوهم عن الأندلس سنة (633هـ/1235م)، وأعلن ابن هود نفسه حاكماً لأكثر بلاد الجنوب وحين قضى نحبه تحول حكم الأندلس إلى بني نصر أمراء غرناطة سنة (636هـ/1238م)[3].

رابعاً: تاريخ مملكة غرناطة تحت حكم بني الأحمر أو بني نصر (635-897هـ/1237-1492م):

كانت مملكة غرناطة[4] هي بقية ملك العرب في الأندلس، بعد أن تمزقت دولتهم ووقع أكبر المدن الكبرى في أيدي المسيحيين، ففي الفترة ما بين سنة (636-

---

(1) سالم السيد عبد العزيز: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة (القاهرة، د.ت)، ص741. كذلك المراكشي: المعجب، ص184، يوسف أشباخ: المرجع السابق، ص372.

(2) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص263. كذلك مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص121، سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص343.

(3) عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس، ص169.

(4) غرناطة: يقال غرناطة، كما يقال أغرناطة، وكلاهما أعجمي، تقع جنوب مدينة جيان وشمال مدينة مالقة، وفيها يقول وزيرها الشاعر ابن زمرك:

عقيلة تاجها السَّبيكة تطل بالمرقب المنيف
كأنها غرفة مليكة كرسيها جنة العريف.

انظر ابن الخطيب: الإحاطة، 91/1. كذلك ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص78، هامش (3).

668هـ/1238-1260م) فتح "فرديناند الثالث" ملك قشتالة، و"خايم الأول" ملك أراجون، مدن بلنسية وقرطبة ومرسية وإشبيلية وأصبح حكم العرب محصوراً في غرناطة التي استطاعت لمناعتها أن تقاوم الأسبان قرنين ونصف قرن من الزمان[1].

كانت مقاطعة غرناطة واقعة بين جبال (Sierra Nevada) "سييرا نفيادا" التي كان العرب يسميها جبل الثلج وساحل البحر من المرية إلى جبل طارق، وقد انحاز إلى هذه المملكة الجديدة كل الجنود الأشداء من المسلمين الذين فروا من المدن التي استولى عليها النصارى، ووهبوا لغرناطة سواعدهم وسيوفهم، فكانوا عاملاً قوياً في بقاءها في مواجهة النصارى رغم إحاطتهم بها وقوة مواردهم عن مواردها وحرصهم على إزالتها[2].

أسس هذه المملكة "محمد بن يوسف بن نصر الخزرجي" الذي يرجع نسبه إلى "سعد بن عبادة الأنصاري" الصحابي الكبير[3].

وقد لقب بابن الأحمر لشقرة فيه، كما لقب بالشيخ اعترافاً له بزعامة بني نصر.

---

(1) عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس، ص170. كذلك المقري: نفح الطيب، 216/6، ابن خلدون: العبر، 167/4، محمد عنان: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين (القاهرة، 1966)، ط3، ص32.

(2) المقري: نفح الطيب، 244/6. كذلك عبد الحميد العبادي: المرجع السابق، 170، سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص350.

(3) ابن خلدون: العبر، 17/4. كذلك المقري: نفح الطيب، 280/1، سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص315.

ولد "محمد بن يوسف" في مدينة أرجونة (Arjona) من حصون "قرطبة"[1]، في جهة الشرق سنة (591هـ/1195م)، وهو عام معركة الأرك الشهيرة[2]، كان شديد المراس، ذو كفاية عالية، وافر الجراءة، يتزعم قومه، ويقودهم إلى مواقع النضال والجهاد[3]، لما كثرت غزوات النصارى لأراضي الأندلس، رأى الفرصة سانحة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه فالتف حوله أنصاره، وقد دخلت في طاعته عدة مدن، لاسيما في وسط الأندلس، قبل سنة (630هـ/1232م) مثل جيان ومالقة وشريش، ثم كانت بيعته، أميراً لمملكة غرناطة يوم الجمعة (26 رمضان سنة 635هـ/1237م)[4]. وكانت مناطق أخرى دخلت تحت سلطان بن هود، شرق الأندلس وكذلك غرناطة[5]، لكن بوفاة "ابن هود"، زال أكبر منافس لابن الأحمر، ودخلت غرناطة في طاعته، ثم استدعى إليهما، فدخلها في نهاية رمضان سنة (635هـ/أبريل 1238م)، وأصبحت مدينة "غرناطة" حاضرة المملكة، وانضمت إليها مناطق أندلسية أخرى، منها مناطق تقع في جنوبي الأندلس وشرقيها[6].

---

(1) ابن خلدون: العبر، 336/4. كذلك ابن الخطيب: اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرانية (القاهرة، 1347هـ) ص30، علي الشطشاط: نهاية الوجود العربي في الأندلس، دار قباء (القاهرة، 2001)، ص53.

(2) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة. 99/2. أو اللمحة البدرية، ص36. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص53.

(3) المقري: نفح الطيب، 216/1-447. كذلك ابن عذاري: البيان المغرب، 109/2، ابن الخطيب: الإحاطة. 92/2. الحميري: الروض المعطار، ص12.

(4) ابن الخطيب: الإحاطة، 100/2. كذلك الحجي: المرجع السابق، ص517.

(5) ابن الخطيب: الإحاطة، 142/1. كذلك السيد عبد العزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر (الإسكندرية، 1985)، ص23، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص54.

(6) محمد عنان: نهاية الأندلس، ص33. كذلك الحجي: المرجع السابق، ص517.

توفي "أبو عبد الله محمد بن يوسف" في جمادي الثانية سنة (671هـ/ديسمبر 1272م) وخلفه في الحكم ابنه "محمد الثاني" (الفقيه)[1]، الذي استمر في الحكم إلى عام (702هـ/1302م)[2].

لما مات "محمد الثاني" خلفه في الحكم "محمد الثالث"، وكان عالماً مولعاً بالفنون والآداب، ورغم كونه صغير إلا أنه بنى قصراً بالحمراء، وبنى المسجد الجامع بالقصر. ثم عزل "محمد الثالث" عام (709هـ/1309)، وخلفه أخوه "نصر بن محمد"، الذي تنازل عن الحكم سنة (713هـ/1313م) لأبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر[3].

كان عهد "إسماعيل" عهد سلم واستقرار، واستطاع أن ينتصر على جيوش "قشتالة" قرب "إلبيرة"، واستولى على "بياسة" عام (725هـ/1324م)، ولكنه قتل في العام التالي (726هـ/يونيو 1325م)، في أثناء إحدى حملاته، فتولى الحكم من بعده ابنه "محمد الرابع"، الذي نجح رغم حداثته في استرداد جبل طارق عام (734هـ/1333م) بفضل بني مرين، ولكنه قُتل في أثناء عودته إلى غرناطة منتصراً، بالقرب من الجزيرة الخضراء في نفس العام، فتولى أخوه "أبو الحجاج يوسف الأول" الحكم، وكان يوسف هذا حامياً للآداب والفنون، فأقام أول نواة لقصر الحمراء بما فيه برج قمارش والحمام الملكي وباب الشريعة ومصلى البرطل[4].

ظل "يوسف الأول" يحكم سنين كلها رخاء، وفي عهده تملك الأسبان "قلعة يخصب" والجزيرة الخضراء، وقُتل سنة (755هـ/1354م)، وهو يؤدي صلاة العيد في جامع الحمراء[5].

---

(1) ابن الخطيب: كناسة الدكان بعد انتقال السكان (القاهرة، بدون تاريخ) ص20. كذلك علي الشطشاط: المرجع السابق، ص54.

(2) السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص24.

(3) المرجع نفسه، ص25.

(4) علي الشطشاط: المرجع السابق، ص54.

(5) المرجع نفسه، ص55.

تولى ابنه "محمد الخامس الغني بالله" من بعده السلطة فأكمل في قصر الحمراء ما كان أبوه قد بدأه فيه، ودامت فترة حكمه حتى سنة (794هـ/1391م)، ثم خلفه عدة سلاطين ضعاف، وتوالت الأحداث في العهد الأخير الذي سبق مباشرة سقوط "غرناطة" في أيدي النصارى، وانبعثت الفتنة بين أفراد الأسرة المالكة، وقامت الثورات تأييداً لأحدهم على الآخر، وكان آخر حلقة في سلسلة هذه الفتن والثورات الصراع الرهيب الذي دار بين "أبي عبد الله بن سعد"، المعروف "بالزغل"، وابن أخيه السلطان "أبي عبدالله محمد بن أبي الحسن"، ذلك الصراع الذي أدى في نهايته إلى تسليم "غرناطة" في الثاني من شهر ربيع الثاني سنة (897هـ/2 يناير 1492م)[1] إلى النصارى الأسبان.

نشأت غرناطة في هذه الظروف الشاقة وغمرتها الأحداث التي كان بالإمكان أن تؤدي بها، لكن "غرناطة" لم تستطع المحافظة على كل الأندلس، التي كانت خاضعة لسلطان الموحدين[2]، وخلال هذه الأونة العصيبة التي ظهرت فيها مملكة "غرناطة"، سقطت العديد من القواعد الأندلسية في أيدي الأسبان[3]، حيث سقطت "قرطبة" حاضرة الخلافة عام (633هـ/1235م)، و"بلنسية" عام (636هـ/1239م)، و"إشبيلية" عام (646هـ/1248م)، ثم تلتها مدن وحصون أخرى مثل "مرسية" و"شباطة" و"جيان"[4]، أما المدن والمناطق التي بقيت للمسلمين فقد احتوتها "غرناطة"، في الطرف الجنوبي من الجزيرة الأندلسية[5]، وهكذا بسط القشتاليون سلطانهم على سائر الأراضي

---

(1) علي الشطشاط: نهاية الوجود العربي في الأندلس، ص55. كذلك السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص25-26.

(2) عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس، ص170-171. كذلك محمد عنان: نهاية الأندلس، ص31، علي الشطشاط: نهاية الوجود العربي في الأندلس، ص53.

(3) ابن خلدون: العبر، 176/4.

(4) المقري: نفح الطيب، 209/6-422-215. كذلك ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص276.

(5) علي الحجي: التاريخ الأندلسي، 517-518. كذلك علي الشطشاط: نهاية الوجود العربي في الأندلس، ص55.

الإسلامية الواقعة غربي ولاية الأندلس، وأخذت رقعة الدولة الإسلامية تنكمش بسرعة مروعة[1].

وهكذا فقدت الأندلس مدنها وقواعدها التالدة خلال ثلاثين عاماً (627-655هـ/1227-1257م) وانحسرت في رقعة ضيقة حول "غرناطة" بعد أن كانت تشغل نصف مساحة شبه الجزيرة قبل قرن تقريباً[2].

وأثار الانهيار السريع قرائح الشعراء، فنظموا القصائد الوجدانية والقومية التي ترثي الأندلس، حيث نظم شاعر العصر "أبو الطيب صالح بن شريف الرندي"، مرثيته الشهيرة، التي مازالت تعتبر حتى اليوم من أروع المراثي القومية وأبلغها تأثيراً في النفس، وفيها يبكي قواعد الأندلس الذاهبة ويستنهض همم المسلمين أهل العدوة لنجدة الأندلس وغوثها[3] وهذه بعض أبيات منها:

لكل شيء إذا ما تمّ نُقْصَانُ ∴ فَلاَ يغر بطيبِ العيشِ إنسانُ

هِي الأُمورُ كما شاهدتُها دُوَلٌ ∴ مِنْ سَرَّهُ زَمَنٌ ساءتهُ أزْمَانُ

وَهَذه الدَّارُ لا تُبْقي عَلَى أحَدٍ ∴ ولا يَدُومُ عَلَى حالٍ لها شانُ

يُمَزِّقُ الدَّهرُ حَتْمًا كُلَّ سَابِغَةٍ ∴ إذا نَبت مُشْرفِياتٌ وخَرْصَانُ[4]

ضمت مملكة غرناطة أيام بني الأحمر، الطرف الجنوبي من شبه الجزيرة الأندلسية، جنوب نهر الوادي الكبير إلى البحر الأبيض المتوسط، حيث الجزيرة الخضراء وجبل طارق، ومن لورقة في ولاية مرسية شرقاً إلى البحر المتوسط، ومن الشمال حتى قلعة يخصب "Alcala la real"، في ولاية جيان، إلى شذونة في ولاية قادس غرباً، وشملت ثلاث ولايات كبرى، ولاية غرناطة في الوسط وفيها العاصمة

---

(1) محمد عنان: نهاية الأندلس، ص38-39.

(2) سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص357.

(3) محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس، ص42. كذلك الأمير شكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، ص69. علي الشطشاط: نهاية الوجود العربي في الأندلس، ص56.

(4) المقري: نفح الطيب، 594/2، 595. كذلك المقري: أزهار الرياض في أخبار عياض (القاهرة، 1492م)، 57/1-50، محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس، ص42-43.

غرناطة، وولاية المرية (Almaria) في الشرق، وولاية مالقة (Malaga) في الجنوب والغرب(1).

أما خواصها الطبيعية، فقد جمعت بين مزيج رائع من المروج والوديان الخصبة، والهضاب الوعرة التي كانت تمدها بثروات زراعية ومعدنية ممتازة، يستثمرها ويضاعف إنتاجها أبناء الشعب الأندلسي بقدرته ونشاطه ومواهبه وبذلك استمدت مملكة غرناطة من مواردها الطبيعية، أسباب القوة والمنعة والرخاء(2).

هذا وقد بلغ عدد سكان المملكة حوالي خمسة أو ستة ملايين نسمة، وكان بغرناطة وحدها أكثر من مليون نسمة ويرجع سبب هذا الازدحام إلى تدفق الوافدين إليها من المناطق الإسلامية التي سقطت في أيدي النصارى، وعلى الرغم من أن العناصر الأساسية التي تتكون منها الأمة الأندلسية، وهي العرب والبربر والمولدون فإنه يلاحظ أن الجموع الوافدة على مملكة غرناطة الجديدة، كانت تضم كثيراً من العناصر التي صقلتها حضارة أرقى، ومن ثم فإنه يمكننا القول بأن المملكة الإسلامية الجديدة، كانت تمثل أطيب وأثمن ما بقي من القيم العنصرية والحضارية للأندلس القديمة(3).

1- صمود غرناطة وأسبابه:

عاشت مملكة غرناطة الإسلامية قرنين ونصف من الزمن تحيط بها قوات معادية من كل جانب، واستطاعت وحدها وبكل شجاعة أن تقوم، بعد أن جاءت نهاية

---

(1) ابن الخطيب: الإحاطة، 1/115-119. كذلك محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس، ص55، علي الحجي: التاريخ الأندلسي، ص518، علي الشطشاط: نهاية الوجود العربي في الأندلس، ص57.

(2) الشقندي، إسماعيل بن محمد: رسالة في فضل الأندلس، وردت ضمن كتاب فضائل الأندلس، وأهلها لابن حزم وابن سعيد والشقندي، نشرها وقدم لها صلاح الدين المنجد (دار الكتاب الجديد، 1968)، ص56. كذلك علي الشطشاط: نهاية الوجود العربي في الأندلس، ص57.

(3) محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس، ص63. كذلك علي الشطشاط: نهاية الوجود العربي في الأندلس، ص58.

المسلمين بالأندلس، وبعد أن ضاع منهم الأمل والمستقبل، وكان أعداؤها يستغلون ضدها عوامل الزمن التي كلها في صالحهم ويتحينون الفرصة المناسبة للوثوب عليها وسحقها، وأرادوا الكسب بأقل التضحيات والمجهودات، وشغلتهم عليها أيضاً الانتصارات التي حققوها على المسلمين بعد ذلك الصراع الطويل والمرير، وكانوا يترددون أيضاً في العمل ضدها بعد أن أصبحت ملاذاً للشجعان القادرين على العمل ببسالة في حرب الحياة أو الموت، وبعد أن ارتبطت بتحالف بني مرين حكام إفريقية[1].

ولم يكن من السهولة والبساطة على هذه المملكة الإسلامية الفتية البقاء كل هذه الفترة الطويلة في تلك الظروف الصعبة، حتى لقد كان ذلك مثاراً للاستغراب والتعجب لعديد من الباحثين[2]. ووجه الدهشة والغرابة أن دولة بهذا الحجم البسيط من المساحة والسكان، مع تلك الضخامة من التكاليف والتضحيات تواجه القوة الضخمة في العدد والإمكانيات الواسعة لدى ممالك إسبانيا النصرانية، التي جعلت منها منفردة أو متحدة مهاجمة ملكة غرناطة الإسلامية والقضاء عليها كهدف أساسي، لذلك كانت هذه القرون مليئة بالصراع، وهي لا تخلو من مهادنات واتفاقيات ومعاهدات بين الطرفين، تدفع مملكة غرناطة أحياناً فيها المبالغ الباهظة، ومع ذلك فقد وجدت فترة من الهدوء والمسالمة، التي لم يكن يحرص عليها حكام ممالك أسبانيا النصرانية التي أصبحت في هذا الوقت صاحبة القوة الحقيقية والفعلية[3].

كان للقدر تصاريفه العجيبة فإنه في الوقت الذي أخذ الضعف يدب إلى مملكة غرناطة الإسلامية ممثلاً في ترف ملوكها، وذهاب حلفائها في المغرب، قد بدأ النشاط والقوة تتجمع في أسبانيا النصرانية، فقد تزوج "فرديناند" ملك "أراجون" من "إيزابيلا"

---

(1) حبيبة، علي: مع المسلمين في الأندلس (بدون مكان، بدون تاريخ)، ص262-363. كذلك علي الشطشاط: نهاية الوجود العربي في الأندلس، ص58.

(2) من هؤلاء الباحثين المستشرقين الأسباني دي لاي كافيجاس في كتابه: Isidro de la los Mudejares, Mardrid, 1948, pp. 425-426.

(3) علي الحجي: التاريخ الأندلسي، ص519. كذلك علي الشطشاط: نهاية الوجود العربي في الأندلس، ص59.

ملكة "قشتالة" واتحدت المملكتان وكان هذا الاتحاد أول ناعق بالفناء لملك العرب في الأندلس[1].

ولم يبق على ملكي قشتالة وأراجون، بعد أن دانت لهما سائر الثغور والقواعد الأندلسية الجنوبية، والشرقية، لإتمام خطتهما في القضاء على دولة الإسلام والمسلمين في الأندلس، عدا الاستيلاء على مملكة غرناطة، آخر المعاقل التي بقيت بيد المسلمين، ولم تكن غرناطة يومئذ مملكة أو دولة، بل كانت رمزاً فقط للمملكة الإسلامية الغاربة، وكانت واسطة عقد تصرمت سائر حباته، وكانت كالمصباح المرتجف يخبو ضوؤه سراعاً، فلم يكن يقتضي إطفاؤه سوى الضربة الأخيرة، وقد رأى "فرديناند" و"إيزابيلا" أن الوقت قد حان لتشديد هذه الضربة القاضية، عقب استسلام الزغل وسقوط وادي آش، فلم يبق من الأندلس إلا غرناطة آخر مدن الإسلام مهيضة الجناح تنتظر قدرها، وبذلك تنتهي حرب الاسترداد[2].

وترجع أسباب صمود غرناطة وثباتها في وجه الأعداء والممالك النصرانية إلى:

أ- السر في ذلك ليس بالأمر الصعب تفسيره، فإن مملكة غرناطة قد زخرت بخلاصة العرب في الأندلس، إذ انحاز إليها المسلمون الذين غلبوا على أمرهم في النواحي الأخرى، وكانوا قوماً موتورين تتأجج بالأحقاد صدورهم وتحتدم الرغبة في الثأر في نفوسهم، ولذلك كثيراً ما حاولوا في حروب متعاقبة، أعظموا فيها النكاية في العدو، أن يتغلبوا على المسيحيين ويتفلتوا من أيديهم. ولكن قوة العدو موارده كانت فوق شجاعتهم، وفوق مستوى حقدهم، وكانوا فوق ذلك أهل فلاحة، وتجارة وصناعة فعمرت بهم تلك الجهات عمراناً حافلاً فلم يبق شبر من الأرض إلا استغل أحسن استغلال، وفوق ذلك كله كان ابن الأحمر رجلاً بصيراً أدرك أنه لكي يكون لملكه أمام أعدائه فلابد من رجال، ولا رجال إلا بالمال، ولا مال إلا بالعدل وحسن

---

(1) عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس، ص174.

(2) مؤلف مجهول: أخبار العصر في دولة بني نصر، المنشور بعناية المستشرق مبللر (جوتنجن 1863)، ص31. كذلك المقري: نفح الطيب، 273/6، عنان: المرجع السابق، ص215-216، علي الشطشاط: نهاية الوجود العربي في الأندلس، 59.

السياسة والتدبير، فأخذ نفسه بالعدل بين الرعية وحسن سياستها وتوجيهها التوجيه الذي يعود عليها بالرخاء والاستقرار، فلم تمض سنوات إلا وقد اشتبكت عمارة بلاده، واستطاع بمعاونة العلماء الذين وفدوا على غرناطة من شتى المدن الإسلامية التي استردت أن يستخرج المعادن ويستفتح أرصاد كنوز الطبيعة ووجه عنايته إلى كافة مناحي الحياة فرسخت المملكة ونمت وتطورت وضربت جذورها فأصبحت صامدة أمام الأعداء يحسبون لها ألف حساب[1].

ب- الأمر الثاني الذي أعان غرناطة على الوقوف في وجه أعدائها هو الصداقة والعلاقة المتينة التي قامت بين ملوك غرناطة وبين بني مرين في المغرب، وكان هؤلاء يرسلون إلى غرناطة عونهم الحربي عند كل هجوم عليها، بل كانوا يبقون قوة حربية تحت سلطة الملك تساعده إذا ما تحرش به النصارى، ولقد ظل هذا العون أثره ما بقي ملك بن مرين في المغرب، فلما ذهب أمرهم في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، لم تستطع مد غرناطة بتلك المعونة التي كانت تلقاها، وبدأ أمر غرناطة في الضعف[2].

ج- أشير هنا إلى أن ملوك النصارى قد تركوا غرناطة وشأنها في أول الأمر، لانصرافهم لتوطيد دعائم ملكهم فيما فتحوه من البلاد، ولكنهم ما لبثوا بعد أن استقر في أيديهم ما ملكوا أن بدأوا يشنون الغارة على أملاك غرناطة، وبادلهم المسلمون غارات بغارات ونكاية بنكاية، وكثيراً ما كانت تبلغ الغارات حد العنف الذي لا رحمة ولا هوادة فيه، واتسم بعضها بالمغامرة وعدم التبصر يدفع إليها الحقد ويذكيها حب الثأر والانتقام[3].

---

(1) عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس، ص171-172. كذلك علي الحجي: التاريخ الأندلس، ص521.

(2) علي الحجي: التاريخ الأندلسي، ص519-120. كذلك علي الشطشاط: نهاية الوجود العربي في الأندلس، ص60. عبد الحميد العبادي: المرجع السابق، ص172.

(3) عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس، ص173.

د- كذلك لا ننسى الدين الإسلامي، ذلك المقدار الذي بقي من الالتزام بالإسلام هو الذي وهب هذه المعاني معنى حياً وحياة حقيقية، وهو الذي جمع هذه الطاقات ودفعها للوقوف مجتمعة، والاستعداد للبذل، ورفع الهمم، كما كان العامل الديني وراء وقوف بني مرين مع إخوانهم، ثم الانتفاع بكل الإمكانيات الأخرى حسب الظروف المتاحة والمتوفرة[1].

2- الحروب الصليبية ضد غرناطة وحصارها:

بعد سقوط وادي آش لم يبق من الأندلس إلا غرناطة آخر مدن الإسلام تنتظر قدرها، ورأى ملكا أسبانيا أن الوقت حان للاستيلاء عليها، وبذلك تنتهي حروب الاسترداد[2].

وباشرا بالعمل، فقد أرسلا في صفر (595هـ/مطلع 1490م)، "كونثالو فرنانديث" قائد حصن "إليورة" ومرتين الأركون قائد حصن "موكلين" يطلب من أبي عبد الله التسليم[3]، وأن يختار مدينة يقيم فيها تحت طاعتهما[4].

أدرك "أبو عبد الله" خديعة "فرديناند" وأي خطأ ارتكبه بمهادنته فأرسل إليه رسوله "أبا القاسم المليح" حاملاً رسالة بأسلوب مهذب معلناً الخضوع،ولكنه رفض طلبهما وفشل أبو القاسم باقناع الملكين، فقرر إعلان الحرب عليهما لولا نصيحة أصحاب الرأي بالتريث، فأرسل إلى الملكين وزيره "يوسف بن كماشة" برفقة التاجر "إبراهيم القيسي" من أثرياء غرناطة الذي يرتبط بالنصارى بعلاقات طيبة، وذهبا إلى

---

(1) علي الشطشاط: نهاية الوجود العربي في الأندلس، ص60.

(2) سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص393.

(3) مؤلف مجهول: خلاصة العصر، ص33.

(4) السلاوي: الاستقصاء، 103/4.

إشبيلية وقابلا الملكين ولكنهما لم يوفقا في مهمتهما وعادت الحرب من جديد بين المسلمين والنصارى[1].

كانت غرناطة قد أضحت الملاذ الوحيد للمسلمين في الأندلس بعد سقوط مدنها وقواعدها بيد النصارى، فهرع إليها كل مسلم أبى أن يخضع للنصارى، حتى بلغ عدد المقيمين فيها أكثر من 400 ألف نسمة يغمرهم الحقد على النصارى الذين أذلوهم وهجروهم من مدنهم وقراهم بلا ذنب اقترفوه، فرفضوا الاستسلام وقرروا القتال حتى الموت، أدرك السلطان "أبي عبد الله" فداحة الخطأ الذي ارتكبه بمهادنة ملكي النصارى، وجمع قادة المسلمين للتشاور فأجمعوا على القتال[2]. وبدأ المسلمون يغيرون على أراضي النصارى، فرد "فرديناند" بأن أغار على غرناطة حتى وصل إلى أسوارها، فتصدى له المسلمون وعلى رأسهم "أبو عبد الله" وردوه بعد أن كبدوه خسائر فادحة في رجب (895هـ/يوليو 1490م)، عندها عمد "فرديناند" إلى تحصين الحصون القريبة من غرناطة مثل حصن برج "الملاحة" و"همذان" وغيرها، وسار أبو عبد الله في قواته فاسترد قرية البذول وغيرها، وثار أهل البشرات ووادي آش وفتح "أبو عبد الله" حصن "أندرش" جنوب شرق غرناطة ووضع حاميات في المناطق التي استعادها في (شعبان 895هـ/أغسطس 1490م)[3].

وفي رمضان فتح قرية همذان الحصينة وأسر حاميتها النصرانية وحاول استعادة ثغر المنكب لإعادة الصلة بين الأندلس والمغرب واستولى أثناء زحفه على حصن "شلو بانية"، وعلم النصارى بالمحاولة فأرسلوا نجدات من "بلش" و"مالقة" لانجاد حاميته، فارتد عند ذلك لأنه أدرك أنه لا يستطيع لهذه القوة سبيلاً ولدى سماعه فرديناند

---

(1) مؤلف مجهول: خلاصة العصر، ص93. كذلك محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس، ص182-188، علي الشطشاط: نهاية الوجود العربي في الأندلس، ص63.

(2) المقري: نفح الطيب، 273/6. كذلك مؤلف مجهول: خلاصة العصر، ص34، السلاوي: الاستقصاء، 103/4.

(3) المقري: نفح الطيب، 273/6. كذلك مؤلف مجهول: خلاصة العصر، ص36-37، محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس، ص216-222.

بخبر زحف "أبي عبد الله" على "المنكب" هاجم مرج غرناطة وكان قد تخوف من ثورة المسلمين في وادي "آش" خاصة وأن النصر الذي أحرزه المسلمون قد أذكى حماس الثوار فخدع الثوار وأخرجهم من وادي "آش" إلى السهول، وهنا بادر "أبو عبد الله" بمساعدتهم على نقل عائلاتهم وأموالهم إلى غرناطة وبعضهم انتقل إلى المغرب، وأقفرت المنطقة من سكانها، فأرسل "فرديناند" النصارى لتعميرها واغتنم "أبو عبد الله الفرصة فاستولى على حصن "أندرش" للمرة الثانية مع غيره من الحصون[1].

عندها أدرك "فرديناند" أنه لابد من الاستيلاء على غرناطة التي أضحت تثير روح الثورة ضد الأسبان، فأخذ أهبته للأمر، وخرج في مطلع سنة (896هـ/1491م)، على رأس جيش لاحتلال غرناطة من 50 ألف مقاتل من الفرسان والمشاة مزودين بالمدافع، وأشرف على فحص غرناطة الواقع إلى الجنوب الغربي فيها في (12 جمادي الآخرة 896هـ/23 أبريل 1491م)، وخيم على ضفاف نهر "شنيل" في قرية "عتقسه" على مسافة ميلين منها وأرسل قوة إلى حقول البشرات التي تزود غرناطة بالمؤن فعاثت فساداً في المنطقة وأحرقت المزروعات والقرى وقتلت السكان وحولت المنطقة إلى قفار فانقطع عن غرناطة أهم مورد من مواردها[2].

وتقدم نحو المدينة وضرب حولها حصاراً شديداً مصمماً على دخولها مهما كانت التضحيات، وبنى لجيشه مدينة مسورة اتقاءً لبرد الشتاء إذا طال الحصار[3].

وهكذا رنقت شمس الأندلس، وكانت نتيجة الصراع معروفة ومحسومة لصالح النصارى الذين أعدوا للحرب عدتها الحاسمة ضد مدينة يحيط بها العدو من كل الجهات. غير أن غرناطة لم تكن فريسة سهلة، فقد كانت تتمتع بموقع حربي حصين،

---

(1) المقري: نفح الطيب، 275/6. كذلك سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص394. عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس، ص179.

(2) مؤلف مجهول: خلاصة العصر، ص44. كذلك سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص395. عبدالحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس، ص179.

(3) سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص395. كذلك علي الحجي: المرجع السابق، ص524-525.

فكانت تحميها من الشرق قمم جبال شلير "سيرانيفادا"، وكانت المؤن تأتي عن طريقــه إلى داخل المدينة، ومن الجنوب أسوار وأبراج[1].

وحل الشتاء فانقطع سبيل المؤن[2] وفيها من الطاقة البشرية حوالي 400 ألــف نسمة، كما أشرنا سلفاً، بينهم حوالي 20 ألف فارس، وكانت تعــيش شــبح الحــرب والحصار فاختزنت المؤن والأقوات وكانت مستعدة لحصار طويل، وأبدت المدينة فــي الدفاع ضروباً من البطولة فقد كان فرسانها يخرجون من المدينة ويهاجمون الأعــداء موقعين بهم كثيراً من القتلى.

وقد تجلت المقاومة الإسلامية في الفارس العربي "موسى بن أبي الغسان" قريب الملك "أبي عبد الله"، والذي تربى على بغض النصارى وكان يرى في الموت خيراً من حياة الذل، كان يدرب الفرسان ويذكي الحماس في نفوس الغرناطيين، وكــان لموقفــه أكبر الأثر في تطور الحرب، فحمل السلطان والشعب على الجهاد حتى آخــر رمــق، وكان قوله المأثور في ذلك الظرف العصيب: "ليعلم ملك النصارى أن العربي قد ولــد للجواد والرمح فإذا طمح إلى سيوفنا فليكسبها وليكسبها غالية، أما أنا فخير لي قبر تحت أنقاض غرناطة في المكان الذي أموت فيه مدافعاً عنــه مــن أفخــم قــصور غنمهــا بالخضوع لأعداء الدين"[3].

وكان موسى يرسل فرسانه للتصدي لقوات "فرديناند" التي كانت تجوب حقــول غرناطة لِتُتْلف مزروعاتها، ولكن بعد أن اشتدت وطأة الحصار اضطر المسلمون إلــى الامتناع بأسوار المدينة، وقسم الدفاع عن غرناطة بين قادة الجيش والأســر، وتــولى

---

(1) عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس، ص180. كذلك علي الشطشاط: نهاية الوجود العربي في الأندلس، ص66.

(2) مؤلف مجهول: خلاصة العصر، ص44. كذلك المقري: نفح الطيــب، 275/6، ســعدون نــصر الله: المرجع السابق، ص395.

(3) محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس، ص238.

"موسى" قيادة الفرسان يعاونه "نعيم بن رضوان" و"محمد بن زائده"، و"آل التغري" حراسة الأسوار، وزعماء القصبة والحمراء حماية الحصون[1].

كان حصار غرناطة محكماً من البر والبحر، وقطع "فرديناند" عنها طرق الإمدادات من المغرب بوضع الأسطول في مضيق جبل طارق حتى أن الإمارات المغربية كانت ضعيفة وخائفة من النصارى[2].

وعندما حل الشتاء اشتد الجوع بالسكان، فر بعضهم إلى البشرات عندها أعلن حاكم المدينة أمام مجلس الحكم بأن الأقوات تكفي لأمد قصير وأن اليأس دب في نفوس الجنود فانظروا لأنفسكم وأولادكم[3].

فاعترض "موسى" على ذلك وبث في النفوس حماساً جدياً وأيد موقفه السلطان "أبي عبد الله" فسلم إلى القادة أمر الدفاع، وأخيراً زحف "فرديناند" بقواته نحو أسوار المدينة فخرج المسلمون وفي مقدمتهم السلطان "أبو عبد الله" يقود الحرس الملكي و"موسى" يقود الفرسان ودارت معارك رهيبة في الحصن حتى خضب بدماء الطرفين، فتهزم المشاة وتبعهم الحرس الملكي، وعبثاً حاول "موسى" الصمود أمام قوى العدو الهائلة فاضطر إلى التراجع إلى داخل أسوار المدينة[4].

أوصد المسلمون أبواب مدينتهم خائفين من المجهول خاصة وأنهم أيقنوا أن نهاية وطنهم وسقوطه بين العدو أصبح محتوماً، وحاصر "فرديناند" المدينة، وعزم على أن يسلمها للجوع، وبنى أمامها في ثمانين يوماً مدينة سماها "شنتفي" "الإيمان المقدس"[5].

---

(1) محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، ص235. كذلك عبد الحميد العبادي: المرجع السابق، ص178، سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص396.

(2) سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص396.

(3) مؤلف مجهول: خلاصة العصر، ص636. كذلك السلاوي: الاستقصاء، 103/4.

(4) سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص397. كذلك محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، ص179.

(5) المقري: نفح الطيب، 275/6. كذلك محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، ص180.

وعمل الجوع في أهل المدينة أكثر مما عملته المدافع وآلات الحرب، فتوسلوا إلى أبي عبد الله أن ينقذهم من عذاب الموت جوعاً، وبعد مشاورات بدأ أبو عبد الله مفاوضة الأسبان، أما قائده "موسى" فلم يرض بالتسليم للعدو فلبس سلاحه وركب جواده وغاص في الأعداء ضرباً وطعناً حتى استشهد غرقاً مفضلاً ميتة كريمة على حياة ذليلة[1].

وهكذا انتهت المأساة، واستولى القشتاليون على غرناطة آخر منارة للإسلام في الغرب، وانتهت بذلك دولة العرب في أوروبا، بعد أن عاشت ثمانية قرون، وغادر السلطان "أبو عبد الله" عاصمته التي سقطت بيد العدو إلى البشرات، وأشرف من تل البذور على غرناطة، وأخذ يسرح نظره في الروع الغالية التي نشأت فيها، وأجهش بالبكاء، فصاحت به أمه "عائشة" التي كانت ترافقه

"أجل: أبكِ مثل النساء ملكاً لم تحافظ عليه مثل الرجال"

فكانت زفرة العربي الأخيرة[2].

وأضحى سقوط الأندلس مصدر إلهام للشعراء العرب الذي رثوها بشعر وجداني قل نظيره في التاريخ[3].

وبالفعل تم تسليم غرناطة إلى النصارى في الثاني لربيع الأول (897هـ/2 يناير 1492م)، وذهب "أبو عبد الله محمد بن علي النصري" سلطان غرناطة السابق إلى المغرب وهو يتحسر على ملكه وسوء تصرفه، ونزل بميناء مليلة شمال المغرب، ثم اتجه إلى فاس حيث كان يعيش بها هو وأبناؤه على سؤال المحسنين[4].

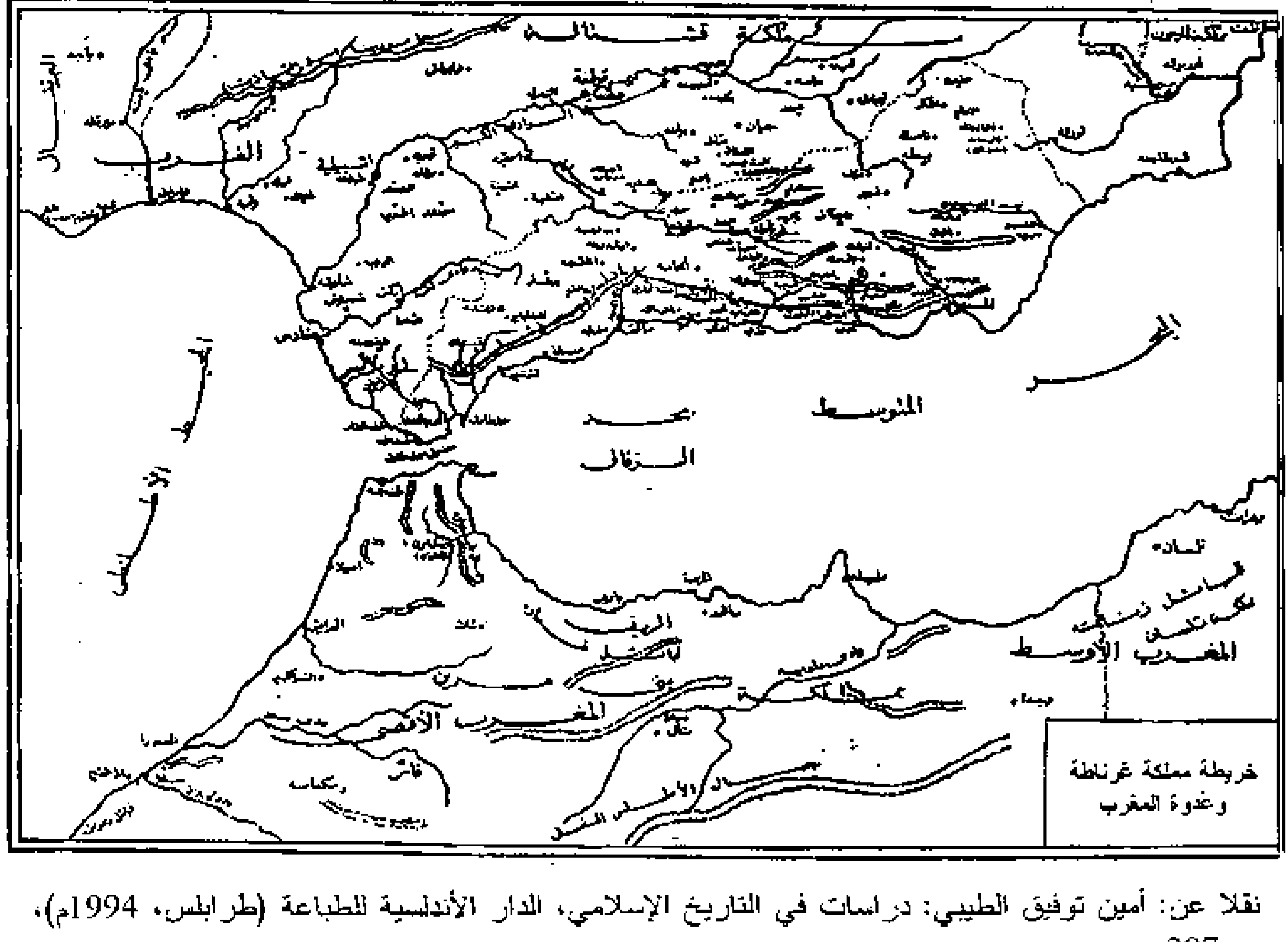
---

(1) محمد عبد الله عنان: المرجع نفسه، ص180. كذلك مؤلف مجهول: خلاصة العصر، ص50.

(2) محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، ص264. كذلك سعدون نصر الله: المرجع السابق، ص399.

(3) السلاوي: الاستقصاء، 104/4.

(4) المقري: نفح الطيب، 278/6. كذلك عبد الحميد العبادي: المرجع السابق، ص181، علي الشطشاط: نهاية الوجود العربي في الأندلس، ص67.



نقلا عن: أمين توفيق الطيبي: دراسات في التاريخ الإسلامي، الدار الأندلسية للطباعة (طرابلس، 1994م)، ص297.

الفصل الثالث
المسلمون بعد سقوط غرناطة
"الموريسكيون"

أولاً: نقض الشروط وحركة إزالة الإسلام من الأندلس:
1- مرحلة الاضطهاد.
2- ضياع التراث.

ثانياً: انتفاضات وثورات الموريسكيين:
1- انتفاضة البيازين عام (904هـ/1499م).
2- ثورة البشرات عام (906هـ/1501م).

ثالثاً: الموريسكيون بين المواجهة ورفض الاندماج:
1- الموريسكيون ومحاكم التفتيش.
2- استغاثات موريسكية لطلب النجدة من المسلمين.

رابعاً: تطور القضية الموريسكية:
1- الموريسكيون والأتراك.
2- الموريسكيون في عهد فيليب الثاني.

المسلمون بعد سقوط غرناطة

"الموريسكيون"

أولاً: نقض الشروط وحركة إزالة الإسلام من الأندلس:

لم تنته مصيبة المسلمين في الأندلس بزوال سلطانهم السياسي، ورحيلهم إلى المغرب، بل حلّت بهم مصيبة أكبر، حيث نقض الملكان الكاثوليكيان العهد، ووضعا خطة إبادة للمسلمين الباقين في الأندلس، لعقيدتهم الدينية، فشُكلت محاكم التفتيش التي تتعقب من يؤدي شعائر الإسلام بأية صورة، فكان من جراء ذلك أن أظهر عدد من المسلمين المسيحية وأبطنوا الإسلام، وأُطلق على هؤلاء اسم (الموريسكيون)[1] (Los Moriscos) أي المسلمون الصغار، وبقي هؤلاء يقاومون الاضطهاد ما يزيد على القرن من الزمن دفاعاً عن عقيدتهم وكيانهم[2].

وأول ظاهرة ملفتة للنظر بعد رحيل السلطان "أبي عبد الله الصغير" إلى عدوة المغرب، بدا مسلمون الأندلس بالهجرة من الأندلس إلى المغرب، كما جاء في شروط التسليم التي سهلت لهم هذه المهمة وهي: أن الملكين الإسبانيين ملزمان بتوفير السفن لنقل مسلمي الأندلس إلى المغرب مجاناً ولمدة ثلاث سنوات[3]، وبعدها يدفع من يريد

---

(1) الموريسكيون: هم أولئك المسلمين الذين عاشوا في الأندلس بعد استرداد شبه الجزيرة الإيبرية بالكامل (عام 897هـ/1492م) والذين أجبروا على اعتناق المسيحية – لرنوال. مرثيديس غارثيا: الموريسكيون الأندلسيون، ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة (القاهرة، 2003)، ص27، هامش (1).

(2) المقري: أزهار الرياض، 1/68-69. كذلك مؤلف مجهول: نبذة العصر، ص44، الحجي: التاريخ الأندلسي، ص570-571، علي الشطشاط: نهاية الوجود العربي في الأندلس، ص97، محمد عنان: "قصة كاتب موريسكي" مجلة العربي، العدد 131، ص52، محمد عنان: "دستور بلد الموريسكيين" مجلة العربي، العدد 156، ص138.

(3) السامرائي، خليل إبراهيم وآخرون: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1 (بنغازي، 2000)، ص304.

العبور روبلاً واحداً عن كل شخص (الروبل عملة ذهبية إسبانية قديمة تساوي عشر بزيتات"[1] (المادة السابعة من المعاهدة). فأول من هاجر أهل مالقة الذين نزحوا إلى باديس[2]، وخرج أهل المرية[3] ونزلوا مدينة تلمسان، ونزل أهل الجزيرة الخضراء في طنجة، واستقل أهل رندة وبسطة وحصن مرتيل في تطوان وأحوازها وهاجر أهل دانية إلى تونس والقيروان والجزائر، وخرج أهل لوشة وبعض سكان غرناطة وأهل مرشانة وسكنوا بين مضارب قبيلة غمارة، ونزل أهل برجة وأندرش ما بين طنجة وتطوان، ونزل أهل مدينة شريش وبليش مدينة سلا بالمغرب الأقصى، وخرج ما بقي من أهل غرناطة ونزلوا بجاية ووهران وسوسة وصفاقس وقابس، وخرج أهل القلعة إلى مدينة أغادير[4]، وهناك آخرون من سكان الأندلس استقروا في الإسكندرية وغيرها من مدن المشرق[5].

لقد صدرت الأوامر بتعميم مضمون معاهدة التسليم على الأمراء والوزراء والقادة والرهبان والرعية، وأصدر مرسوم يهدد كل من يجرؤ على المساس بما تضمنته هذه المعاهدة. وقد ذيل هذا التوكيد بتوقيع الملكين وتوقيع نجلهما الأمير، وحشدُ

---

(1) خليل السامرائي: المرجع السابق، ص304.

(2) باديس: مدينة ساحلية تقع في شمال المغرب، اندثرت ويقع مقابلها جزيرة صغيرة باسمها = خليل السامرائي: المرجع السابق، ص304.

(3) المرية: تقع مدينة المرية على الساحل الجنوبي الشرقي لجزيرة الأندلس، واتخذها العرب رباطاً بعد دخولهم الأندلس، ثم أصبحت بعد ذلك من المدن الكبيرة المتقنة البناء، تقع على جبل محاط بسور منيع، لا يرقى إليها إلا بمشقة = ابن الدلائي، أحمد بن عمر بن أنس العذري: ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، والبستان في غرائب البلدان، والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق: عبد العزيز الأهواني، معهد الدراسات الإسلامية (مدريد، 1965م)، ص86.

(4) حتاملة، محمد عبده: محنة مسلمي الأندلس، مطابع دار الشعب، ط 1 (عمان، 1977)، ص75، 76. كذلك محمد عنان: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، ص311، خليل السامرائي: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص305.

(5) Lafuente Alcantars (D. Miguel), Historia de Granada, 1846, Tomo IV, pag 133.

كبيرٌ من الأمراء وأشراف الدولة وأحبارهــا[1]. وأدى الملــك فردينانــد[2] والملكــة إيزابيلا[3] وسائر من حرروا الشروط القسم بدينهم وأعراضهم، أن يصونوا المعاهــدة إلى الأبد، وعلى الصورة التي انتهت إليها[4].

ومن خلال شروط المعاهدة يتبين لنا بأنها كفلت للمــسلمين حــريتهم ولغــتهم وشعائرهم الدينية وعاداتهم وتقاليدهم، باستثناء حمل الأسلحة[5].

ولكن الذي يبدو أن الملكين الأسبانيين لم يكونا صادقين فعلاً، حيث بدأ تعصبهما ونقضهما للمواثيق منذ دخولهم غرناطة (في الثاني لربيــع الأول 897هــــ/2 ينــاير

(1) خليل السامرائي: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص305.

(2) فردينانـد: ولد فرديناند الكاثوليكي، في أرغون، في العاشر من مارس عام 1452م في قريــة (ســوس) من أعمال مدينة بنبلونه وكان أبوه هو الملك خوان الأول، ملك نبرة الذي عُرف فيما بعد بالملك خوان الثاني ملك أرغون. وقد ولد فرديناند من زوجة خوان الثانية، خوانا انريكث ابنة أميــر بحــر قــشتالة ضون فدريكو، كان فرديناند ملكاً لأرغون من سنة 1479 إلى 1516م وملكاً على صقلية مــن 1468 إلى 1516م وملكاً لنابولي من عام 1504م إلى 1516م وملكاً لقشتالة من عام 1474 إلى 1504م، وقد نودي به ليحكم في أرغون وقطلونية عندما كان حاكماً لقشتالة، وتزوج من إيسابيلا الأولى ملك قشتالة عام 1474م وقاد الحرب ضد مسلمي غرناطة حتى تسليمها عام 1492م - للمزيد من حيــاة فردينانــد الكاثوليكي وأعماله يُنظر:

Andrés Bernaldez: Memorias del Reinado de los Reyes catolicos publicado por la Real Academia de la historia 1.962. capt. VIII, pags 24-25.

(3) إيزابيلا: ولدت إيزابيلا الكاثوليكية في مدريغال دي التاس تورس، في الثاني والعشرين من إبريل عــام 1451م. كانت ابنة الملك خوان الثاني، ملك قشتالة، وحفيدة ضون انريكي الثالــث الملقــب بالطيــب، وكانت أمها إيسابيلا البرتغالية، وقد تزوجت من ضون فرديناند، أمير أرغون في الثــامن عــشر مــن سبتمبر عام 1469م، في بلد الوليد. عرفا بأميري قشتالة، حتى توفي أخوهــا أنريكــي الرابــع، عــام 1474م فصارا يعرفان منذئذ بملكي قشتالة وأرغون. للمزيد عن حياة إيزابيلا وأعمالها ينظر:

Lucio Marineo Siculo: Vida y he chos de Lo Reyes Católicos. Madrid I. 943 pags 24-28.

(4) محمد عنان: نهاية الأندلس، ص311. كذلك خليل السامرائي: تاريخ العرب وحضارتهم في الأنــدلس، ص305.

(5) محمد حتاملة: محنة مسلمي الأندلس، ص76. كذلك محمد عنان: نهايــة الأنــدلس وتــاريخ العــرب المتنصرين، ص311.

1492م)، إذ صدرت الأوامر بإحراق كميات كبيرة من الكتب العربية، لكي يسهل على الأسبان إبعاد المسلمين عن مصادر عقيدتهم ومن ثم القضاء عليهم بسرعة[1].

ومن أول الخطوات التي رسمتها الملكة إيزابيلا المتعصبة من أجل تنفيذ سياسة التنصير القصري للمسلمين، أنها اعتمدت على مجموعة من الأحبار والرهبان، ومنحتهم مناصب في البلاط الملكي، فكان من أخطرهم الأب "خمنيس"[2] مطران طليطلة.

وإذ كانت الممالك الأسبانية قد اضطهدت المدجنيين (المسلمين الذين ظلوا على دينهم) خلال استردادها القواعد الأندلسية قبل سقوط غرناطة، إلا أنه بعد السقوط أصبح الأمر أكثر خطورة فحُرموا من حمل السلاح، وفُرضت عليهم الضرائب الفادحة خلال الفترة ما بين (900-904هـ/1495-1499م)، دون غيرهم من السكان[3].

منذ اللحظة الأولى لدخول الأسبان غرناطة، تم توزيع مساحات شاسعة من الأراضي على النبلاء الأسبان، فأصبح ملاكوها المسلمون أتباعاً للنبلاء هؤلاء. وفي عام 903هـ/1498م أجريت عملية عزل العناصر الإسلامية عن المجتمع الأسباني، ووضعوا في أماكن معينة، ليسهل السيطرة عليهم والقضاء عليهم في حال الثورة[4].

---

(1) محمد عنان: المرجع السابق، ص316. أو عنان: تراث الأندلس الفكري، مجلة العربي، العدد 99، ص106.

(2) الأب خمنيس: هو الراهب خمنيس دي سيسنيروس، ولد عام 1436م في توري لاغونا، وكان رئيساً لكهنة أونيدا، أيام المطران ضون الونسو كاريو، ومسؤول كاتدرائية سيغوينثا، وبعدها التحق في نظام رهبنة القديس فرنسيسكو وباشر في إجراء إصلاحات واسعة في هذا النظام الفرنسيسكي، بإرشاد من البابا الاكسندر السادس وفي عام 1492م، عين مشرفاً روحياً للملكة إيسابيلا الكاثوليكية، ثم انتخب مطراناً لطليطلة، بعد وفاة الضون بيدرو غونثالث دي ميندوثا. للمزيد عن حياة الأب خمنيس وأعماله ينظر:

C. Perez Bustamante: Compendio de historia de Espana, 5 ediction, Madrid 1952, cap XXV, pag 204.

(3) خليل السامرائي: تاريخ العرب حضارتهم في الأندلس، ص305.

(4) محمد حتاملة: التنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين (1474-1516م)، دار مطابع الشعب، ط1 (عمان، 1980) ص65.

كانت هذه السياسة التعسفية التي رافقها إحراق "خمنيس" للكتب العربية وجعلها أثراً بعد عين أن تأججت نار الثورة بين المسلمين، وفي الوقت نفسه عُين الأب "خمنيس" رئيساً لديوان مجمع قضاة الإيمان الكاثوليكي[1] (محاكم التفتيش)، التي تأسست في إسبانيا منذ (القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي)[2]. ولقد أقام الملكان الكاثوليكيان محاكم التفتيش في إشبيلية عام (885هـ/1480م) وفي جميع المدن الأندلسية التي سيطروا عليها، وكانت هذه المحاكم سلاحاً فتاكاً بيد الكنيسة تسحق به كل من لم يذعن لأوامرها[3].

1- مرحلة الاضطهاد:

دارت مصطلحات ثلاثة مهمة في كتابات الدارسين لتاريخ العرب في الأندلس ويبدو أن السياق التاريخي والثقافي هو الذي كان يحدد معنى هذه المصطلحات ويعطيها بُعدها الثقافي والحضاري وصفتها الدّالة عليها زماناً ومكاناً[4]، إذ تتصل هذه المصطلحات الثلاثة بطبيعة العلاقة في الأندلس بين العناصر السكانية والثقافية المكونة

---

(1) مجمع قضاة الإيمان الكاثوليكي: أقيم مجمع قضاة الإيمان الكاثوليكي أو محاكم التفتيش في القرن الثالث عشر الميلادي، وذلك تلبية لحاجات الكنيسة الكاثوليكية، لتحمي نفسها من الديانات الأخرى. ولقد تولى هذه المؤسسة الآباء الدومينيكان، وامتدت في نواحي كثيرة من أوربا. وفي أسبانيا أقامها سان دومنيغودي غوثمان ضد ملحدي البي، وتعممت في بدايتها في أرغون، وأقام الملكان الكاثوليكيان ديوان مجمع قضاة الإيمان الكاثوليكي، أو محاكم التفتيش ثانية عام 1480م في أشبيلية، وفي عام 1482م صدر تصريح بإقامتهما في مملكتي قشتالة وأرغون، وفي عام 1483م عين البابا سيكستو الرابع، الأب توماس دي توركيمادا، أول رئيس عام لديوان مجمع قضاة الإيمان الكاثوليكي. للمزيد حول ديوان مجمع قضاة الإيمان الكاثوليكي ينظر:

Ortiy Lara (Juan Manuel): La Inquisicion Madrid, 1877.

(2) عبد العظيم رمضان: محاكم التفتيش، مجلة العربي، العدد 258، ص48.

(3) محمد حتاملة: التنصير القسري، ص66-68. كذلك محمد عنان: نهاية الأندلس، ص323، 329.

(4) خطاب، محمد الطيب: الموريسكيون الأندلسيون، (مرحلة الاضطهاد وضياع التراث)، مجلة تراث الشعب، العددان 1-2 (مسلسل 52-53) (طرابلس، 2005) ص91.

لها عبر المراحل التاريخية المختلفة، فقد أطلق لفظ المستعربين (Mozarabes) علـى الأسبان المسيحيين الذين ظلوا يعيشون في كنف الدولة الإسلامية وتحت رعايتها محافظين على تراثهم الفكري والمادي وإن صبغتهم صبغة الحضارة الإسلامية على كل حال وتكلموا اللغة العربية[1] وهو أمر سرى على معظم الأقليات الدينية التي عاشت في رحاب الدول الإسلامية منذ تكونها واتساعها[2].

وكان هؤلاء المستعربون في الأندلس بطبيعة الحال، يعيشون في ظل سماحة الإسلام، وشرائع أهل الذمة التي كانت تنبع أساساً من الفقه الإسلامي، والتي حفظت لهم حقوقهم، وحددت لهم حياتهم في ظل هذا المجتمع الجديد، ووفرت لهم الأمن والأمان كمواطنين فيه[3].

أما كلمة (مدجَّن)[4] المستخدمة في العصور الوسطى (Mudejares) فتُطلق على العرب المسلمين الذين آثروا البقاء في بلادهم الإسلامية بعد استيلاء الأسبان المسيحيين عليها، وعاشوا في هذه الديار يحتفظون بدينهم ولغتهم وحقوقهم كمسلمين وفق معاهدات وقعت بين الطرفين في كل مدينة استعادها المسيحيون إثر حركة الاسترداد الواسعة التي بدأتها القوى المسيحية بعد تفتت الأندلس، وانفراط وحدتها وضعف قواها وتهاون شأنها، حتى إنه لم يأت منتصف القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي حتى كانت معظم بسائط الأندلس، وقلاعها الكبرى قد سقطت في يد العدو المسيحي[5]، وشالت إثرها كفة المسلمين ورجح جانب الكاثوليك، وانزوى الإسلام والمسلمون في الطرف الجنوبي من شبه الجزيرة الأندلسية، فيما عُرف بمملكة غرناطة

---

(1) الغزيوي، علي: أدب السياسة والحرب في الأندلس، مكتبة المعارف، (الرباط، 1987)، ص75.

(2) المرجع نفسه، ص75.

(3) محمد خطاب: الموريسكيون الأندلسيون، مجلة تراث الشعب، ص91.

(4) (مدجَّن): جمعها المدجنون وهم المسلمون الذين ظلوا على دينهم بين الأسبان قبل سقوط غرناطة. وانتهى الأمر بهم إلى مصير الأندلسيين الموريسكيين نفسه = محمد حتاملة: التنصير القسري لمسلمي الأندلس، ص63، هامش (1).

(5) محمد حتاملة: محنة مسلمي الأندلس، ص23.

التي صارت مقصداً وملاذاً لكل المسلمين الفارين من المدن والقلاع المستردة في أنحاء الأندلس[1].

وهذا اللفظ ربما أطلقه المسلمون على إخوانهم الذين بقوا في الأندلس بعد استيلاء النصارى عليها، وهو مشتق من الفعل دجن بمعنى أقام وخضع، ثم شاع استعمال هذين اللفظين (مستعرب، مدجن) في كتابات المؤرخين المسيحيين في بلاد المسلمين[2]، ثم في كتاباتهم في بلادهم، كلما اتسع المد المسيحي في الأندلس وتقهقر الوجود العربي بها، وصارت المعاهدات والمواثيق الموقعة بين الطرفين، التي تحفظ للمسلمين حقوقهم الدينية والإنسانية تُداس بالأقدام، ويتنصل منها بمرور السنين وتوالي الأيام، ووجود هؤلاء المدجنون أنفسهم بعد فترة قصيرة يعيشون في بيئة غريبة عنهم، ويحيط بهم مجتمع معادٍ لهم، وصار حبل الاضطهاد يزداد ضيقاً حول رقابهم يوماً بعد يوم[3]. فبقي لفظ (Mudejares) في كتابات المؤرخين العرب نقلاً عن الأسبان، واحتفظ بمعناه ودلالته، ثم اختفى أصله العربي باندثار اللّغة العربية في أسبانيا المسيحية، بعد أن تطاولت السنون بالعرب الباقين بها، وأجبرتهم ظروف الصراع المرير والاضطهاد المتزايد والمستمر، بعد سقوط غرناطة آخر ما بقي للمسلمين بالأندلس وما تلاه من حوادث، على نسيان لغتهم العربية[4].

ولفظ الموريسكيون (Moriscos) الذي أُطلق على هؤلاء المدجنين في مرحلة تالية، وصار يدل على من بقي من المسلمين في الأندلس بعد سقوط غرناطة، آخر معاقل المسلمين بها في يد الملكين الكاثوليكيين (فرديناند، وإيزابيلا عام 897هـ/1492م) سواء ممن اعتنق الدين المسيحي الكاثوليكي كرهاً أم بقي على

(1) محمد حتاملة، المرجع السابق، ص24.

(2) علي الغزيوي: أدب السياسة والحرب في الأندلس، ص76.

(3) المرجع نفسه، ص76.

(4) مؤنس، حسين: مقدمة كتيب (أسنى المتاجر، في بيان أحكام من غلب وطنه النصارى ولم يهاجر) مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد الخامس، 1975م، ص140-141.

دينه[1] والذين عانوا مرحلة الصراع الأخير منذ سقوط غرناطة، حتى تم طرد بقاياهم عام 1020هـ/1610م)[2]، وتهجيرهم خارج الأندلس، بعد أن عجزت الوسائل المختلفة التي أوجدتها محاكم التفتيش في قطع الصلة بينهم وبين ماضيهم ولغتهم ودينهم، حتى وإن بدت هذه الصلة في مرحلتها الأخيرة، ضعيفة واهنة، وتحول هذا الميراث الحضاري الضخم إلى حفنة من الآثار الفلكلورية والبقايا الأنثروبولوجية لشعب اختفى تحت الأرض وخضع لسطوة القهر، واكتفى بأضعف الإيمان، جراء التنصير القسري، والاضطهاد المستمر الذي تعرض له.

وكان على قمة عملهم الوحشي هذا حرق الكتب العربية، التي جُمعت من أهالي غرناطة وأرباضها، ثم صفت أكواماً في ميدان باب الرملة أعظم ساحات المدينة، ومنها الكثير من المصاحف المزخرفة البديعة وآلاف الكتب في العلوم والآداب، وأُضرمت فيها النيران، ولم ينج منها سوى ثلاثمائة من كتب الطب والعلوم الطبيعية حُملت إلى الجامعة التي أنشأها في قلعة عبد السلام كما تسميها المراجع العربية حينئذ أو الكالادي ايناريس (al cala dehenares) كما تسمى في المراجع الأجنبية[3].

وقد بلغ ما أحرق من الكتب يومئذ في أقل تقدير، مائة وخمسين ألف كتاب وقد وصف المؤرخ الأمريكي (بريسكوت) هذا العمل بقوله "إن العمل المحزن لم يقم به همجي جاهل، وإنما حبر مثقف، وقد وقع لا في ظلام العصور الوسطى ولكن في فجر القرن السادس عشر، وفي قلب أمة مستنيرة تدين إلى أعظم حد بتقدمها إلى خزائن الحكمة العربية ذاتها"[4].

---

(1) كارديلاك، لوي: الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون، ترجمة عبد الجليل التميمي، ديوان المطبوعات الجزائرية (الجزائر، د.ت) ص93.

(2) المرجع نفسه، ص94.

(3) W. H. Prescott: History of the reign of Ferdinand and Isabella the catholic, p. 453.

(4) Pressott, op. cit., p. 454-455.

وقد تكرر هذا العمل ذاته وبأساليب متنوعة في باقي المدن والبلدان الأندلسية وبأساليب متنوعة ومختلفة من الوعد والوعيد والإغراء والإكراه، كما تكررت وتجددت أوامر الملكين الكاثوليكيين التي تدعو السكان إلى وجوب تسليم الكتب العربية أياً كان موضوعها، وإلا تعرضوا لأقسى العقوبات، وهي قوانين كان هدفها محو شخصية الموريسكيين الإسلامية وتجريد من بقي منهم في الأندلس من جميع مظاهر انتمائه الديني والثقافي[1]. ومنها تلك القوانين التي صدرت منذ عام (932هـ/1526م)، وتنص على إجبار الموريسكيين على الحديث باللغة القشتالية التي صارت فيما بعد لغة أسبانيا كلها في مدة ثلاثة أعوام[2]، وتحريم القراءة والكتابة باللغة العربية سراً وعلانية، وبطلان العقود المكتوبة بها، ووجوب التسليم الفوري لجميع الكتب العربية لمحاكم التفتيش في غرناطة[3]، وتحريم تفصيل الثياب الموريسكية الجديدة، كما يُحظر على النساء لبس الملحفة العربية، وحظر عليهن أيضاً تغطية وجوههن على الطريقة العربية، وتحريم شعائر الاحتفالات والطقوس الإسلامية في الميلاد والزواج والوفاة، وترك الأبواب مفتوحة أيام الجمع والأعياد وخلال حفلات الزفاف، لمراقبة ما يدور داخلها، ويُحرم إطلاق الأسماء العربية على المواليد الجدد، كما يحرم استخدام الحمامات العربية، ويتم هدمها فوراً[4].

وهذه القوانين تجاوز هدفها وغايتها الأمور المتصلة بالعقيدة، إلى استئصال الجذور الثقافية للشخصية الموريسكية بالتدخل السافر في حياتها، وشؤونها الخاصة، يقول "فون شاك" عن هذا التعصب والحقد: "ويبدو سلوك المسيحيين أكثر وضوحاً في وحشيته وأشد إثارة للغيظ، حين نتأمل أنهم أنفسهم تمتعوا دائماً تقريباً تحت الحكم

---

(1) عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس، ص182. كذلك علي المنطشاط: نهاية الوجود العربي في الأندلس، ص97.

(2) محمد خطاب: الموريسكيون الأندلسيون، مجلة تراث الشعب، ص93.

(3) محمد عنان: نهاية الأندلس، ص344-345.

(4) المرجع نفسه، ص346.

الإسلامي بكل حريتهم الدينية، ولم يحدث أبداً أنهم عانوا الملاحقة أو التضييق"[1].

ومع شدة الوسائل وبطشها، فإنها لم تنجح أبداً في القضاء على الشخصية الموريسكية، فقد وصف "المطران جريرو" مجتمع الموريسكيين عام (973هـ/1565م) بقوله: "إنهم خضعوا في الظاهر للتنصير، ولكنهم لبثوا كفرة في سرائرهم حسب رأيه (أي مسلمين)، وهم يذهبون إلى القداس تفادياً للعقاب ويعملون خفية في أيام الأعياد ويحتفلون بيوم الجمعة أفضل من احتفالاتهم بيوم الأحد، ويستحمون حتى في ديسمبر، ويقيمون الصلاة خفية ويقدمون أولادهم للتعميد ثم يغسلونهم في البيوت لمحو آثار التنصير ويجرون ختانهم ويطلقون عليهم الأسماء العربية، وتذهب عرائسهم إلى الكنائس في ثياب أوروبية فإن عُدن إلى المنزل استبدلنها بثياب عربية، ويحتفل بالزواج طبقاً للمراسم الإسلامية[2].

إن الدارس لتاريخ هذا العصر الطويل الرهيب من الوثائق الباقية من آثار محاكم التفتيش الأسبانية، وما عُثر عليه من كتابات آثار موريسكية يُدرك أنه رغم المحنة القاسية التي عاشها هؤلاء الموريسكيون، فقد حافظوا جهد طاقتهم على أدق التفاصيل الإسلامية في الآداب والسلوك وفي اللحظات الحاسمة للحياة ميلاد وزفاف وموت[3]، ربما كان أفضل من المجتمعات الإسلامية المعاصرة لهم خارج الأندلس، وذلك كنوع من رد الفعل ضد عمليات التنصير القسري، ومواجهة التحدي، التي أدت إلى بروز إرادة الموريسكيين الجماعية، حفاظاً على مقوماتهم الشخصية المهددة مما

---

(1) شاك، فون الفن العربي في أسبانيا وصقلية، ترجمة الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، ط2 (القاهرة، 1985م)، ص128.

(2) لوي كارديلاك: المرجع السابق، ص94-95. كذلك محمد عنان: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، ص324.

(3) AVALLE-ARCE (Juan Bautista): Bernal Francésy y su romance. Armario de Estudios Medievales III, Barcelona I 966 pags, 374-375.

جعل القسس يعترفون باستحالة خروج هؤلاء الموريسكيين حقيقة عن الإسلام، وكانت تهمتهم دائماً أمام محاكم التفتيش (إخفاء معتقداتهم بفن وخبث)[1].

لقد كان لدى الموريسكيين إحساس عميق بأنهم ينتمون إلى مجتمع مختلف تماماً عن المجتمع الذي يُراد دمجهم فيه، فهو ليس فقط من عالم مغاير، ولكن أيضاً في الطرف المقابل، وهذا الإحساس بالانتماء للطرف المقابل كان أكثر قوة في السنين التي سبقت طردهم النهائي عام (1020هـ/1610م)[2].

لقد وجدت هذه الأقلية المسلمة، بعد أن جربت كل الوسائل الأخرى ومنها الثورات المسلحة المتعددة في مبدأ التقية والكتمان سلاحاً مهماً تستطيع به مواجهة القوى المسيحية الغاشمة، والممارسات القمعية لمحاكم التفتيش، وهو مبدأ لا يمكن أن يشوه حقيقة العقيدة الإسلامية، وأجازته الشريعة الإسلامية لمن يعيشون في دار الحرب من المسلمين، وذلك وفقاً للآية الكريمة قال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[3]. يقول "لوي كارديلاك": "ولقد لعب مبدأ التقية والكتمان دوراً مهماً في قدرة الموريسكيين على ممارسة شعائرهم الدينية سراً، وأداء أوامر الكنيسة الكاثوليكية وكأنها التزامات اجتماعية عادية إذ إن ذلك هو أملهم الوحيد للحفاظ على حياتهم في هذا الوسط المسيحي المتعصب"[4].

---

(1) لوي كارديلاك: المرجع السابق، ص91-94.

(2) المرجع السابق، ص94.

(3) سورة النحل، الآية 106.

(4) لوي كارديلاك: المرجع السابق، ص81-82.

2- ضياع التراث:

أ - اللّغة الموريسكية:

فطنت السياسة الإسبانية، منذ الوهلة الأولى، إلى أهمية اللّغة في تدعيم الـرُوح القومية، فعملت على سحق العربية ومحو كل آثارها، فصدر في عهد الملك "شارلكان" عام (932هـ/1526م)، أول قانون يُحرم على الموريسكيين التخاطب بالعربية[1]، وكانت العربية حتى ذلك الوقت لغة التخاطب والتعامل في مجتمع الموريسكيين كله في أنحاء الأندلس، ثم صدر قانوناً آخر في عهد الملك "فيليب الثاني" عام (974هـ/1566م)[2] يُحرم بصورة صارمة على المجتمع الموريسكي، استخدام اللّغة العربية ويفرض استخدام اللّغة القشتالية كتابةً وحديثاً، وطبق هذا القانون بمنتهى الشدة، ومن ثم أخذت العربية تغيض شيئاً فشيئاً، جراء الاضطهاد والتعسف المستمرين، فكان هذا القانون ضربة قاضية لمظاهر العربية الباقية، وظهر ذلك في الكتابات التي وجدت لذلك العصر، حيث صورت مدى الانحلال الذي انتهت إليه اللّغة العربية، فصاروا يكتبون اللغة القشتالية بحروف عربية سراً، ووجد الموريسكيون في هذا الاستعمال متنافساً بعد أن حُرِمَ عليهم استخدام اللّغة العربية في الكتابة والتخاطب[3].

ومع مضي الوقت ظهرت لغة جديدة اشتقت من هذه القشتالية اختلطت بها ألفاظ عربية وأعجمية من اللهجات القديمة والمعاصرة، وخاصة لغة المستعربين التي كانت معروفة ومنتشرة أيام الدولة الإسلامية، وتحديداً في الحواضر والمدن الكبرى، التي كانت تقيم فيها طوائف من النصارى المستعربين، وكانت تُعرف لدى المسلمين

(1) محمود خطاب: الموريسكيون الأندلسيون، مجلة تراث الشعب، ص95.

(2) المرجع نفسه، ص96.

(3) هارفي، ليونارد باتريك: تاريخ الموريسكيون السياسي والاجتماعي والثقافي (دراسة في كتابة الحضارة العربية في الأندلس التي أشرفت على إعدادها سلمى الخضراء الجيمي)، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1 (بيروت، 1998)، ص91.

باللطينية[1] (أي اللاتينية) فقد تسربت كثير من ألفاظ اللّغة الرومانية والقشتالية إلى عامية أهل الأندلس، ومن ثم استفاد منها الموريسكيون، حيث حُرِّم عليهم استخدام لغتهم العربية، التي أُطلق عليها (الالخميادو)، وهي اللّغة الرومانية المكتوبة بحروف عربية[2].

وقد اكتشف العلماء الأسبان بعض مخطوطاتها في القرون الأخيرة وكتب بها الموريسكيون العديد من آثارهم؛ كسيرة المصطفى – صلى الله عليه وسلم، وقصص الأنبياء وبعض كُتب الفقه، والتفسير، مع كتابة البسملة دائماً باللّغة العربية[3].

فإذا كانت مرحلة ما قبل طرد الموريسكيين النهائية، قد شملت القرن السادس عشر كله وكانت أسبانيا مسرحاً لها فإن صلة هؤلاء الموريسكيين بثقافتهم وبتراثهم وبكتابتهم العربية قد بدت في المرحلة الأخيرة واهنة ضعيفة، حيث ظهر في كتاباتهم وفي عقودهم الاجتماعية مثلاً تحريف الكتابة وأخطاء في كتابة بعض آيات القرآن الكريم، وكلها غير مقصودة، كإبدال وإحلال بعض الحروف مكان بعضها[4]: الرياصة من الرياسة، ودنار بدلاً من دينار ... إلى غير ذلك من الأخطاء اللّغوية والكتابية التي تظهر في عهد وكتابات ذلك القرن، ومما يشير إلى مدى تدهور لغة الموريسكيين المحفوظة في صدور فقهائهم، وعلمائهم، شفاهاً في نهاية القرن السادس عشر، وضعف مراسلهم في كتابتها واختلاط العاميات الدارجة معها، وما يلاحظ في كتاب الكتاب في الصلاة والأدعية، الذي تدل عباراته الختامية على أن اللّغة العربية رغم تدهورها وضعفها مازالت تدرس ويكتب بها[5]، ثم الخلط في الكتابة بين العربية واللاتينية، ثم

---

(1) ابن حزم أبو محمد علي بن أحمد: جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، (القاهرة، 1971م)، ص145.

(2) المصدر نفسه، ص146.

(3) محمد عنان: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، ص498.

(4) المرجع نفسه، ص499.

(5) المرجع نفسه، ص500.

المرحلة الأخيرة مرحلة (الألخميادو)، وهي كتابة عربية بحروف لاتينية، حين عجزوا عن التواصل مع لغتهم والكتابة بها[1].

وهذا التدهور في المستوى الكتابي واللغوي للموريسكيين، هو ما يراه مؤرخو الحضارة، بداية التدهور والانحلال الثقافي والحضاري والاجتماعي والاقتصادي لمجتمع الموريسكيين الذي ستكون آثاره ونتائجه مدمرة على المجتمع الأسباني، إثر إخراجهم من الأندلس في بداية القرن السابع عشر الميلادي[2].

ب) الأدب الموريسكي:

بذل الموريسكيون غاية ما يستطيعون من جهد في الاحتفاظ بتراثهم رغم المخاطر الكثيرة التي كانت تترصدهم، وحاولوا إخفاء ما يُمكّنهم منه ما وسعتهم الحيلة[3]، ويتضح ذلك في تجويف جدران بيوتهم، وفي أماكن أخرى داخل سُكناهم، فبعد الطرد بقليل عُثِرَ على الكثير من المخطوطات[4]، التي منها نسخ متعددة من القرآن الكريم وكُتب وأحاديث نبوية، وكُتب في الفقه والتشريع والنظم الاجتماعية الإسلامية، وكُتب في الثقافة والعلوم العامة مخفية في بيوتهم وفي أماكن أخرى في أحيائهم[5].

وقد شمل الأدب الموريسكي رصيداً ضخماً من الأعمال الأدبية، نثراً وشعراً، نالت الاهتمام الكبير والتقدير البالغ من الدارسين الغربيين[6]، الذين بدأوا منذ القرن

---

(1) محمد عنان: نهاية الأندلس، ص500.

(2) المرجع نفسه، ص503.

(3) علي الغزنوي: أدب السياسة والحرب في الأندلس، ص103. كذلك فون شاك: الأدب العربي في أسبانيا وصقلية، ص140.

(4) لوي كارديلاك: الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون، ص50.

(5) محمد خطاب: الموريسكيون الأندلسيون، مجلة تراث الشعب، ص97.

(6) المرجع نفسه، ص97.

التاسع عشر في تحليل ودراسة هذه النصوص، بعد أن سبقتها دراسة وبحوث تاريخية في هذا الشأن[1].

وكان لهذا الأدب الموريسكي الألخميادي الذي لم يصلنا منه إلا القليل، وضاع معظمه في زحام ذلك الصراع الطويل بعد سقوط غرناطة عام (897هـ/1492م)[2]، وحتى طرد الموريسكيين النهائي في بداية القرن السابع عشر، كان لهذا الأدب في شقيه الشعر والنثر في أسلوبه التقليدي، سحره الخاص والمتميز جداً، عبر الشيوع الشعبي له، في روايات مجهولة المؤلف مفتوحة للإضافات المتتالية، التي يؤديها أدباء مجهولون ليس لهم أساليب شخصية متميزة أو محددة[3]، مما أعطى هذا الأدب طابع القطرية والرفعة في آن واحد، دون أن يُفقد ذلك المرونة والقوة التعبيرية، مع البعد عن الممارسات الأسلوبية في التعقيد والصنعة التي تعتري كتابات المثقفين[4].

وكانت البساطة الشديدة هي مركز الجذب الأساسي في كتابات الموريسكيين من ناحية ووفرة رصيدها القصصي والأسطوري، المعتمد على الخيال الشعبي على بساطته وأحلامه من ناحية أخرى[5]، والذي تتبع خلفياته وأصوله من روافد عربية متعددة، عن الإسلام وعن الرسول محمد – صلى الله عليه وسلم – وحياته ومعجزاته ونسبه وجهاده وغزواته[6]، وعن الصحابة رضوان الله عليهم، وجهادهم وشخصياتهم وقصص الأنبياء[7]، وكتابات وأفكار الزهاد من المسلمين الأوائل[8]. وأصول الإسلام

(1) H. Ch. Leay the Moriscos of Spain, 1953, p. 363-364-365.

(2) H. Ch. Leay the Moriscos of Spain, p. 364.

(3) المقري: نفح الطيب، 447/4. كذلك الجراري، عباس: التأثير الموريسكي في الطرب المغربي، سلسلة ندوات، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية (شفشاون، 2000)، ص203.

(4) المرجع نفسه، ص204.

(5) المرجع نفسه، ص207.

(6) المقري: نفح الطيب، 449/4. كذلك عتيق، عبد العزيز: الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، (بيروت، 1976)، ص57-58.

(7) عبد العزيز عتيق: المرجع السابق، ص59-60.

(8) محمد عنان: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، ص498-500.

وقواعده الشرعية والمدائح النبوية مختلطة بكثير من الخرافات والأساطير والغيبيات المفرطة التي ترضي الخيال الشعبي، وتتساق مع أحلام هؤلاء الموريكسيين، لتخفف عنهم ما يعانون من اضطهاد وقهر طال كل جوانب حياتهم[1]، وحال بينهم وبين المنابع الحقيقية لعقيدتهم وتراثهم، فلم يبق إلاّ الخرافات والآمال الكثيرة بعودة ماضيهم، تغطي هذا النقص، وتملأ هذا الفراغ الهائل في حياتهم، وتمدهم بالقوة المعنوية الضرورية، وتستثير القوى الروحية لمقاومة الخطر الماحق بهم، لمواجهة القهر والأستلاب المهيمن في حياتهم[2].

وقد استقوا كل ذلك من التراث الثقافي القديم[3] المستقر في الوجدان الجماعي لبقايا السكان العرب وغيرهم ممن كوانوا النسيج السكاني والثقافي في الأندلس[4]، خاصة أن وظيفة القصاص والرواة، شفاهاً أو كتابة كانت من المنابع الأصلية للثقافة العربية منذ وقت مبكر[5]، وقد ساهم الحكام الأمويون في الأندلس في الاهتمام بتقاليد الرواية والقص منذ أوائل حكمهم[6].

وكان للأندلسيين ولع خاص واهتمام زائد بسير البطولة وأخبار الشجعان، ونال هذا الجانب عناية زائدة عندهم، شفاهة وكتابة[7].

ومن هنا كانت الأهمية الخاصة لهذه النصوص الموريسكية نابعة من تصويرها

---

(1) ينظر: ابن عبد الرفيع الأندلسي، وثيقة من مخطوط الأنوار النبوية، ضمن وثائق الهجرة الأندلسية، نشر عبد المجيد التركي، حوليات الجامعة التونسية، عدد 4 سنة 1967، ص53.

(2) المرجع نفسه، ص45.

(3) المقري: نفح الطيب، 326/6. كذلك أزهار الرياض، ص65-67.

(4) مؤلف مجهول: نبذة العصر، ص65-67.

(5) محمد عنان: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، ص412. كذلك عبد الرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي، ص569.

(6) المرجع نفسه، ص570.

(7) ابن أبي دينار، أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني: المؤنس في أخبار أفريقية وتونس، تحقيق: محمد شمام، المكتبة العتيقة (تونس، 1967م)، ص138.

الفني البسيط للحياة الداخلية والمعتقدات الحميمة لبقايا مسلمين الأندلس[1].

إن الأشعار الموريسكية الشهيرة التي كانت مملكة غرناطة مسرحاً لها في القرن الخامس عشر الميلادي[2]، وخاصة قصر الحمراء، كانت آخر إطلالة للثقافة الأندلسية امتد بها الزمن[3]، بينما الإسلام يرحل من شبه الجزيرة وهي لا تختلف في مصادر إلهامها عن كثير من الأزجال المنتشرة في بعض المدن المغربية والتونسية والجزائرية[4]، حيث لا يزال المغنون المحترفون يحتفظون بجوهر الحكايات العربية الغرناطية سالماً في أواخر العصور الوسطى، بعد أن استقرت بقايا الموريسكيين منذ تهجيرهم القسري من الأندلس هناك[5].

وهكذا عاش جمهور الموريسكيين محنة الاضطهاد والتنصير والطرد، وعانوا مرارتها داخل الأندلس وخارجها، وعبر عنها بوسائله الثقافية المتاحة التي تركت آثارها البعيدة والعميقة في التراث الأندلسي لأجيال متعاقبة، حتى العصر الحديث[6].

ثانياً: انتفاضات وثورات الموريسكيين:

مضت سبع سنوات ثقيلة وأهل غرناطة يحاولون التأقلم مع واقع جديد فرضته سلطات الاحتلال القشتالية، منذ أن رفعت الصليب الفضي فوق برج طلائع قصبة الحمراء في الثاني لربيع الأول سنة 897هـ/2 يناير 1492م[7]، واستولى نبلاء قشتالة

---

(1) ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص139.

(2) المقري: نفح الطيب، 327/6. كذلك أزهار الرياض، ص69.

(3) المقري: نفح الطيب، 328/6.

(4) عباس الجراري: التأثير الموريسكي في الطرب المغربي، ص207.

(5) رزوق، محمد: الأندلسيون وهجرتهم إلى المغرب خلال القرنين (16-17)، منشورات أفريقيا الشرق، (الدار البيضاء، 1998)، ص130.

(6) المرجع نفسه، ص131.

(7) بشتاوي، عادل سعيد: الأندلسيون المواركة دراسة في تاريخ الأندلسيين بعد سقوط غرناطة، منشورات دار أسامة، ط2 (دمشق، 1985)، ص90.

على قسم كبير من أراضي مملكة غرناطة وتحولت المساجد إلى كنائس ومنـــع الأذان والوضوء علناً[1] كـــان "ابرناندو دي تالافيرا"[2] رئيس أسقافة غرناطـــة ومـــن تبعـــه يبذلون كل جهـــد ممكـــن لإقناع الأندلسيين باعتنـــاق النـــصرانية، وقطـــع صـــلاتهم بتاريخهم وحضارتهـــم[3]، وفصلـــت الأندلس عن العدوة المغربية للمرة الأولى منـــذ ثمانية قرون، ودبّ اليـــأس في قلـــوب الأندلسيين بعد أن فقدوا الأمل فـــي الحـــصول على عون أهلهـــم خلـــف الزقـــاق[4] وأخذ القشتاليون يزاحمون أهل غرناطـــة علـــى الأرض أولاً، ثـــم على لقمـــة العيـــش، وأخيـــراً على الدين والتاريخ واللغة، وتردت الأمور من سيـــئ إلـــى أسوأ ومـــن مضايقـــة إلى أخرى، ثم اندلع الغـــضب دفعـــة واحدة[5].

ولخص "مارمول" سياسة الملكين الكاثوليكيين في كتابه حروب غرناطـــة كمـــا يأتي: "... منذ أن استولى فرديناند على غرناطة والأحبار يطلبون إليه بإلحاح أن يعمل على سحق طائفة محمد من أسبانيا، وأن يطلب إلى المسلمين الذين يودون البقاء إمـــا التنصر، أو بيع أملاكهم والعبور إلى المغرب، وإنه ليس فـــي ذلـــك خـــرق للعهـــود المقطوعة لهم، بل فيه إنقاذ لأرواحهم، وحفظ لسلام المملكة، لأنه مـــن المـــستحيل أن يعيش المسلمون في صفاء وسلام مع النصارى، أو يحافظون على ولائهم للملوك مـــا بقوا على الإسلام ..."[6].

---

(1) بشتاوي: المرجع السابق، ص90. كذلك محمد حتاملة: التنصير القسري لمسلمي الأندلس، ص59.

(2) ابرناندو دي تالافيرا (1428-1507م) ولد في تالافيرا، وهي مدينة تابعة لطليطلة راهب من رهبـــان سان خير ونيمو، اشتهر بلطفه وتدينه، واستدعاه الملكان الكاثوليكيان عندما سمعا عنه وجعلاه مـــودع أسرارهما، ورفعاه إلى مرتبة أسقف ابله، وعيناه مطران غرناطة الأول -

Marmol Carvajal (Luis del): Historia de La rebelion y castigo de los Moriscos del Reinode Granada Madrid 1797, Tomo 1, Libro 1, Capt XXI, pag 105.

(3) محمد حتاملة: التنصير القسري لمسلمي الأندلس، ص60.

(4) عادل بشتاوي: الأندلسيون المواركة، ص90.

(5) المرجع نفسه، ص90.

(6) Rebelion y castigo de Los Moriscos de Granada, p. 147.

وقد كانت أداة تنفيذ هذه السياسة الكاردينال "خمنيس" مطران طليطلة ورأس الكنيسة الإسبانية[1] و "إيرناندو دي تالافيرا" (Hernando de talavera) مطران غرناطة[2]. بالإضافة إلى "إينيغولوبث دي مندوسا الكونت دي تنديا" حاكم غرناطة، الذي كان يقدم لهما كل المساعدة لتنفيذ خطتهما) [3].

وقد أنزل بالمسلمين شتى أنواع الأذى والاضطهاد وارتكبوا مذابح وحشية ضدهم، ناهيك عن النكث الفاضح للعهود والمواثيق التي قطعوها على أنفسهم[4]، ومن الأساليب التي استعملت ضد مسلمي الأندلس، أخذ أطفالهم الذين تتراوح أعمارهم ما بين 5-12 سنة، ليربوا تربية خاصة في المعاهد المسيحية[5]، ويزرعوا في قلوبهم التعصب المقيت ضد ذويهم المسلمين، وبعد نضوجهم يستعملون أداة للتجسس عندما يعادون إلى أهاليهم، ليخرجوا بكل صغيرة وكبيرة، تدور في بيوت أبائهم ثم يقوم الأسبان بإنزال أقصى العقوبات بالمسلمين، وهي الموت تنكيلاً بالعذاب والحرق[6].

وكان من دوافع الإسراع في عملية التنصير القسري، أن الملكة "إيزابيلا" كانت أشد تعصباً من زوجها "فرديناند" الكاثوليكي[7]، لعلاقتها الوثيقة بالأساقفة والرهبان، من رجالات الكنيسة[8]. فقد كانت الفكرة السائدة في السنوات الأولى لاستيلاء الأسبان على غرناطة[9]، أن المسلمين سيدخلون في الديانة المسيحية أفواجاً وبدون صعوبات تذكر،

---

(1) محمد رزوق: الأندلسيون، وهجراتهم إلى المغرب، ص57.

(2) Julián Ma Rubio y Varios: Historia de Espana. Tomo, III, Barcelona I. 935, pag. 402.

(3) محمد رزوق: المرجع السابق، ص57.

(4) محمد حتاملة: التنصير القسري لمسلمي الأندلس، ص60.

(5) المرجع نفسه، ص60.

(6) عادل بشتاوي: الأندلسيون المواركة، ص91.

(7) Fr. Jaime De Bleda: Crónica de los Moros de Espána valencia 1.618, pag 640.

(8) Fr. Jaime de Bleda: Cronica de los Moros de Expâna, p. 641.

(9) محمد رزوق: الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، ص58.

فنظمت فرق تبشيرية لهذا الغرض تتكون من رهبان وراهبات، لكن عمل هاته الفرق باء بالفشل، فتدخل "خمنيس" وفرض التنصير القسري مستعملاً كل وسائل التعذيب لديه[1]، مما أدى بالمسلمين للثورة معلنين الجهاد ضد الكاردينال "خمنيس" وجماعته المتعصبة[2].

ومما لاشك فيه بأن الملكين الكاثوليكيين كانا على اتفاق مع الكاردينال "خمنيس" للقيام بهذه الإجراءات التعسفية ضد مسلمي الأندلس على الرغم من الإدعاءات بأنهما قد فوجئا بعملية التنصير القسري[3].

ولقد كان "فرديناند" يؤمن بأن وحدة العقيدة هي الأساس الأول الذي يمكنه من توحيد أسبانيا النصرانية المجزأة، كما أنه كان يخشى بأس المسلمين، ويرى مع الكنيسة أن احتفاظهم بدينهم يقوي أواصر الصلة بينهم وبين إخوانهم في شمال أفريقيا وفي العالم الإسلامي بصفة عامة[4]، ومن ثم فإن تنصير المسلمين أو إخراجهم من البلاد هو الضمان الوحيد لسلامة إسبانيا النصرانية ووحدتها[5].

وقد كان رد فعل المسلمين بغرناطة في مستوى المرحلة التاريخية التي كانت تعيشها منطقتهم، إلى اتخاذهم موقفاً ثورياً حازماً، معلنين الجهاد في سبيل الله ضد هؤلاء النصارى الطُغاة، إذ أصبح من المستحيل تعايش الشعبين وانصهارها في بوتقة واحدة[6].

---

(1) Dominguez oritz (Antonio) y Bernard Vincent, Historia de Los Moriscos vida y tragedia de una Minoria, p p. 18-19.

(2) محمد رزوق: الأندلسيون وهجرتهم إلى المغرب، ص58. كذلك عادل بشتاوي: الأندلسيون المواركة، ص92.

(3) عادل بشتاوي: المرجع السابق، ص92.

(4) الصباغ، ليلى: ثورة مسلمي غرناطة، مجلة الأصالة الجزائرية، العدد 27، سبتمبر – أكتوبر 1975، ص119.

(5) المرجع نفسه، ص120. كذلك محمد رزوق: المرجع السابق، ص59.

(6) Menendez y pelayo (Marcelino): Historio de Los heterodoxos espánoles segundo edición tomo V, Madrid 1928, Cap III, pag. 325.

كذلك: محمد حتاملة: التنصير القسري لمسلمي الأندلس، ص71.

1- إنتفاضة البيَّازين عام (904هـ/1499م):

كانت صدور المسلمين تغلي كالمراجل نتيجة نقض الإسبان النصارى لعهودهم ومواثيقهم، وتفجرت ثورتهم، وزاد غليان القلوب لدى الموريكسيين، حتى تبدى هذا الغليان بشكل ردود فعل مختلفة[1]. حاول الملك "ضون فرديناند" الكاثوليكي تهدئة الأحوال خشية ما تجر إليه من عواقب، فبعث الكردينال "خمنيس دي سبسنيروس"، ليبرم مع المنتفضين الموريسكيين، والمسلمين من أصل أسباني "Elches"[2] اتفاقاً يعيد المياه إلى مجاريها ولو إلى حين. وكان مقتضى هذا الاتفاق[3]، أن يجيز للموريسكيين التمسك بعاداتهم ودينهم وضمان احترامهم، غير أن هذا الاتفاق لم يلق أي اهتمام لدى الموريسكيين، لكثرة ما مر بهم من اتفاقيات، لا تكون إلا حبراً على ورق، سرعان ما يضرب بها عرض الحائط[4]. فاستمرت الانتفاضة على ما هي عليه خاصة عندما أقدم مفوض الشرطة "بلاسكو دي باريو نويفو" "Velasco de Barrionuevo" وخادم للكردينال "خمنيس"، يدعى "سالشيدو" "Salcedo" على الاعتداء على ابنة مسلم من أصل أسباني "Elches" في ساحة باب البنود، في حي البيازين بمملكة غرناطة La plaza de Bib-el-Bonut[5]، فهب الموريسكيون في انتفاضة عارمة، استجابة لصراخ الفتاة، وكان يلتهب الحماس والنخوة في صدورهم،

---

(1) خليل السامرائي: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص306. كذلك عادل بشتاوي: الأندلسيون المواركة، ص95.

(2) "Elches": كلمة أسبانية أطلقت على الأسبان الذين أسلموا، ثم أخذتهم الكنيسة ليربوا فيها، ويجبروا على العودة إلى النصرانية ليعادوا إلى ذويهم عيوناً، كما كان يفعل بأبناء الموريسكيون – محمد حتاملة: التنصير القسري لمسلمي الأندلس، ص75 هامش رقم (1).

(3) محمد حتاملة: المرجع السابق، ص75.

(4) عادل بشتاوي: الأندلسيون المواركة، ص95.

(5) محمد رزوق: الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، ص59. كذلك عادل بشتاوي: الأندلسيون المواركة، ص96.

ووصلوا إلى المفوض وصاحبه[1]، فدبَّ الهلع والرعب في قلوبهما، وفرَّ الخادم، ووقع مفوض الشرطة في يد الموريسكيين[2]، بعد أن حصلت مشادة رمى فيها أحد المسلمين المفوض بحجر من نافذة فقتله، أما خادم الكردينال "خمنيس" فقد نجا من الموت المحقق بأعجوبة، حيث أن فتاة موريسكية حمته وخبأته في بيتها وذلك لسببين اثنين هما:

أ- رغبة الموريسكية تلك، بأن لا يساء إلى أهلها وذويها، بدم هذين الشرطيين فيفتك بهم.

ب- تعكس الحب الذي كان ما يزال يربط بين كثير من الموريسكيين والأسبان، وفي هاتين دليل صادق على الرغبة الحقيقية لدى الموريسكيين في السلام، على أن لا تنتهك الحرمات ولا تهان الكرامات[3].

سارت حشود الثائرين نحو بيت الكاردينال "خمنيس" في القصبة قرب قصر الحمراء للقضاء عليه، وكلهم ثقة أن هذه الحادثة لم تكن إلا بتخطيطه[4] وقد اختار هؤلاء أربعين من بينهم ليمثلوا حكومة موريسكية مستقلة منفصلة عن الأسبان[5]، عالمين أن تعايش هذين الشعبين غدا محالاً، فاحتمى الكردينال "خمنيس" في بيت حاكم مدينة غرناطة، "الكونت دي تنديا" مستغلاً بعض الاحترام بينه وبين الموريسكيين[6] وأقنعه بإرسال حملة كبيرة تبيد المنتفضين الموريسكيين، في البيازين عن آخرهم، واتجهت الحملة فعلاً فذهلت لدى رؤيتها كل الطرق المؤدية إلى المنتفضين مغلقة[7]،

---

(1) محمد حتاملة: التنصير القسري لمسلمين الأندلس، ص76. كذلك محمد عنان: نهاية الأندلس وتاريخ المسلمين المتنصرين، ص323.

(2) المرجع نفسه، ص324.

(3) عادل بشتاوي: المرجع السابق، ص96.

(4) Luis Del Marmol Caruajal: Historia de La rebelión y castigo de los Moriscos. p. 116-120.

(5) محمد رزوق: الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، ص59.

(6) عادل بشتاوي: الأندلسيون المواركة، ص96.

(7) محمد حتاملة: التنصير القسري لمسلمي الأندلس، ص77.

وقد واجهها الموريسكيون بالحجارة والشتائم والمتاريس، وكان جام الغضب ينصب بشكل خاص على "خمنيس"، فتبع الحملة بحملة ثانية "الكونت تنديا" لحماية "خمنيس" وإخماد انتفاضة الموريسكيين[1] وكان قد سبق حملة "تنديا" قدوم مطران غرناطة الأول الأب "تالافيرا"، إلى ساحة "باب البنود" وكان يحظى من قبل باحترام الموريسكيين، وقد زادهم له احتراماً مجيئه مع شرطيين فحسب، فسكت الموريسكيون امتثالاً لأوامر الأربعين المختارين من بينهم، فحثهم "تالافيرا" على السلام ووعدهم أن لا يساء إليهم بناءً على انتفاضتهم[2]، فثاروا لدى سماع كلمة السلام، بيد أن الأربعين أعادوا إليهم السكينة فسمعوا الحديث إلى آخره ورضوا بكل ما جاء به الأب "تالافيرا"[3] من اتفاقات وكانت دموع الفرح تملأ مآقيهم، على أن لا يصيبهم أحد بأذى، ثم عقد "تنديا وتالافيرا" جلسة قررا فيها، أن تُحترم الاتفاقيات المبرمة بينهما، وأن يعامل الموريسكيون بناءً على ذلك بكل احترام[4]، فوعد "تنديا" أن لا يعاقب أياً من هؤلاء المنتفضين، لكن عليهم أن يكونوا رعايا للملكين الكاثوليكيين، ويؤدوا ما عليهم من إتاوة من منتوجاتهم الزراعية، ومن قبل منهم بالديانة المسيحية طوعاً فله أن يحتفظ بعاداته وتقاليده ولغته،ومن أبى تلك الديانة، فعليه أن يهاجر من غرناطة[5].

لما سمع الأربعون "أفراد الحكومة الموريسكية المنتخبة" بما ذكر، فروا إلى البشرات، خشية التنكيل بهم، وخشية مطالبتهم بدم الشرطي "باريو نويفو"[6].

ورغم علاقة الود بين "تنديا وتالافيرا" من جهة، وبين الموريسكيين من جهة أخرى، إلا أن الرجلان كانا يعملان في الدرجة الأولى لمصلحة المسيحية، وأسبانيا

---

(1) المرجع نفسه، ص77.

(2) خليل السامرائي: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص307. كذلك محمد حتاملة: التنصير القسري لمسلمي الأندلس، ص77.

(3) محمد رزوق: الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، ص60.

(4) Fransisco de Paula Villa - Real y valdivia, Leccioness elementales de historia critica de Espana, p. 380.

(5) محمد حتاملة: التنصير القسري لمسلمي الأندلس، ص77.

(6) محمد عنان: نهاية الأندلس وتاريخ المسلمين المتنصرين، ص323-329.

النصرانية مهملين ما يمكن أن ينال أي موريسكي من عقاب، أو هلاك. وكان ذلك لا يخفى على الموريسكيين، فكانوا حذرين منهما[1]، لذلك فرَّ الأربعون. ولما أحسَّ "تنديا" بهذا الشعور العدائي المتبادل، قدم زوجته وأسرته رهائن لدى الموريسكيين، ضماناً لعدم الاعتداء عليهم من جراء انتفاضتهم تلك، فاستقبلهم أهل البيازين بكل احترام ويثبت ذلك الكتاب الذي نُشر باسم "ضونيا ماري دي باتشيقو"[2] ابنة الكونت "تنديا"، فهي قد أحبت الموريسكيين وانتهجت منهجهم في كثير من عاداتها، حتى أثَّرت في زوجها خوان دي باريا "Juan de Padilla" فثار، وقتل في عهد شارل الخامس، عام (927هـ/1521م) في موقعة "بيالار" بالقرب من بلد الوليد[3].

وبعد انتفاضات البيازين، عام (904هـ/1499م)، قرر الملكان الكاثوليكيان تغيير نهج سياستهما في شتى المجالات، فتم تعميد أبناء المسلمين قسراً، وتعميد الكبار منهم، كما أنشأ مجلس الأمناء ديوان مجمع قضاة الإيمان الكاثوليكي، أو محاكم التفتيش لمحاكمة الموريسكيين، كما أصدر صاحبا الجلالة أمراً يقضي بمنع أي موريسكي من الدخول إلى مملكة غرناطة، حتى لا يختلط بالموريسكيين فيرفع من روحهم المعنوية الثورية[4].

ولابدَّ أن نشير هنا إلى أن هناك جماعات من أصل أسباني، دخلت الإسلام عن قناعة تامة، إبان الحكم العربي الإسلامي، وعندما سقطت غرناطة آخر معقل للمسلمين في أيدي النصارى الأسبان، أُجبر هؤلاء المسلمون الأسبان على التنصر هرباً من الويلات والاضطهاد الذي كان يصب جامهُ على رأس كل مسلم، لكنهم ظلوا في حقيقة أمرهم، يعتنقون الإسلام، ويساعدون المسلمين – أنى سنحت الفرصة – ويؤونهم،

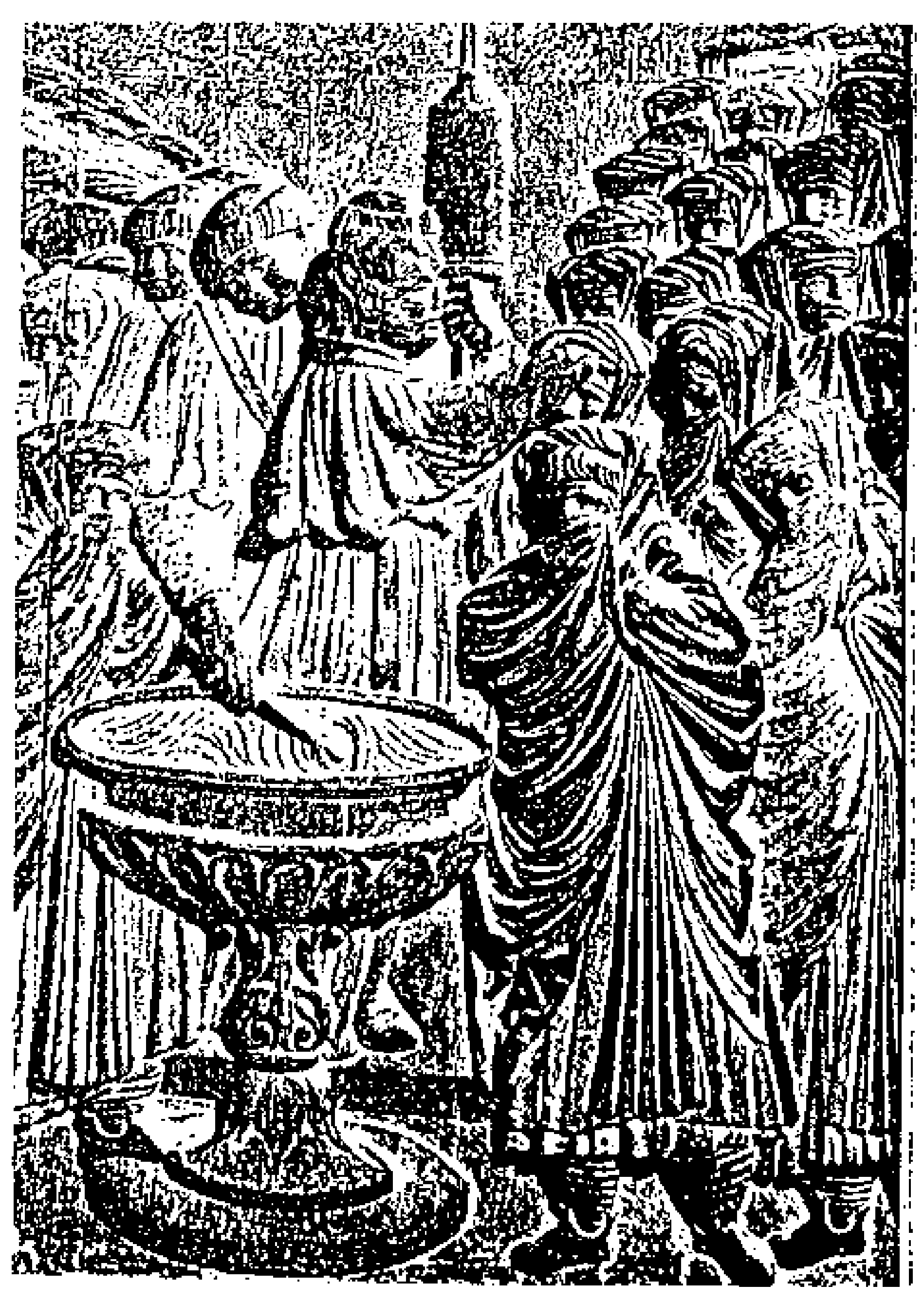
---

(1) محمد حتاملة: المرجع السابق، ص78. كذلك عادل بشتاوي: المرجع السابق، ص96.

(2) Carmen Munoz roca-Tallado Vidas de Mujeres Illustres, Vida de Da Maria de Pacheco "El ultimo comunero" Provenza 219-Barchelona Capitulo II. Pags 13-16.

(3) محمد حتاملة: المرجع السابق، ص78.

(4) محمد حتاملة: المرجع السابق، ص78. كذلك Miguel La Fuente Al Cantare. historia de Granda, pp.164-166.



بعد سقوط الأندلس، أُجبر من بقي من المسلمين هناك على اعتناق النصرانية. ويمثل هذا المشهد المؤثر مجموعة من النساء المسلمات يقفن في صفوف بانتظار التعميد الإجباري، وقد بدت عليهن آثار المحنة القاسية – عن الصورة الموجودة في المصلى الملكي Capilla Real بغرناطة.

نقلاً عن: محمد عبده حتامله: التنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين (1474-1516م)، دار مطابع الشعب، (عمان، 1980م)، ص87.

ويتعاطفون معهم، وقد كان المسلم الأسباني المنصر قهراً، إذا كشف أمـــره، أو تبـــدت حوله أية بادرة تدل على مساعدته للموريسكيين، يعاقب عقاب الموريسكي الذي لا يقل عن الموت المؤكد[1].

كما حُرِم على المسلمين اللجوء إلى الكنائس، نظراً لأن بعض الهـــاربين مـــنهم كانوا يلجأون إلى الكنائس والأديرة وأقبية تلك الكنائس التي لم تراع حرمتها[2].

ولم يبق أمام هؤلاء الموريسكيون سوى البحث عن ملاجئ تؤويهم فـــي رؤوس الجبال، ويتخذون منها معاقل لهم، وقواعد إستراتيجية عسكرية، يـــشنون منهـــا علـــى الأسبان النصارى غارات متعددة، معتبرين هذه الغارات جهاداً في سبيل الله، ضد من اغتصب أوطانهم، وشردهم منها وظلوا يمارسون جهادهم، بصبر وجلد وعزيمة قوية، حتى أصبحوا قوة ذات وزن كبير[3] غير أنهم كـــانوا يتعرضـــون أحيانـــاً لمطـــاردة السلطات النصرانية لهم، حتى إذا ما تم القبض على بعض أفرادهم قدموا للمثول أمـــام ديوان مجمع قضاة الإيمان الكاثوليكي، أو محاكم التفتيش التي كانت توقع بهـــم أشـــد العقاب[4].

وكان موقف نصارى الأسبان العدائي، يزداد حدة ضد هـــؤلاء الموريـــسكيين، لدرجة أن الملكين الكاثوليكيين، أصدرا أمراً في غرناطة عام (906هـــ/1501م) يُحرم على الموريسكيين ممارسة كل ما يمتُّ إلى عقيدتهم ولغتهم بصلة[5] وهذا اضـــطرهم إلى ترك العيش بالقرب من هؤلاء النصارى المتعصبين، والالتحـــاق بـــإخوانهم فـــي

---

(1) محمد رزوق: المرجع السابق، ص60. كذلك عادل بشتاوي المرجع السابق، ص97. محمـــد حتاملـــة: المرجع السابق، ص79.

(2) عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس، ص182. كذلك محمـــد حتاملـــة: المرجـــع الـــسابق، ص79.

(3) خليل السامرائي: المرجع السابق، ص307. كذلك محمد رزوق: المرجع السابق، ص60.

(4) محمد حتاملة: المرجع السابق، ص79.

(5) المرجع نفسه، ص79.

رؤوس الجبال، ثم أجبروا نتيجة لثورتهم على ارتداء ما يرتديه الأسبان والتطبع بطابعهم، وعلى إرسال أبنائهم إلى قشتالة رهائن يقتلون إذا ثار آباؤهم[1].

2- ثورة البشرات عام (906هـ/1501م):

كان من نتائج انتفاضة الموريسكيين في البيازين في غرناطة، أن ثار إخوانهم في منطقة البشرات الواقعة في جنوب غرناطة[2] وقد أرسل الأسبان النصارى حملة لإخضاع ثورة الموريسكيين هذه في البشرات وكان يقود هذه الحملة كل من غونالو دي قرطبة و"بولغار" والكونت "تنديا"[3]. وقد قامت هذه الحملة بقتل جميع من في قرية "غويخار - سيرا" حيث لم تجد الحملة عندما وصلت هذه البلدة سوى النساء والأطفال والكهول أما الرجال، فقد ذهبوا إلى البشرات لمساعدة أخوانهم الثوار المجاهدين هناك قبل وصول الحملة[4].

وانتقاماً من ثورة مقاتلي هذه البلدة المسلمين الملحقين بثوار البشرات، ارتكب رجال الحملة الإسبانية النصرانية أبشع المذابح، فقتلوا الأطفال الرضع، وأمهاتهم، والشيوخ الطاعنين في السن، دون هوادة ورحمة، ولم يبقوا على أحد منهم، ولم يكتفوا بهذه الفعلة المنكرة بل أحرقوا القرية والمنازل على رؤوس أهلها[5].

وتابعت الحملة الأسبانية النصرانية سيرها إلى أن وصلت "موند يخار" فوجدت أن كنيستها التي كانت في السابق مسجداً للمسلمين، قد أحرقها الموريسكيون، ومما أثار

---

(1) محمد حتاملة: المرجع السابق، ص79. كذلك محمد رزوق: المرجع السابق، ص60. عادل بشتاوي: المرجع السابق، ص97. عبد الرحمن الحجي: المرجع السابق، ص572.

(2) Migue Lafuente Alcantara, Historiade Granada. Granda 1.846 tomo IV, Capt. XVIII, pags. 164-166.

(3) Alonso de Santa Cruz: Cranico de los Reyers Catolcios Edicion y estudio por juan de Mata Carriazo tomo 1. Sevilla 1.951 Capt. XLIV pag, 193.

(4) هويدي، فهمي: في بلاد الموريسك غرباء الأندلس، مجلة العربي، العدد 228، 1989، ص71.

(5) محمد حتاملة: المرجع السابق، ص81. كذلك خليل السامرائي: المرجع السابق، ص307، فهمي هويدي: المرجع السابق، ص71.

سخط الموريسكيين، تحويل مساجدهم إلى كنائس، وهذا جعلهم يتابعون ثـورتهم فـي جميع جهات البشرات[1]. ولحق بهذه الحملة الملك الإسـباني "فردينانـد" الكـاثوليكي وبعض قواده، الذين احتلوا بعض القرى والحصون في الطريق مثل (وادي لكـوين)، ومدينة (لانخرون)، و(لوشار)، و(قونقة)، و(اندرش) ولقيت الحملة الصليبية مقاومـة عنيفة من الموريسكيين الذين دافعوا عن مدنهم ببسالة[2]. وأخيراً تم إبرام اتفاقية، تعهد فيها الملكان الكاثوليكيان بالوفاء ببعض شروط معاهدة استسلام غرناطة[3].

وبعد هذه الاتفاقية نلاحظ من جديد أن الموريسكيين ثاروا مرة أخرى في قلعـة "بلفيقا" التي تبعد 30 كم غرب "نيجر" وهاجمهم النصارى الأسبان، وأجبـروهم علـى التسليم[4].

واستسلمت بعدها عدة مواقع، من بينها "نيجر"، وبيروا نيوخـه، وفـي النهايـة "تورس" التي أخذ منها مجموعة كبيرة من الموريسكيين وحملـوا أسـرى[5]، واحتـل "كونت ليرين" مناطق أخرى في سلسلة الجبال، وأخذ معه 34 موريسكياً رهائن، وطلب فدية لهم مقدارها خمسين ألف دوكة[6] وأن تسلم خلال أربعة أيام "كاسـتيل دي فـر" وعذره والبنيول[7] التي كان قد استولى عليها الموريـسكيون فـي الـسابق، وحـاول الموريسكيون أن يطوقوا قلعة "رسانة" ولكنهم لم يستطيعوا ذلك،ولم يسعفهم الحظ فـي احتلالها، إذ أن "الضون بيدرو دي فاخردو" الذي كان موجوداً في مدينة "المرية" خرج

(1) محمد حتاملة: المرجع السابق، ص81.

(2) فهمي هويدي: المرجع السابق، ص72.

(3) Francisco de Paula Villa-Real y Valdivia: Lecciones elementales de historia critrica de Espana 2a edicion Granada 1.899 Leccion 57, pag. 380.

(4) محمد رزوق: المرجع السابق، ص61.

(5) Alonso de Santa Cruz: Cronica de los Reyes Catolicos, Edicion y estudio por juan de Mata Carriazo tomo I, Sevilla, Capt, L VIII, pags. 242-244.

(6) الدوكة "Ducado": عملة ذهبية قديمة اختلف قيمتها باختلاف العصور، وقد كانت زمناً مـا تـساوي سبع بزيتات أسبانية = محمد حتاملة: المرجع السابق، ص81.

(7) محمد حتاملة: المرجع السابق، ص81.

على رأس جيش كبير باتجاه "الهامية" الواقعة بين "رسانة" و"البشرات"[1]، وبعد معركة كان نتيجتها أن قُتل وأسر الكثير من الموريسكيين بعد قتال عنيف بينهم وبين القـوات الأسبانية النصرانية الحاقدة استطاعوا أن يرفعوا الحصار عن هذه المنطقة، بعد أن فر أكثر مقاتليها إلى البشرات[2].

وفي عام (907هـ/1502م) كان الثورات قد أخمدت على وجه التقريـب فـي جميع أراضي "البشرات" و"المرية"، ووادي "آش"، وفي "بسطة" واضطهد النـصارى الأسبان الموريسكيينن اضطهاداً لا نظير له[3].

وعندما توقف القتال بين الطرفين، قام الأسبان بأعمال اتسمت بالقسوة والعنـف ضد موريسكي الأندلس، ومن أمثلة فظاظتهم؛ ما يقـول الباحـث الإنجليـزي "ولـيم برسكوت"[4] عند إشارته إلى العقاب الذي أنزل بمسلمي البشرات: "إن الكونت ليـرين نسف مسجداً مليئاً بالنساء والأطفال، وكان الأسبان يقترفون أبشع الجرائم، وكانت تراق أنهار من الدماء وفي أثناء هذه الحروب الأهلية كان النصارى يبتعدون كل البعد عـن شعورهم الديني، فاقدين له ولشعورهم، الموريسكيين في نظرهم مجرد عبيـد وأتبـاع ورقيق، ولم يتعرض الموريسكيون لهذا العقاب فحسب، بل للإبادة التامـة". ويـضيف الباحث مشيراً إلى الملك الكاثوليكي فرديناند قائلاً: "أن الملك استنكف عن الاشتراك في قتل الموريسكيين، ليس رحمة بهم وإنما تكبراً وتغطرساً، لكي لا يلطـخ بـدماء هـذه الوحوش الضارية في البشرات، ولذا تنازل فمنحهم بعض الاعتبار"[5].

---

(1) عادل بشتاوي: المرجع السابق، ص98.

(2) محمد حتاملة: المرجع السابق، ص83. كذلك محمد عنان: نهاية الأندلس وتاريخ المسلمين المتنصرين، ص328 وما بعدها.

(3) محمد رزوق: المرجع السابق، ص61. كذلك عادل بشتاوي: المرجع السابق، ص99.

(4)William Prescott: Historia del reinado de los Ryers Catolicos. Tomo III Madrid 1.846 Capt. VII. Pags, 189-190.

(5)Modesto Lafuente Alcantara: Historia General de Espána. Tomo II Barcelona 1879. Capt XIX pags. 375-360.

وفي عام (906هـ/1501م) أيضاً ثار الموريسكيون في "سيرا دي فيلابـرس" في مقاطعة المرية سعياً للحصول على بعض مطالبهم، واحترام حقوقهم، ولكـن هـذه الثورة أخمدها قائد الدونتيلس، وفي "سرانيا دي الرنـدة" ثـار موريـسكيو "فيالونقـا" وموريسكيو "سيرا برميخا"، وسار ضدهم جيش أسباني كبير بقيادة "الونسو دي اغيلار" شقيق القائد الكبير "الكوت بيفونتس"، والكونت "أورينيا"، ودخلوا سيراً "الرنده" في نفس العام[1]. وعسكروا هناك ونتيجة للمعارك التي حصلت خسر الجانبان ضـحايا كثيـرة وكان الفوز والنصر إلى جانب الموريسكيين، وكان من الـذين قتلـوا مـن الأسـبان النصارى، ضون "الونسو دي اغيلار"[2]. وباشتداد هذه الثورة، توجه الملك "فردينانـد" شخصياً إلى هناك على رأس جيش جرار وتمكن من تهدئـة أوضـاع موريكـسيني البشرات، إذ وعدهم بشرفه ودينه بتنفيذ ما جاء بمعاهدات الاستسلام[3].

وهنا تبرز بوضوح روح عدم الوفاء بالمعاهدات التي تم الاتفاق عليها، والتـي وقع عليهما الملكان الكاثوليكيان من جانب، و"أبو عبد الله الصغير" من الجانب الآخر. وبعد خروج "أبي عبد الله الصغير" بمدة ثمان سنوات، أبرمت اتفاقيات ثنائية مع جماعة الموريسكيين، في مملكةغرناطة في بلدة "تابيرنس"، في عام (905هـ/18 سـبتمبر 1500م) بعد انتفاضة البيازين بعام واحد[4].

وفي بلدة "بسطة" في 30 سبتمبر من نفس العـام، وفـي "أشـكر" فـي عـام (906هـ/26 فبراير 1501م)، بعد ثورة البشرات أبرمت اتفاقيات بين الجانبين علـى الخطوط العريضة التالية[5]:

---

(1) Alfonso Gamira Sandoval: Organizacion de la defen sa de la costa del reino de Granada desde su reconquista hasta finales del siglo XVI Granada 1948. Capt III, pag 88.

(2) Ibid, p. 88

(3) عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس، ص182. كذلك محمد حتاملة: محنة مسلمي الأندلس، ص77-78.

(4) محمد عنان: نهاية الأندلس، ص366-367.

(5) محمد حتاملة: التنصير القسري لمسلمي الأندلس، ص85.

- أولاً: السماح للموريسكيين بالإطلاع على جوانب من الثقافة العربية.
- ثانياً: المساواة في المعاملة مع النصارى.
- ثالثاً: إخضاع الموريسكيين لنفس الأنظمة المدنيـة والماليـة التـي تُطبـق علـى النصارى.
- رابعاً: السماح للموريسكيين من ضمن الاتفاقيات بالمشاركة في إدارة بعض الشؤون المحلية.
- خامساً السماح لهم باستعمال ثيابهم وعماماتهم لمدة محدودة.

والمتعمق في هذه الاتفاقيات الثنائية يلحـظ أنهـا نجحـت بعـد انتفاضـات، وصراعات حادة بين الموريسكيين، ونكث لمعاهدة الاستسلام، كمـا يلحـظ تعـصب الأسبان النصارى وتعنتهم، وأجلى صور ذلك تبدو في النقاط التالية[1]:

1- لا يجوز لأي مسلم القيام بتأدية الزكاة، ولا يجوز لـه أيـضاً تطبيـق الـشريعة الإسلامية على عملية الذبح.

2- يحرم على كل مسلم اقتناء الكتب الدينية خاصة المصحف الشريف[2].

وبالرغم من اتخاذ موقف اللا مبالاة من نكث معاهدات الاستسلام، رأى الملكان الكاثوليكيان في ثورة الموريسكيين عام (906هـ/1501م) مبرراً لهما للتخلي والنكث وعدم الوفاء بما جاء في الاتفاقيات المبرمة سابقاً[3].

وأخيراً وضع الموريسكيون المغلبون على أمرهم أمـام أحـد خيـارين همـا: التنصير القسري أو التهجير إلى خارج الأندلس[4].

---

(1) محمد حتاملة: المرجع السابق، ص85-86.

(2) Antonio Dominguez y Bernard Vicent: Historia de los Moriscos. Vida y tragedia de una minoria. Revista deoccidente. Madrid 1.978. Capt. I, pag 20.

(3) Marcelino Menendez y pelayo, Historia de Espána Madrid, 1941, pag 145.

(4) محمد حتاملة: المرجع السابق، ص86. كذلك عادل بشتاوي: المرجع السابق، ص99.

كما فرض هذا الخيار الصعب على مدجني "قشتالة" و"ليون" في عام (907هـ/1502م)[1].

ونتج عن هذه الأحداث، تحويل مسجد غرناطة إلى كنيسة كبرى، وتحويل مسجد البيازين إلى كنيسة، ومدرسة اسمها كنيسة المخلص. وفي مدينة غرناطة وضواحيها، نصر قسراً أكثر من خمسين ألف شخص، وحولت جميع المساجد إلى كنائس[2]، كما أجبر مسلمو الأندلس على نبذ ملابسهم العربية الزاهية، ولبس السراويل والقبعات وعلى ترك لغتهم وتقاليدهم ومراسمهم وأسمائهم العربية، وحملوا على اعتناق الديانة المسيحية واستعمال اللغة والتقاليد والأسماء النصرانية[3].

ثالثاً: الموريسكيون بين المواجهة ورفض الاندماج:

1- الموريسكيون ومحاكم التفتيش:

يصعب إعطاء تاريخ محدد لنشوء محاكم التفتيش[4]، لكن فكرة التحقيق في العقائد الكنيسية الرومانية ظهرت في وقت مبكر، فخلال المجلس الكنائسي الثالث في "لتران" "Latran" (575هـ/1179م)، أصدر البابا "ألسكندر الثالث" أمراً بمتابعة المارقين (أي الموريسكيون) وحجز ممتلكاتهم، بل واسترقاقهم[5].

وقد بدأ بتطبيق الفكرة منذ أوائل القرن الثالث عشر الميلادي، فكان البابا يعهد إلى الأساقفة بتعقب المارقين والكفرة – حسب قولهم – وطبق هذا النظام منذ البداية في

---

(1) Marcelino Menendez y pelayo: Historia de los heterodoxos espanoles. 2a edicion tomo v. Madrid 1.928. Capt III pag 324.

(2) Juan de Mata Carriazo: Historia de la casa Real de Granada, en Miscelánea de Estudios Arabes y Hebraicos. Universidad deGranada Vol. VI (1, 957). pags, 55-56.

(3) محمد رزوق: المرجع السابق، ص60-61.

(4) محمد رزوق: المرجع السابق، ص61.

(5) عادل بشتاوي: المرجع السابق، ص197.

إيطاليا وألمانيا وفرنسا، فكان مندوبو البابا يحلون في مختلف الأنحاء لتقصي أخبارهم، وتعقد لذلك مجالس كنيسية مؤقتة كانت هي النواة الأولى لمحاكم التفتيش[1].

واتسع اختصاص محاكم التفتيش بمضي الزمن، فلم يبق مقتصراً على مطاردة المارقين والكفرة، بل تعداه إلى السحرة، وجاء بعد ذلك دور اليهود، فاتهموا بسب الديانة المسيحية كما أخذ عليهم التعامل بالربا[2].

ويرجع تأسيس محاكم التفتيش في إسبانيا إلى عهد الملكين الكاثوليكيين، فقد أرسلا سفيرهما إلى البابا سنة (883هـ/1478م)، للحصول على براءة في هذا الشأن، واتخذت الخطوة الحاسمة بالفعل لتنفيذ المشروع في سنة (885هـ/1480م). وأنشئت محاكم التفتيش الأولى في إشبيلية، وبدأت نشاطها المروع في "قشتالة" ضد اليهود المتنصرين "Conversos"، فطاردت ألوفاً منهم. واستصدر الملكان الكاثوليكيان براءة أخرى من البابا سنة (887هـ/1482م) على إثرها أنشأت محاكم جديدة في قرطبة، وجيان، وشقوبية، وطليطلة، وبلد الوليد، وصدرت براءة أخرى في سنة (888هـ/1483م) بإنشاء مجلس أعلى لمحاكم التفتيش (Suprema) له اختصاص مطلق في شؤون الدين[3].

وبعد صدور قرار التعميد الإجباري ضد الأندلسيين سنة (907هـ/1502م)، أصبحت محاكم التفتيش تتابع الموريسكيين بصرامة، ففي الوصية التي تركها فرناندو الكاثوليكي لشارل الخامس نجده يأمره "بضرورة اختيار محققين أكفاء ومخلصين للإيمان الكاثوليكي لتضييق الخناق على طائفة محمد"[4]، لذلك فقد ظل الموريسكيون دائماً يُحملون الملكين الكاثوليكيين مسؤولية محاكم التفتيش، فكثيراً ما يتردد في محاضرها قولهم: "إن إيزابيلا قد دخلت جهنم، لأنها أنشأت محاكم التفتيش ..."[5].

---

(1) Bennassar, l'inquisition espagnol, p. 8.

(2) محمد رزوق: المرجع السابق، ص84.

(3) محمد رزوق: المرجع السابق، ص62.

(4) المرجع نفسه، ص62.

(5) المرجع نفسه، ص62.

لم يرض المسلمون بالتخلي عن دينهم مهما كلفهم ذلك من ثمن، فاندلعت في أواخر عام (932هـ/1525م) نيران الثورة، وقابلتها السلطات الإسبانية النصرانية بأعنف وسائل القمع والإرهاب[1]، ولم تتمكن مملكة أرغون من التغلب على الثورة والثائرين، إلا بعد أن استعانت بجيش من الألمان، وأبلى المسلمون أحسن البلاء في المعارك التي دارت خلال عشرة أشهر، وأدت هذه الثورة إلى قتل عدد كبير من المسلمين. ونسائهم وأطفالهم واسترقاق عدد كبير منهم، وإلى هجرة عدد كبير إلى شمال أفريقيا، أما الباقون فقد أجبروا على تلقي التعميد[2].

لم ييأس المسلمون برغم جميع ما جرى لهم، إذ أنهم كانوا يعرفون الوسيلة التي يتغلبون بها على صلف الأسبان النصارى وعجرفتهم، ألا وهي بذل المال وتقديم الرشاوى، إذ كان في إسبانيا في ذلك الحين يباع ويشترى[3] "الشرف والقانون والأخلاق"، وتابع الفقهاء الأثنى عشر الذين يمثلون جمعيات المسلمين في بلنسية، جهودهم لإيجاد تسوية للمواضيع المعلقة، فاتصلوا بكردينال طليطلة، وبديوان التحقيق الأعلى، وبالإمبراطور نفسه، وتوصلوا في سنة (935هـ/1528م) إلى اتفاق مع رئيس ديوان التحقيق وكردينال طليطلة، قَبِلَ به الملك ووافق عليه، وهذه بعض بنوده[4].

1- لا يمكن أن يستمر الموريسكيون في الإقامة في مكان يعاملون فيه معاملة سيئة كالتي تلقونها اليوم.
2- لا يتابع الموريسكيون من طرف محاكم التفتيش خلال أربعين عاماً.
3- لا يجبرون على ارتداء الملابس المسيحية خلال عشر سنوات.
4- لا يجبرون على استعمال اللغة الإسبانية خلال عشر سنوات.
5- يُسمح لهم بأن تكون لهم مقابر خاصة بهم بجانب المساجد.

---

(1) حومد، أسعد: محنة العرب في الأندلس، (بيروت، 1980)، ص169.

(2) المرجع نفسه، ص170.

(3) محمد رزوق: المرجع السابق، ص82-83. كذلك أسعد حومد: المرجع السابق، ص170-171.

(4) محمد عنان: نهاية الأندلس، ص356.

6- تُنفق أموال المساجد على خدمات الدين المسيحي ماعدا ما هو ضـــروري لنفقـــات الفقهاء.

7- يُسمح للموريسكيين بحمل السلاح.

لكن الملك نقض الاتفاق، ويحاول بعض المؤرخين تبرير ذلك، ومنهم من يجعل سبب نقض الاتفاق إلى حملات المجاهدين البحرية انطلاقاً من شـــمال إفريقيـــا علـــى الشواطئ الأسبانية وجزر البليار[1].

وهكذا لبثت السياسة الأسبانية أمام الإمبراطور "شـــرلكان" إزاء الموريـــسكيين، تتردد بين الإقدام والإحجام، واللين والشدة، بيد أنها كانت على وجه العموم أقل عـــسفاً وأكثر اعتدالاً منها أيام "فرديناند وإيزابيلا". وفي عهده نال الموريسكيون كثيـــراً مـــن ضروب الإعفاء والتسامح، ولكنهم ظلوا في جميع الأحوال موضع القطيعة والريب، وعرضة للإرهاب والمطاردة، ولبثت محاكم التفتيش تجد فيهم دائماً ميدان نشاطها المفضل[2].

ويمكن تصنيف الأعمال المرتكبة من طرف الموريسكيين والمعاقب عليها مـــن طرف محاكم التفتيش إلى ما يأتي: الوضوء - الطهارة - الصلاة - صوم رمضان - الاحتفال بيوم الجمعة - عدم شرب الخمر وعدم أكل لحم الخنزير - قراءة كتب عربية - القول بأن الديانة المحمدية هي الأصلح - ختان الأطفال[3].

والملاحظة الأساسية أنه بالرغم من جميـــع الإجـــراءات ظلـــت الممارســـات الإسلامية بالشكل نفسه تقريباً[4]. وقد سجل المبشر "Bartolome de Los Angeles" في زياراته لمختلف قرى مملكة بلنسية ما يأتي[5]:

---

(1) محمد عنان: نهاية الأندلس، ص355-356.

(2) المرجع نفسه، ص356-357.

(3) محمد رزوق: المرجع السابق، ص84.

(4) Ricardo Garcia Carcel, origines de La Inquisicion Espanola: El Trinual de valencia. pp. 200-201.

(5) Bartolome de Los Angeles: "Padron de Los Moriscos residentes en parte del reino de velencia Manuscrito num. 81 del La Biblioteca Univ. de velencia" in origines de la Inquisicion Espanola, p. 201-202.

1- 3 حالات ختان "Benifairo".

2- 9 حالات ختان "La Taverna".

3- 8 حالات ختان "Cerfuller".

4- إثنان وجد بحوزتهم القرآن، إثنان تزوجا من دون إذن كنيسي، ثلاثة حالات ختان "Riba-Roga".

5- 16 حالة زواج على الطريقة الموريسكية "Benagusil".

6- 11 دفنوا على الطريقة الموريسكية.

7- 60 حالات ختان.

أما على الصعيد الخارجي فقد كان "شارل الخامس" يعي جيداً الدور الذي يمكن أن يقوم به الموريسكيون في شمال أفريقيا لمهاجمة الشواطئ الأسبانية ولإعاقة حملته الصليبية الكبرى ضد المنطقة، فعند احتلاله تونس في عام (942هـ/1535م) فرض على الملك الحفصي معاهدة ينص أحد بنودها على أن: مولاي الحسن لن يقبل في مملكته أحداً من العرب الأندلسيين المسلمين[1].

2- استغاثات موريسكية لطلب النجدة من المسلمين:

رغم كل ما جرى من حوادث، ونكث للعهود؛ فقد اضطر الموريسكيون لعيش على الأمل بالوعود، فصدرت عنهم استغاثات مؤلمة لطلب النجدة[2]. ذلك بعد أن بلغ منهم السوء كل مبلغ، وأصبحت حالتهم يرثى لها، خاصة بعد أن أسفرت ثورتي البيازين والبشرات، عن تهجير عدد لا يستهان به من الموريسكيين إلى خارج الأندلس، وتنصير من تبقى بمقتضى فرمان أصدر عام (907هـ/1502م)[3]، نظراً للأضرار

(1) محمد رزوق: المرجع السابق، ص 84 نقلاً عن Elie de la primandie, "Documents inedits sur l'histoire de l'occupation espgnole en Afrique (1506-1574) in Revue Afrioaine, 1876, p. 136.

(2) محمد حتاملة: المرجع السابق، ص91.

(3) Francisco de Paula Villa-Realy Valdivia: Lecciones, Elementales de Historia Critica de Espána, 20 edicion, Granada, 1899, Leccion 57 pag. 380 y siguientes.

الكبيرة التي لحقت بالموريسكيين، ما بين عـامي (905-906هـ/1499-1501م)، وسوء المعاملة التي تعرضوا لها[1].

وقد اتجه الأندلسيون أولاً إلى المغرب لأن هذا الأخير كان دائماً وراء العمليات الجهادية التي كان يقوم بها هؤلاء، يقول المؤرخ الأندلسي المجهول في كتابه "نبذة العصر": "إن إخواننا المسلمين من أهل عدوة المغرب بعثنا إليهم فلم يأتنا أحد منهم، ولا حرج على نصرتنا وإغاثتنا، وعدونا قد بنى علينا وسكن، وهو يزداد قوة ونحن نزداد ضعفاً، والمدد يأتيه من بلاده ونحن لا مدد لنا ..."[2].

ويرجع عدم تمكن المغرب من تقديم المساعدة إلى الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي كان يعيشها آنذاك، وهي ظروف عاينها الأندلسيون بأنفسهم بعد مجيئهم إلى المغرب: "... وكان من قضاء الله وقدره أنه لما جاز الأمير "محمد بن علي" وسار إلى مدينة فاس أصاب الناس شدة عظيمة وغلاء مفرط وجوع وطاعون، واشتد الأمر بفاس حتى فرَّ كثيرٌ من الناس من شدة الأمر ..."[3]. فلم يستطيعوا مع كل هذه الظروف إجابة الاستغاثة، ولم يكن في استطاعتهم أن يلبوا نجدة الأندلس آنذاك[4].

كذلك استعان الأندلسيون بمصر غير مرة، نذكر على سبيل المثال قصة السفارة الأندلسية التي بعث بها السلطان "أبو عبد الله إلى سلطان مصر "الظاهر عرفه جقمق في سنة (844هـ/1440م) لكنها م تُسفر عن نتائج تذكر، إلا أن حوادث الأندلس المفجعة كانت قد ذاعت في العالم الإسلامي وأصبح صداها يتردد في بلاط القاهرة، وهذا مؤرخ مصر "ابن أياس" يسجل في حوادث ذي الحجة عام (886هـ/1481م): "... وفيه جاءت الأخبار من بلاد المغرب أن أبا عبد الله محمد بن أبي الحسن علي بن سعد ابن الأحمر قد ثار على أبيه الغالب بالله صاحب غرناطة وملكها من أبيه، وجرت

---

(1) Ibid. p. 380.

(2) مؤلف مجهول: نبذة العصر، ص39. كذلك محمد رزوق: المرجع السابق ص 63 - 64

(3) مؤلف مجهول: نبذة العصر، ص43-44.

(4) محمد رزوق: المرجع السابق، ص63. كذلك محمد حتاملة: المرجع السابق، ص91.

بينهما أمور يطول شرحها، وآل الأمر بعد ذلك إلى خروج الأندلس عــن المــسلمين، وملكها الفرنج والأمر لله في ذلك"[1].

وهكذا فقد وضع السلطان المملوكي "قايتباي" (865-901هـ/1460-1496م) خطة مشتركة مع السلطان العثماني "بايزيد الثاني" (886-917هـــ/1481-1512م)، تنص على أن يرسل الأخير أسطولاً قوياً لغزو جزيرة صقلية التي كانت يومئــذ مــن أملاك أسبانيا النصرانية، فيشغل بذلك اهتمام "فرديناند وايزابيلا"، وأن تبعــث ســرايا كبيرة من الجند من مصر وإفريقيا، تجوز البحــر إلـــى الأنــدلس، لتجنيــد جيوشـــها وقواعدها[2]. لكن الظروف الداخلية للسلطان "بايزيد الثاني" حالــت دون تنفيــذ هــذه الخطة، حيث اكتفى بتوجيه كتاب إلى الملكين الكاثوليكيين، لم يعملا بشيء منه، وكان ذلك بعد انتفاضة البيازين عام (904هـ/1499م)[3].

وقد واصلت مصر جهودها بالرغم من ذلك، إذ وصلت من الأندلس في أواخــر عام (892هـ/1487م) سفارة إلى مصر، ويصف ابن أياس هذه السفارة قــائلاً: "... وفي ذي القعدة سنة 892هـ جاء قاصد من عند ملك الغرب صاحب الأندلس، وعلـــى يده مكاتبة من مرسله تتضمن أن السلطان يرسل له تجريدة تعينه على قتـــال الفــرنج، فإنهم أشرفوا على أخذ غرناطة وهو في المحاصرة معهم، فلما سمع الــسلطان ذلــك اقتضى رأيه أن يبعث إلى القسوس الذين بالقمامة التي بالقدس بأن يرسلوا كتاباً على يد قسيس من أعيانهم، إلى ملك الفرنج صاحب "نابل"، بأن يكاتب صاحب "إشبيلية" بـــأن يحل عن أهل مدينة "غرناطة" ويرحل عنهم، وألا يشوش السلطان أهل القمامة، ويقبض على أعيانهم ويمنع جميع طوائف الفرج من الدخول إلى القمامة ويهــدمها، فأرســلوا

---

(1) ابن أياس، محمد بن أحمد: بدائع الزهور في وقائع الــدهور، مطبعــةبولاق (القــاهرة، 1312هـــ)، 216/2.

(2) محمد عنان: نهاية الأندلس، ص219. كذلك حمودة، علي محمد: تاريخ الأندلسي السياسي والعمرانـــي والاجتماعي، ط1 (القاهرة، 1975م)، 302.

(3) محمد حتاملة: المرجع السابق، ص95. كذلك محمد رزوق: المرجع السابق، ص64.

قاصدهم وعلى يده كتاب إلى صاحب نابل، أشار السلطان فلم يفد ذلك شيئاً، وملك الفرنج مدينة غرناطة فيما بعد..."[1].

ولم يكن في وسع مصر آنذاك أن تلبي نداء الأندلس بفعل ظروفها الداخلية ونزعاتها مع الأتراك فحاولت السبيل الدبلوماسي، ذلك أن سلطان مصر الملك الأشرف أجاب عن سفارة الأندلس بتوجيه سفارة مصرية إلى البابا وملوك النصرانية[2]، واختار لأدائها راهبين من رعاياه النصارى، أحدهما القس "انطونيو ميلان" رئيس دير القسيس فرنسيس في بيت المقدس، وعهد إليهما بكتب إلى البابا وهو يومئذ "أنوصان الثامن"، وإلى ملك نابولي "فرديناندو الأول" وإلى "فرديناند وإيزابيلا"، وفي هذه الكتب يعاتب سلطان مصر ملوك النصارى على ما ينزل بأبناء دينه المسلمين في مملكة غرناطة، في حين أن رعاياه النصارى في مصر وبيت المقدس يتمتعون بجميع الحريات، وقد هدد السلطان بأن يعامل رعاياه النصارى بالمثل[3].

ولم ير "فرديناند وإيزابيلا" في مطالب السلطان ووعيده ما يحملهما على تغيير خطتيهما، في الوقت الذي أخذت فيه قواعد الأندلس الباقية تسقط تباعاً في أيديهما، ومع ذلك فقد كتبا في أدب ومجاملة إلى السلطان: "إنهما لا يفرقان في المعاملة بين رعاياهما المسلمين والنصارى ولكنهما لا يستطيعان صبراً على ترك أرض الآباء والأجداد في يد الأجانب، وأن المسلمين إذا شاءوا حياة في ظل حكمهما راضين مخلصين، فإنهم سوف يلقون منهما نفس ما يلقاه الرعايا النصارى الآخرون من الرعاية..."[4].

ولما استولى الملكان الكاثوليكيان على غرناطة بعث "Pierto Martiri de Angleria" سفيراً له لسلطان مصر وهو آنذاك الملك الأشرف "قنصوه الغوري"

---

(1) ابن أياس: بدائع الزهور، 246/2.

(2) محمد رزوق: المرجع السابق، ص64. كذلك محمد حتاملة: المرجع السابق، ص92، صبحي، حسن: الشرق الأدنى في ظل الأتراك العثمانيين، (بيروت، 1967م)، ص19-20.

(3) حسين مؤنس: عالم الإسلام، (القاهرة، 1973)، ص462. كذلك محمد عنان: المرجع السابق، ص221.

(4) محمد رزوق: المرجع السابق، ص64. كذلك محمد عنان: المرجع السابق، ص222.

ليقنعه بحسن معاملة الملكين الكاثوليكيين للمسلمين بالأندلس، لكن الأندلسيين والمغاربة هناك كانوا يشرحون باستمرار الملك الأشرف ما يلاقيه المسلمون هناك، مما أدى به إلى أن يطلب من السفير الانصراف، لكن هذا الأخير أقنعه بحسن نيته وصدق رسالته[1].

وقد استنجد الأندلسيون أيضاً بالسلطان "بايزيد الثاني"، إذ بعثوا له برسالة محزنة يصف فيها كاتبها في شعر ركيك ولكن مؤثر قوي التعبير بما تفعله إسبانيا برعاياها الجدد وما يصب "المتنصرين" من تعسف محاكم التفتيش، ومطارداتها وعقوباتها[2]، وهذه بعض أبيات هذه القصيدة، بعد ما ورد فيها من ديباجة شعرية طويلة في تحية السلطان "بايزيد":

فَلَمَّا دَخَلْنَا تَحْتَ عَقْدِ ذِمَامِهِم ... بَدَا غَدْرُهُمْ فِينَا بِنَقْضِ الْعَزِيمَةْ

وَخَانَ عُهُوداً كَانَ قَدْ غَرَّنَا بَعْضُهَا ... وَنَصَّرَنَا كُرْهاً بِعُنْفٍ وَسَطْوَةْ

وَكُلُّ كِتَابٍ كَانَ فِي أَمْرِ دِينِنَا ... فَفِي النَّارِ بِهُزْءٍ وَحُقْرَةْ

وَلَمْ يَتْرُكُوا فِيهَا كِتَاباً لِمُسْلِمٍ ... وَلَا مُصْحَفاً يُخْلَى بِهِ لِلْقِرَاءَةْ

وَمَنْ صَامَ أَوْ صَلَّى وَيُعْلَمُ حَالُهُ ... فَفِي النَّارِ يُلْقُوهُ عَلَى كُلِّ حَالَةْ

وَقَدْ بُدِّلَتْ أَسْمَاؤُنَا وَتَحَوَّلَتْ ... بِغَيْرِ رِضاً مِنَّا وَغَيْرِ إِرَادَةْ

فَآهاً عَلَى تَبْدِيلِ دِينِ مُحَمَّدٍ ... بِدِينِ كِلَابِ الرُّومِ شَرِّ الْبَرِيَّةْ

وَآهاً عَلَى تِلْكَ الصَّوَامِعِ عُلِّقَتْ ... نَوَاقِيسُهُمْ فِيهَا نَظِيرَ الشَّهَادَةْ

وَآهاً عَلَى تِلْكَ الْبِلَادِ وَحُسْنِهَا ... لَقَدْ ظَلِمَتْ بِالْكُفْرِ أَعْظَمَ ظُلْمَةْ

وَلَوْ أَبْصَرَتْ عَيْنَاكَ مَا صَارَ حَالُنَا ... إِلَيْهِ لَجَاءَتْ بِالدُّمُوعِ الْغَزِيرَةْ[3].

---

(1) محمد عنان: المرجع السابق، ص272-273. كذلك محمد حتاملة: المرجع السابق، ص92.

(2) محمد عنان: المرجع السابق، ص274. كذلك حسن صبحي: المرجع السابق، ص22، محمد رزوق: المرجع السابق، ص 65 - 93.

(3) المقري: نفح الطيب، 109/1-115.

ومن المرجح أن هذه الرسالة وجهت إلى السلطان عقب ثورة البشرات وما تلاها من إجراءات قمعية سنة (906هـ/1501م)[1]. ويبدو مما ورد من أبيات القصيدة بعد ذلك أن السلطان "بايزيد" كان قد بعث إلى "فرديناند" الكاثوليكي رسالة للكف عن مطاردته للمسلمين، وكما يبدو أنهم توجهوا في نفس الوقت بصريخهم إلى مصر، وأن مصر بعثت برسالة مماثلة، ولكن الملك النصراني لم يقم أي وزن لهذه المساعي[2]، وهذا ما جاء في القصيدة موضحاً ذلك:

وَقَد بَلَغَ الْمَكْتُوبُ مِنكُمْ إِلَيْهِمُ ... فَلَمْ يَعْمَلُوا مِنْهُ جَمِيعاً بِكَلِمَة

وَمَازَادَهُمْ إِلاَّ إِعْتِدَاءً وَجُرْأَةً ... عَلَيْنَا وَإِقْدَاماً بِكُلِّ مُسَاءَة

وَقَدْ بَلَغَتْ إِرْسَالُ مَصْرَ إِلَيْهِمُ ... وَمَا نَالَهُمْ غَدْرٌ وَهَتْكُ حُرْمَة

وَقَالُوا لِتِلْكَ الرُّسْلِ عَنَّا بِأَنَّنَا ... رَضِينَا بِدِينِ الْكُفْرِ عَنْ غَيْرِ قَهْرَةٍ[3].

وهكذا استغاث الأندلسيون بالمغرب أولاً وبالمشرق الإسلامي ثانياً، وبذلوا جهودهم للحافظ على حضورهم بالأندلس[4]، لكن هل حاول أن يساءلوا أنفسهم عن أسباب الهزيمة، هل كانوا واعين بخطورة الموقف؟ هل كانوا واعين بحقيقة الحضور العربي الإسلامي بالأندلس؟

إن هذه الأمور لم تعد واضحة لديهم إلا بعد أن استيقظوا من هول المأساة، فأصبحوا يصرخون للغير ويتأملون لأنفسهم، وعندما خابت الآمال والأماني التي كان يعلقها مسلمو الأندلس على أخوانهم في الدين في بلاد المغرب والمشرق، لم يبق أمامهم سوى خيارات ثلاث: الموت، أو التنصير القسري، أو الهجرة القسرية خارج البلاد[5].

---

(1) محمد رزوق: المرجع السابق، ص65-66.

(2) محمد حناملة: المرجع السابق، ص99.

(3) المقري: نفح الطيب، 1/109-115.

(4) محمد رزوق: المرجع السابق، ص66.

(5) Alfredo Opisso: Historia de Espána y de las Republicas Latino-Americanas, tomo VIII, Barcelona (Sinano) Cap. XII, pags 252.

لقد فضل الكثيرون البقاء في بلادهم، والقبول بالأمر الواقع، والتنصير القسري، ولو بالظاهر، حيث صعب عليهم مفارقة بلاداً ولدوا فيها، ونشأوا تحت سمائها، وامتزج حبها بدمائهم وعمّرها الآباء والأجداد ما يقرب من ثمانية قرون من الزمن[1].

وهناك فريق آخر أبت عليه عزة الإسلام أن يعيش ذليلاً، أو متنصراً تحت راية العدو، فهام على وجهه في مشارق الأرض ومغاربها، فمنهم من رحل إلى مصر وبلاد الشام، والكثيرون منهم رحلوا إلى بلاد المغرب العربي، وجنوب فرنسا، وصقلية، وقسم ذهب مع الرحلات الاستكشافية مع كريستوف كولومبس إلى أمريكا الوسطى والجنوبية[2].

إن عملية إخماد الانتفاضات والثورات التي قامت في وجه النصارى من طرف الموريسكيين، كلفت خزينة الدولة في عهد الملكين الكاثوليكيين، ما يقارب من (80) مليون مرافيدي[3]، إذ شارك في إخماد هذه الثورات والانتفاضات 13 ألف فارس، و50,000 من المشاة، وألفي قطعة من المدفعية، وبلغت الديون التي استداناها حوالي 375 مليون مرافيدي[4].

ومن أجل هذه الحروب المتواصلة، استقدم الملكان الكاثوليكيان الخبراء والعلماء من جميع أنحاء أوروبا، خاصة فرنسا وإيطاليا بالإدخال التحسينات على المدفعية،

---

(1) محمد حتاملة: المرجع السابق، ص100.

(2) المرجع نفسه، ص101.

(3) مرافيدي: Aravedis أو Morabetino عملة أسبانية قديمة تشير إلى عصر المرابطين ونفوذهم السائد بالأندلس، فهي الدينار المرابطي المذهب الذي أصبح لصحة وزنه وعياره - النموذج المحتذى به في بلاد المغرب والأندلس، وقد تم سكه في مدن مغربية وأندلسية معاً، بيد أن قيمة "المرابطي" صارت تتأرجح وصفاتها أصبحت تختلف باختلاف العصور لدرجة أنها في العهود المسيحية المتأخرة بأسبانيا اختصرت وقسمت إلى ما يعرف بالبليون "Vellon" الذي كان يسك إما من مزيج من الفضة والنحاس معاً، وإما من النحاس وحده. ينظر محمد حتاملة: المرجع السابق، ص101.

(4) محمد حتاملة: المرجع السابق، ص101.

وتحضير التجهيزات لصناعة المدافع والطلقات والبارود، وشتى أنواع الأسلحة في ذلك العصر[1].

وفي السنوات التالية، قام الملكان الكاثوليكيان بإنشاء جيش من المرتزقة، ضم أفراداً عديدين، جلبوا من أقطار عديدة، كإيطاليا والبرتغال وألمانيا وفرنسا وإنجلترا وسويسرا، وقام هذا الجيش بشن غارات عديدة، على بلاد المغرب العربي لضرب القوى الإسلامية فيها[2].

رابعاً: تطور القضية الموريسكية:

1- الموريسكيون والأتراك:

كان الموريسكيون بالأندلس يتتبعون باهتمام مدى النجاح الذي حققه العثمانيون، وخاصة بالجزائر التي أصبحت حصناً منيعاً يلتجئ إليه المهاجرون الأندلسيون[3]. وقد هاجم "خير الدين بربروس" قائد الأسطول البحري العثماني بتلك المنطقة مراراً السواحل الشرقية للأندلس، وجمع في سفنه كثيراً من الموريسكيين الراغبين في الهجرة وأسر كثيراً من الأسبان النصارى[4]، ولقد لقي عمل "خير الدين" هذا استحساناً كبيراً من لدن مسلمي الأندلس، فقد جاء في رسالة بعث بها أهالي "غرناطة" إلى السلطان "سليمان القانوني" إمبراطور الدولة العثمانية سنة (939هـ/1541م) ما يأتي: "وقد كان بجوارنا الوزير المكرم، المجاهد في سبيل الله: خير الدين وناصر الدين، وسيف الله على الكافرين، علم بأحوالنا، وما نجده من عظيم أهوالنا لما كان بالجزائر. فاستغثنا به

---

(1) Joaquin Durany y lerchundl: Latoma Granda y Caballeros que concurrieron a ella tomo II. Madrid 1.893. pags 126-127 y 146.

(2) محمد حتاملة: المرجع السابق، ص103.

(3) محمد رزوق: المسلمون بأسبانيا خلال القرن السادس عشر. مجلة البحوث التاريخية، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، العدد الثاني، 1992، ص173.

(4) المرجع نفسه، ص173.

فأغاثنا وكان سبب خلاص كثير من المسلمين من أيدي الكفرة المتمردين، ونقلهم إلى أرض الإسلام[1].

وقد أظهره قادة إسبانيا النصرانية خوفهم من اتحاد كلمة الموريسكيين مع العثمانيين فشددوا المراقبة على موانئهم بل ذهبوا بقرار من الملك إلى إنشاء "مليشيا" لرد هجمات المغاربة الخطيرة على السواحل الإسبانية[2]. وبعد فشل حملة "شارل الخامس" على الجزائر سنة (1025هـ/1541م)، والأصداء التي تركتها خاصة لدى الموريسكيين بدأ هؤلاء يتطلعون إلى نجدة السلطان "سليمان القانوني"، وبالفعل ففي أقل من شهر فقط من هزيمة "شارل الخامس" أمام الجزائريين بعث مسلمو الأندلس برسالة إلى السلطان العثماني يوضحون فيها له:

أ- ما يقاسي الموريسكيون من طرف محاكم التفتيش والقرارات الجائرة التي سلطت عليهم: "فإن عبيد الفقر (كذا) المساكين المنقطعين بجزيرة الأندلس وجملة عدتهم ثلاثمائة ألف وأربعة وستون ألفاً ... رافعين شكواهم وما يلاقون من بلواهم باكين متضرعين مستنصرين بعناية السلطان ... لما أصابهم من أعداء الدين وطغاة المشركين، وما هم فيه من مكابدة ومقاسات (كذا) التضييق والأضرار، وجور أهل الشرك أثناء الليل وأطراف النهار وتحريقهم إيانا بالنار ..."[3].

ب- الشكاية من أهل المغرب: "... وطالت بنا الأيام وعاشت فينا يد النكاية والإسلام، وخذلنا جيراننا ببلاد المغرب من أهل الإيمان ..."[4].

ج- اعتبر محررو هاته الرسالة أن المرسل إلى الجزائر هو تعزيز شوكة المسلمين، ولذا طالبوا بإعادة تعيين "خير الدين باشا" على الجزائر ليعمل من جديد ضد العدوان الإسباني النصراني، وإنقاذ مسلمي الأندلس: "... وهم عازمين (كذا) –

---

(1) التميمي، عبد الجليل: "رسالة" من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541م، المجلة التاريخية المغربية، العدد 3، 1975، ص45-46.

(2) عبد الجليل التميمي: المرجع السابق، ص45.

(3) المرجع نفسه، ص45.

(4) المرجع نفسه، ص45.

الإسبان – على الجزائر والله تعالى هلكهم وينصر دينه وهو نعم الناصرين يا مولانا سلطان البرين والبحرين نصركم الله المدد لنصرة الجزائر لأنها سياج لأهل الإسلام، وعذاب شغل لأهل الكفر والطغيان ... وقد اتفق جمعنا من المسلمين المذكورين على رفع الشكو (كذا) إلى مولانا السلطان الأعظم سلطان الإسلام ..."[1].

ونتيجة لهذه العلاقات القوية بين الموريسكيين والعثمانيين، وما كانت تسببه من مشاكل تعوق تنفيذ مشروعه (وحدة الجبهة المسيحية)[2]. فإنه كان يتصور فتح القسطنطينية من جديد وإعادة وحدة الإمبراطوريتين الغربية والشرقية. إن هذه الحمية الدينية المتأصلة في "شارل الخامس"، هي التي كان محورها الأساسي في نظرته ورؤيته وحدة العالم المسيحي التي لا تنفصم خاصة أنه كان يعتبر نفسه المسؤول والحارس الأول عن سلامة العقيدة المسيحية[3]، وهذا ما جعله أيضاً يعتبر الإسلام عنصر تهديد خطير لمشروعه، وبالتالي يجب تسخير كل الوسائل للقضاء عليهما يسبب له هذه المقاومة الموريسكية العنيفة في الداخل والخارج[4].

اعتبر الأسبان النصارى هذه المقاومة ضمن أعمال اللصوصية (El Bandolerisom) التي كانت سائدة بإسبانيا آنذاك نتيجة الأزمات الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تعرفها المنطقة، لكنها كانت غير ذلك بالنسبة للموريسكيين فهي تدخل في إطار المواجهة الحضارية المستمرة بين المسلمين والمسيحيين[5]، وبالتالي فإن الأعمال التي كانوا يقومون بها لم تكن في نظر الموريسكيين قط أعمالاً إرهابية أو لا أخلاقية وعفوية، بل كانت أعمالاً هادفة ومخططاً لها مسبقاً، فهي من قبيل الأعمال

---

(1) عبد الجليل التميمي: المرجع نفسه، ص46. كذلك محمد رزوق: المرجع السابق، ص175.

(2) محمد رزوق: المرجع السابق، ص175.

(3) Hugo Hantsch, le probleme dela lutte contre j'invastion turque dans l'idee politique generale de chains-ouint, in Charles Quint et son tems. p. 55.

(4) Hugo Hantsch, le probleme dela lutte contre, p.56.

(5) محمد رزوق: الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، ص87.

الفدائية وحروب التحرير لمقاومة موجات القمع الأسباني النصراني الموجـه ضـدهم لمسخ حضارتهم ولفني كيانهم[1]، وترتكز هذه المقاومة على ثلاثة عناصر أساسية:

1- "Gandules" هم أعضاء المليشيات المسلحة بالمدن وينضم إليها غالبـاً الـشبان وهي مستعدة دائماً للقيام بأعمال عنف داخل المدن، ويبدوا أنه كان لها دور كبيـر في انتفاضة (966هـ/1568م) بغرناطة[2].

2- "Piratas" وهم في مفهوم النصوص الإسبانية أولئك المجاهدين الذين ينطلقون من شمال أفريقيا انطلاقاً من "الجزائر" و"تطوان" و"العرائش" و"سلا" للقيام بغارات على السواحل الإسبانية، وهم يعملون دائماً بالطريقة نفسها ويقود هؤلاء بعض الموريـسكيين المهاجرين وينزلون أول الأمر في مكان خالٍ، ومن هناك ينطلقون إلى قرية ما ويقومون بعمليات انتقامية ضد المسيحيين والعمليات من هذا النوع متعددة خلال القرن الـسادس عشر على السواحل الإسبانية، انطلاقاً من قادس إلى جزر البليار[3].

وكثيراً ما تؤدي هذه العمليات إلى خراب العديد من القرى، ويرجع نجاح هـذه العمليات إلى المشاركة الفعالة للموريسكيين بالمنطقة الذين غالباً ما يكونا على علم بالحملة[4].

وقد كانت للمجاهدين البحريين شبكة قوية من المعلومات داخل إسبانيةن بوساطة (المنفيين)[5].

---

(1) المرجع نفسه، ص87.

(2) Bernard Vincent "Les bandits Morisques en Andalousie au x vie le siecle, in Revue l'histoire moderne et contemporaine. 1974, XXI, p. 389.

(3) Bernard Vincent, op. cit., p. 390.

(4) Bernard Vicent, op. cit., p. 390.

(5) Ibid, 390.

3- "Monfies" المنفي في قاموس الأكاديمة الإسبانية هو الموريسكي الـذي يـشكل جزء من عصابات "Salteadores" بمنطقة الأندلس بعد عمليات إعادة الغزو، هو عبارة عن مجرم لا غير[1].

أما بالنسبة للموريسكيين فهو بطل الحرية، بل رمز الورع والصلاح[2]. ولهـذا السبب نرى أن الموريسكيين يتعلقون به كثيراً ويجلونه باعتباره رمز تحررهم مـن قمع الكنيسة، وهم يهاجمون فقط المسيحيين من رجال الـدين وأصـحاب الفنـادق والتجار، وبالنسبة لرجال الدين لا يخفى أن الرهبان كـانوا دائمـاً محـط أنظـار الموريسكيين إذ كانوا بالنسبة لهم رمزاً للقمع، أما بالنسبة لأصحاب الفنـادق فقـد كانوا بالضرورة مسيحيين وكانوا يستخدمون مخبرين للسلطات الإسبانية النصرانية، وبالنسبة للتجار فإنهم يصادفونهم في الطريق المفـضلة لـديهم للقيـام بعمليـاتهم الانتقامية[3]، وقد كانت هذه المقاومة تقلق بال الإسبانيين النصارى باستمرار كمـا يتجلى ذلك من خلال المطالب التي قُدمت للسلطان لمواجهة هذه الأعمال[4].

2- الموريسكيون في عهد فيليب* الثاني (963-1006هـ/1556-1598م):

---

(1) Ibid, 390.

(2). Bernaldo de Quh os et L. Ardica, "El Bandolerisom andaluz in, Les Bandits Morisques en Andalouise", p. 390.

(3) Camara Cedulas AGS, n, in bendits Morisques... 255 Vol. 65, p. 391.

(4) Archives minicipales de Grenade, provision. I Fo. 162 in - "Les Bandits Morisques...", p. 391.

* فيليب الثاني: هو ابن الملك شارل الخامس تولى الحكم بعد والده في الفترة من (963-1006هـ/1556-1598م)، سار فيليب الثاني في نفس الإستراتيجية العامة التي حددها له أبوه، فقـد بـادر إلـى بـذل مجهوداته، فقد وضع حد للتناقضات السياسية الصارخة بينه وبين فرنسا وإنجلترا، وتوج عملـه بعقـد معاهدة "كاتو كبريسس" (Cateau-Gambrésis)، بتاريخ 2 و3 أبريل سنة 1559م. وأصـبح فـي استطاعته تحويل اهتمامه إلى الخطر الأساسي الخارجي المتمثل فـي التوسـع المخيـف للعثمـانيين وبحارتهم في حوض البحر الأبيض المتوسط، والذي يهدد ليس فقط النظـام الـسياسي والاقتـصادي

لم يكن المشكل الموريسكي ينحصر بين طرفين، أو كما كانت تدعي أسبانيا النصرانية مشكلاً داخلياً، بل كان مشكلاً عالمياً يؤثر على العلاقات بين القوتين العظميين إسبانيا النصرانية وتركيا، وبالتالي كان على "فيليب الثاني" أن يتخذ إجراءات أكثر زجرية في حق من يساعدون أعداءه[1]. وأصبح في استطاعته تحويل اهتمامه إلى الخطر الأساسي الخارجي المتمثل في التوسع المخيف للعثمانيين وبحارتهم في حوض البحر المتوسط، والذي يهدد ليس فقط النظام السياسي والاقتصادي والتجاري للقارة الأوربية – حسب رأيهم – بل أيضاً الدول المسيحية على الإطلاق[2]. وقد عبّر "فيليب الثاني" عن هذه المشاغل في رسالة كان قد بعث بها إلى دوق فلورنسا يقول فيها: "... برضاء من الله تمت المعاهدة وإقامة السلم مع المسيحي الغيور الملك الفرنسي، فقد بد ليّ أنه طاعة الله وخدمة للدين المسيحي، وحتى لا تبقى جميع السفن تحت إمرتي بإيطاليا عاطلة عن التحرك خلال هذا الصيف، فإننا سنستعملها، للقضاء على القراصنة لنضمن الحرية البحرية ... وعلى هذا الأساس أذنت بالحملة على طرابلس الغرب ..."[3].

ويدخل في هذا الإطار أيضاً ما أورده السفير الأسباني في البندقية "غارسي هرنانديز" (Garci Hernandez) في رسالة بعث بها إلى ملكه يخبره فيها أن العدد الكبير من الموريسكيين الفارين الذين نجحوا في عام (958هـ/1560م) في الوصول إلى القسطنطينية، عبر "البندقية" وقد استخدمتهم تركيا جنوداً ومترجمين وجواسيس، ويبدو أنهم في هجرتهم كانوا يكونون أحياناً جماعات تنتظم تحت رئاسة واحد منهم[4].

والتجاري للقارة الأوربية، بل أيضاً الدول المسيحية على الإطلاق. ينظر: محمد رزوق: المرجع السابق، ص89.

(1) محمد رزوق: الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، ص89.

(2) عبد الجليل التميمي: "الخلفية الدينية للصراع الأسباني – العثماني على الولايات المغربية في القرن السادس عشر"، المجلة التاريخية المغربية، العدد 3، 1975، تونس، ص13.

(3) F. Braudel, op. cit., 2 oc 282.

(4) محمد رزوق: المرجع السابق، ص89. كذلك عبد الجليل التميمي: المرجع السابق، ص14.

وعندما استجوب بعضهم حول علاقتهم مع الأتراك العثمانيين فإنهم أجابوا: ليس هناك من موريسكي واحد لا يقدم نفسه طواعية للأتراك في ظروف المعاملة السيئة التي تُلاحق بها أسبانيا النصرانية الموريسكيين[1]. كما أن التقارير الواردة إلى "مدريد" من الجزائر تُفيد أن مدينة "شرشال" قد عمرت تماماً من طرف الموريسكيين، وأن علاقتهم قوية مع أقاربهم وإخوانهم بالسواحل الإسبانية[2].

قضى "فيليب الثاني" على آخر ما تبقى من السياسة المعتدلة التي حاول أن ينتهجها أبوه، فأصدر عدة مراسيم تُبين من جهة مدى الفزع الذي أصابه من غزو إسلامي جديد، وتبين من جهة أخرى مدى التأثير الذي كان يمارسه رجال الكنيسة على الملك لجعل السياسة في خدمة الدين[3]. وهذه جملة مراسيم أصدرها الملك وكلها تدور في نفس الاتجاه[4]:

أ- أصدر قراراً في عام (958هـ/1560م)، يُحرِّم فيه على الموريسكيين اقتناء العبيد السود حتى لا يدينو بالإسلام. وقد تقدم الموريسكيين بطلبات تظلم يوضحون فيها مدى الآثار السيئة والسلبية المترتبة على هذا القرار، وبقيت المسألة كذلك إلى حين صدور قرار الملك في مطلع سنة (961هـ/1563م) برفض شكوى الموريسكيين[5].

ب- في سنة (961هـ/1563م) أصدر الملك أمراً: يجدد فيه الأمرين الصادرين عام (923هـ/1526م و969هـ/1552م) والمتعلقين بتحريم اقتناء الأسلحة بدون تراخيص[6]. ويأمر الموريسكيين بتقديم جميع أسلحتهم لختمها في مدة أقصاها خمسون يوماً، كما ينص المرسوم على أن من يمتنع عن تسليم أسلحته بعد المدة

(1) Braudel, op. cit., 2 oc 348.
(2) Ibid, 2. 301.

(3) محمد رزوق: المرجع السابق، ص90.
(4) المرجع نفسه، ص90.
(5) عبد الجليل التميمي: المرجع السابق، ص16.
(6) المرجع نفسه، ص17.

المذكورة يُعرض نفسه للأشغال الشاقة لمدة ست سنوات، ولا يجوز لأي موريسكي أن يقتني الأسلحة إلا أن تكون مختومة بخاتم الحاكم العام[1].

وفوض الملك إلى الحاكم العام لمنطقة غرناطة أمر تحديد العقوبة المترتبة على مخالفات حمل السلاح[2]. وبناءً على هذا التفويض جعل الحاكم العام الإعدام عقوبة للمخالفين، ووافق الملك على ذلك. وقد أدى هذا الأمر إلى مآسي كثيرة وإلى ملاحقات غير مشروعة وإلى ابتزاز أموال الموريسكيين[3]. ولم يكن أمامهم أمكنة يلتجأون إليها غير الكنائس وأراضي السادة الإقطاعيين، ولكن الملك سد الطريق أمامهم، إذ أصدر أمراً حدد فيه حق اللجوء إلى الكنائس بثلاثة أيام، وحرم على السادة الإقطاعيين إيواء الهاربين[4]. لذلك لم يبق أمامهم غير اللجوء إلى الجبال والانضمام إلى طوائف "المنفيين" إذ استمرت تقوم بأعمال فدائية كبيرة بالمنطقة، وتعاظم أمرها إلى أن سيطرت على المنطقة الممتدة من جبال البشرات إلى روندة، وبلغ من جرأتهم أنهم كانوا يصلون إلى أبواب غرناطة متحدين بذلك السلطات. ومنذ ذلك الحين بدأت تختمر فكرة القيام بالثورة وبدأ الإعداد لها[5].

ج- الأوامر الصادرة عام (964هـ/1566م): تدخل البابا، إذ أبلغ "فيليب الثاني" بضرورة اتخاذ تدابير صارمة بحق الموريسكيين، وأنه يعتبر الملك مخطئاً في (التسامح) الذي يبديه في ترك الموريسكيين يقيمون على عاداتهم وتقاليدهم الإسلامية القديمة[6].

---

(1) Maria Soldad Carrasco Urgoiti, El problema Morisco en Aragon al comienzo del reinado de Felib II Capt. IV, pags 56-57.

(2) أسعد حومد: محنة العرب في الأندلس، ص178.

(3) محمد رزوق: الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، ص90.

(4) أسعد حومد: المرجع السابق، ص179.

(5) المرجع نفسه، ص179-180.

(6) محمد رزوق: المرجع السابق، ص91.

وقد تألفت لجنة لوضع الاقتراحات اللازم اتخاذها على الأنظمة المطبقة على الموريسكيين(1). واقترح الرهبان والقساوسة أن تزداد التدابير الواردة في الأمر الملكي الصادر عام(923هـ/1526م)، وقد أصدرت عدة توصيات منها:

1- منع استعمال اللغة العربية، وتُمنح الموريسكيين مهلة ثلاثة أعوام لتعلم اللغة القشتالية، ولا يُسمح بعد ذلك بالتكلم بها. وكل المعاملات والعقود بهذه اللغة تعتبر باطلة، ويجب تسليم الكتب العربية في ظرف ثلاثين يوماً(2).

2- منع استعمال الألبسة العربية، إذ يستعمل منها فقط ما كان مطابقاً لألبسة النصارى(3).

3- إجبار النساء الموريسكيات على كشف وجههن(4).

4- إجبارهن على ترك أبواب بيوتهن مفتوحة في أيام الأعياد لمراقبة ما يجري فيها(5).

5- يُمنع الموريسكيين منعاً كلياً من امتلاك العبيد(6).

وافق الملك على هذه التوصيات، وأصدر أمره بتنفيذها. ورغم المحاولات التي بذلها الموريسكيون، سواء في غرناطة أو لدى العرش الأسباني نفسه، فإن السلطات الدينية استمرت في تنفيذ القرارات الملكية بكل قساوة معتبرة "أن الموريسكيين جبناء ولا سلاح لديهم ولا حصون"(7)، وبالتالي فإن تطبيق الأوامر الملكية لن يعترضها أي

---

(1) أسعد حومد: المرجع السابق، ص179-180.

(2) Jacqueline Fournel - Guerin, les Morisques aragonais et l'inquisiton de saragose (1540-1620), these inedite, Montpellier III, 1980, pp. 155-176.

(3) محمد رزوق: المرجع السابق، ص91.

(4) Jacqueline Fournel - Guerin, Les Morisques, p. 197.

(5) Julio Caro Baragjo, Les Moriscos del reino de granada, p. 159.

(6) Julio Caro Barajo, Les Moriscos del reino de granada, pp. 159-160.

(7) Prescott, Philip II of Spain, 3.12-29.

حاجز، لكن الأمر كان على العكس تماماً، إذ اندلعت الثورة الكبرى بغرناطة متحدية بذلك جميع القرارات الصادرة عن العرش الإسباني[1].

لقد اندلعت الثورة في أواخر سنة (965هـ/1568م)[2] ولعل هذا التوقيت كان مخططاً له مسبقاً، إذ أن إسبانيا كانت منشغلة بثورة الأراضي المنخفضة وجندت العديد من سكانها لهذا الغرض، كما أن السواحل الأندلسية كانت مقفرة بسبب الحرب والخوف من الغارات البحرية الإسلامية[3]، وقد كان لهذه الثورة صدى على الصعيدين الداخلي والخارجي وشغلت الأسبان والأوربيين بصفة عامة لمدة سنتين[4].

كان زعيم الثورة "فرج بن فرج" قد بدأ عدته وأخبر مواطنيه بذلك، وبعث برسله إلى المغرب والجزائر، ولكن العملاء المندسين بين صفوفهم بلّغوا رئيس المجمع الملكي بذلك مما جعل الثورة مكشوفة أمام الأسبان[5]. إلاّ أن الثوار عادوا مرة أخرى إلى تدبير الثورة، وفي اليوم الموعود بعث "علي باشا" والي الجزائر التركي إمدادات إلى الموريسكيين نزلت على الساحل الأندلسي في جهتي "المرية" و"مربلة" ثم سارت إلى الأماكن المحددة لها[6]. ولم تمض أيام حتى انضم إلى ابن فرج موريسكيين آخرين من البشرات، ومن جميع أنحاء مملكة "غرناطة" وقد قدر عدد الثوار في مطلع الثورة بـ (4000) ثائر. ويذكر "Sauli" "صولي" وهو عميل "جنوة" السياسي في إسبانيا لحكومته: "إن بعض الناس يقولون أنهم أكثر من ذلك بينما يؤكد آخرون أنهم أقل ... وأن بينهم بعض الأتراك وقد خرج عدد وفير من الفرسان والمشاة من قرطبة وغيرها

---

(1) Ibid. 3.29-33.

(2) محمد عنان: نهاية الأندلس، ص361. كذلك .Prescott, Philip II of Spain, 3, 12-29

(3) ليلى الصباغ: ثورة مسلمي الأندلس، مجلة الأصالة الجزائرية، ص116-175. كذلك محمد حتاملة: التهجير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملك فيليب الثاني، مج 2، العدد الثاني (عمان، 1981)، ص27-96.

(4) ليلى الصباغ: المرجع السابق، ص117.

(5) موريسكي مجهول، ص117 = عن محمد حتاملة: المرجع السابق، ص33.

(6) موريسكي مجهول، ص123-124 = عن محمد حتاملة: المرجع السابق، ص37.

من الأماكن ..."[1]. وإذا كان "صولي" لا يُظهر قلقه من الحركة فإن "فوركفو" سفير فرنسا كان أكثر تشاؤماً[2].

ويبدو أن الثورة لم تكن لمطلب، كرجوع الحكومة الإسبانية عن قرارها السابق، أو السعي لرفع مختلف ضروب الظلم والتعسف عن الموريسكيين، أو الإلحاح على معاملتهم كمواطنين كاملي الحقوق كغيرهم، وإنما كانت ذات هدف ثوري إيجابي عميق هو إعادة تكوين مملكة غرناطة، وهكذا أعلنوا استقلالهم[3].

ومهما كان الحجم الحقيقي لثورة "غرناطة" في الخارج، واستغلالها على المستوى الدولي، فإنها قد هزت أسبانيا هزاً عنيفاً، فقد أثبت لها مرة أخرى أن مراس المسلمين لا يزال شديداً وأن قواهم الجهادية كانت لا تزال في عنفوانها[4].

ومع كل العنف الذي صاحب الثورة، ومع أنباء الإخفاق الأسباني في إخمادها، فإن "فيليب الثاني" لم يُظهر تشاؤمه، فقد ادعى أن الأتراك لديهم مشاغل غير هذه الثورة، وأن النجدة الجزائرية غير ممكنة لأن حراسة السفن على السواحل الأندلسية شديدة[5]، إلا أن عملاءه السياسيين في الخارج لم يكونوا يشاطرونه هذا الرأي لأن أخبار حربه مع ثوار غرناطة، وإخفاقها كانت مدوية في الخارج، وقد ضخمتها الإشاعات المختلفة حتى أن عميله في لندن أعلمه بأن الأمر سيصل بالناس إلى الإشاعة بأن ممالك إسبانية أخرى قد ثارت ضد الملك[6] وهذا بسبب رأيه انتقاص من هيبته[7].

---

(1) Braudel, op. cit., 2.368.

(2) Ibid, 2:368.

(3) Marmol Carvajal, Historia del rebelion y castigo de Los Moriscos del reino de Granada, IV, cap. VII.

(4) محمد رزوق: المرجع السابق، ص92-94.

(5) محمد رزوق: المرجع السابق، ص93. كذلك ليلى الصباغ: المرجع السابق، ص175.

(6) Braudel, op. cit., 2, 361.

(7) Ibid, 2, 362.

كذلك قشتيلو، محمد: محنة المورسكوس بأسبانيا، (تطوان، 1980)، ص34-66.

وفي الواقع أقلقت هذه الثورة الأسبان والعروش الكاثوليكية في أوربا، لأنها جاءت وسط تحركات دينية ثورية بروتستانية كانت تمزق أوروبا وهذا ما عبر عنه سفير فرنسا "فوركفو" عندما قال: "إنها دليل آخر على أن هذه الأزمنة هي أزمنة ثورات الرعايا ضد أمرائهم الشرعيين، فبالأمس كانت ضد "شارل التاسع" في فرنسا، وضد "ماري ستيوارت" في اسكتلندا، وضد الملك الكاثوليكي في "فلندرا"، فالعالم اليوم نازع إلى الثورة والرعايا متجهون إلى التمرد ..."[1]. وقد ردّ "شارل التاسع" على سفيره قائلاً: "أنني آمل أن يعاقب هؤلاء الثوار وكل أولئك الذين حملوا السلاح مثلهم بهدف بلبلة دولة ملكهم وسيدهم"[2].

ورغم تمكن الأسبان من القضاء على هذه الثورة فإن المقاومة ظلت مع ذلك مستمرة، إذ كانت تنطلق أساساً من (الجماعات)[3] "Algamas" الغنية، والمألوفة في كل مكان من أراجون وبلنسية، وقد كانت هذه الثورات متعددة لكن أهمها هي التي واجهتها محاكم التفتيش في كل من "بلنسية" و"سرقسطة" بين سنتي (973-983هـ/1575-1585م)، إذ وجهت فيها النداءات المتكررة إلى جميع موريسكيي الأندلس وإلى الدولة العثمانية، وإلى البروتستانت، ففي سنة (973هـ/157م) مثلاً توصل محققو "بلنسية" و"سرقسطة" إلى أن موريسكيي المنطقة مدفوعين من طرف

(1) Braudel, op. cit., 2, 361.

(2) Ibid, 2, 361.

(3) "Aljamars" (الجماعات): تنظيمات موريسكية سرية كانت تقوم بربط الاتصال بين الموريسكيين بعضهم ببعض من جهة، وبينهم وبين الأتراك من جهة أخرى، وكانت تضم أعيان الموريسكيين، وأغنياءهم أي من الذين كانت لهم الوسائل المادية والمعنوية لتنفيذ مخططاتهم، كما كانت تتكون من المثقفين الذين يستطيعون ضمان استمرارية المجتمع الموريسكي وهكذا فقد كانت هذه التنظيمات تحث باستمرار الموريسكيين على الحفاظ على دينهم والابتعاد عن كل ما من شأنه أن يشوش على عقيدتهم
- محمد رزوق: "المسلمون بأسبانيا خلال القرن السادس عشر"، مجلة البحوث التاريخية، ص180.

الموريسكيين المطرودين من "غرناطة"، يهيئون انتفاضة عارمة بمساعدة الأسطول العثماني وسفن جزائرية[1].

وهكذا ظل الصراع مستمر على أشده بين الطرفين حيث أشار المؤرخ الفرنسي المشهور "فرديناند بروديل" "Frdinand Broudel" إلى: "أن المشكل الموريسكي صراع ديني، وبمعنى أعمق صراع حضاري، وهو بهذه الصفة يصعب حله وبالتالي فهو مدعو لأن يستمر"[2].

وبالفعل كان كل طرف متشبثاً بهويته الحضارية، بل ويحاول أن يستوعب الآخر، فمن خلال مناقشة جرت "بغرناطة" (خلال القرن السادس عشر) بين "الشهاب الحجري" وقس هناك، سأل هذا الأخير الأول قائلاً: "أنتم الأندلسيون (كذا) فيكم عادة غير محمودة إنكم لا تمشون إلا مع بعضكم مع البعض، ولا تعطون بناتكم للنصارى القدماء (كذا) ولا تتزوجون مع النصرانيات القدماء (كذا) ..."[3].

فأجاب الشهاب الحجري: "... لماذا نتزوج النصرانيات القدماء، وكان بمدينة "أنتقير"[4] رجل من قرابتي عشق بنتاً نصرانية، ففي اليوم الذي مشوا فيه بالعروسة إلى الكنيسة ليتم النكاح احتاج يلبس العروس الزرد[5] من تحت الحوايج، وأخذ عنده سيف لأن قرابتها حلفوا أنهم سيقتلونه في الطريق وبعد أن تزوجها بسنين لم يدخل إليها أحد

---

(1) Raphail Carrosco, Peril Ottoman et Solidarite Morisques, in Revue d'histoire maghrebine, no. 25-26, Juin 1982, p. 34.

(2) Braudel, F. "Conflits et refus de civilisation. Espangols et Morisques au XV lle aiecle in Annales, Economies, Societes, Civilisation, II Octobre-Decembre 1974, no. 4, p.

(3) الحجري، أحمد بن قاسم: ناصر الدين القوم الكافرين، تحقيق محمد رزوق، (الدار البيضاء، 1987)، ص21.

(4) أنتقير "Anterquera": إحدى مدن الأندلس وتبعد عن مالقة بنحو 60 كم = محمد رزوق: المرجع السابق، 103.

(5) الزَّراد: صانعوا الزرد. الزرْد حِلقُ المغفر والدرع. والدرع والجمع زرد = المعجم الوسيط، تأليف المجمع اللغوي للغة العربية، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، ط1 (استنبول، 1960م)، ص391.

من قرابتها، بل يتمنون موته وموتها ..."[1]. ويضيف الشهاب الحجري قائلاً: "وما ذكرته عن الأندلسي والنصرانية كان صحيحاً، وأسلمت على يده، وحَسُن إسلامها غاية الحسن، وأسلمت على يدها أمها عجوزة..."[2].

فالموريسكيون، إذن لم يكتفوا بالصمود أمام حملات التبشير القوية التي كانت تُمارس ضدهم فقط، بل كانوا يحاولون باستمرار أن يقنعوا قدماء المسيحيين بوجهة نظرهم للدخول في الإسلام[3].

ورغم المتابعات المتواصلة التي كان يقوم بها المحققون فإن الفقهاء ظلوا يؤطرون الموريسكيين ويعلمونهم مبادئ دينهم، ويحثونهم على التمسك بها وعدم الانجراف وراء حملات التبشير التي كان يقوم بها الرهبان[4].

وكان لهم الدور الأكبر في حث الموريسكيين على المحافظة على هويتهم الإسلامية بالأندلس كما سيتبين لنا من خلال الدراسة.

---

(1) الحجري: المصدر السابق، ص21.

(2) المصدر نفسه، ص21.

(3) محمد رزوق: الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، ص103.

(4) المرجع نفسه، ص104.

الفصل الرابع
الموريسكيون والحفاظ على الهوية الإسلامية

أولاً: التظاهر بالتنصير وممارسة الإسلام سراً:

1- "التقية" دفاع الموريسكيين ضد النصارى.

2- الشعائر الدينية للموريسكيين.

ثانياً: المجادلة من خلال الحياة اليومية:

1- المساجد والفقهاء ركائز الحياة الدينية عند الموريسكيين.

2- رفض الموريسكيون للتقاليد والعادات النصرانية.

ثالثاً: نفي الموريسكيون وآثاره:

1- أسباب النفي.

2- مأساة النفي.

3- آثار النفي.

رابعاً: الأحوال المعيشية والعمرانية والمهارات التقنية للموريسكيين الأندلسيين:

1- أعدادهم.

2- ثقافتهم.

3- الفلاحة.

4- الري.

5- الصناعات.

أولاً: التظاهر بالتنصير وممارسة الإسلام سراً:

كان من نتائج ثورة البشرات، أن تم تنصير معظم مسلمي الأندلس، وذلك في عام (906هـ/1501م). أما في العام الذي يليه (907هـ/1502م)، فقد أنزلت أشد العقوبات الصارمة بحق الموريسكيين في كافة أنحاء المدن الأندلسية[1]، لأن أغلبية قاطني هذه المدن كانوا يقاومون مقاومة شديدة التنصير القسري[2]، وقد تم البطش بهم؛ بعد أن تم قمع ثوراتهم، أو طُبقت بحقهم الجرائم البشعة مثل، سبي النساء وقتل الأطفال، أو وضعهم في أحضان الكنيسة، وما شابه ذلك من الأعمال البربرية، وهذا يُبين سعة نفوذ البابا وتأثيره على صُنّاع القرار في أسبانيا النصرانية[3].

وتظاهر الموريسكيون، في أرغون وبلنسية[4] وغرناطة بالدخول في النصرانية ظاهرياً، حتى يبقوا في ديارهم وأوطانهم خوفاً من فقدانها إلى الأبد، ورحلت بعض المجموعات إلى خارج البلاد[5]. وخلال عام (907هـ/1502م) بدأت في الظهور الرغبة في إخراج المسلمين من الأندلس بالكامل، ووصل هذا الشعور إلى ذروته بعد مضي قرن من الزمان[6].

---

(1) محمد حتاملة: المرجع السابق، ص105. كذلك عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس، ص183.

(2) محمد حتاملة: المرجع السابق، ص105. كذلك محمد عنان: نهاية الأندلس، ص324.

(3) علي حمودة: تاريخ الأندلس السياسي، ص302-303.

(4) بلنسية: كورة ومدينة مشهورة بالأندلس، تقع شرقي قرطبة، وهي مدينة برية بحرية ذات أشجار وأنهار تُعرف بمدينة التراث، وأكثر ثمارها من القراسيا ويُنبت بكورها الزعفران، وقد ملكها الروم في سنة 487هـ/1094م. ينظر: الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله: معجم البلدان، دار صادر (بيروت، 1977)، مج1/490.

(5) محمد حتاملة: المرجع السابق، ص105.

(6) المرجع نفسه، ص105. كذلك عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس، ص183.

وفي العام نفسه اتخذت قرارات عديدة منها منع مسلمي قشتالة الاتصال، أو الاختلاط بمسلمي مملكة غرناطة، ونشر في إشبيلية[1] قراراً بتنصير قشتالة[2] وليون وإخراجهم بالقوة[3].

ولكن هذا الأمر الرهيب، لم يقتصر على المسلمين فقط، بل تعداه إلى الطوائف الأخرى؛ كاليهودية التي اتخذت بحقها نفس الأساليب[4].

وفي نفس العام المذكور لم يبق في أسبانيا النصرانية، سوى المدجنين الذين نصروا بالقوة، وفيما يتعلق بموريسكي الأندلس الذين أخرجوا من ديارهم بالقوة، لأنهم رفضوا التنصير القسري، وفي هذا السياق نذكر فقرة لأحد المؤرخين تبدو لنا ذات مغزى ومعنى حيث يقول: "كان المسلمون الذين خرجوا من ديارهم في الأندلس، يشكلون خطراً كبيراً على أمن الشواطئ الأسبانية، وبصورة عامة على الملاحة في غرب البحر الأبيض المتوسط، وقد كثرت في تلك الفترة هجمات موريسكي الأندلس، وازدادت حجماً، وزرعت الرعب في قلوب الأسبان النصارى وكانوا يأسرون من سكان الشواطئ مقابل الفدية بإخوانهم الأسرى لدى الأسبان النصارى. كل هذا نتيجة لسياسة أسبانيا النصرانية العدوانية إزاء موريسكي الأندلس"[5].

وكان المؤرخون الأسبان يُطلقون على هؤلاء لفظ "قراصنة"، كما كانت تُطلق عليهم أوروبا هذه التسمية، خاصة عندما التحقوا بإخوانهم المغربيين والجزائريين

---

(1) إشبيلية: أحد مدن الأندلس العامرة وتقع على نهر الوادي الكبير وهي معقل ملك بني عباد وتمتاز بأسوارها المنيعة، كما تكثر بها الأسواق، وحالة أهلها الاقتصادية ميسورة وأغلب تجارتهم بزيت الزيتون الذي تكثر أشجاره بها. ينظر: الإدريسي: المصدر السابق، مج2/541.

(2) قشتالة: عمل من الأعمال الأندلسية قاعدته قشتالة، سمي العمل بها، وقالوا ما خلف جبل الشارات في جهة الجنوب يسمى أسبانيا وما خلف الجبل من جهة الشمال يسمى قشتالة. ينظر: الحميري: المصدر السابق، ص483.

(3) محمد حتاملة: المرجع السابق، ص106.

(4) William Prescott: Historia de Reinado Los Catolicos, pp. 206-207.

(5) Jose Ma Doussinague: La politica internacional de Fernando el catolico Espasa-Calpe S.A, Madrid, 1, 944, Capt. II, pp.53-54.

والتونسيين حتى صارت سفنهم تصل وتهاجم شمال أيرلندا وغربي فرنسا وإيطاليا بالإضافة للشواطئ الأسبانية[1]، حتى غدت أوروبا، خاصة أسبانيا النصرانية، تحسب لهؤلاء المجاهدين ألف حساب، أما كان من الأجدى أن يعزو هؤلاء المؤرخون الغربيون أسباب غارات هؤلاء إلى مأساتهم التي حلت بهم في فقدان بلادهم، وأوطانهم، وتخريب منازلهم ومصادرة ممتلكاتهم وسبي، وقتل أطفالهم وتنصيرهم[2]، وشتى الجرائم الوحشية التي اقترفت بشأنهم؟ فأي الفريقين أولى بإلصاق لفظ القرصنة به؟ وهل كانت رغبة المؤرخين الغربيين تأييد ما حصل خلال تلك الفترة من تنصير أكثر من خمسين ألف نسمة من المسلمين؟[3].

وبعد عام (907هـ/1502م)، كان من تبقى من المسلمين الذين غلبوا على أمرهم، ودخلوا الديانة النصرانية مكرهين، يتظاهرون بقبول هذا الدين الجديد[4]. فكانوا يترددون على الكنائس، والأديرة لكي يشاهدهم الأسبان النصارى، ويرضوا عنهم بقبولهم هذه العقيدة الجديدة المفروضة عليهم[5]، لكنهم في حقيقة الأمر لم يقبلوا بالنصرانية عن الإسلام بديلاً، إلا في ظاهر الأمر، وقد استمروا في ممارستهم لشعائر دينهم الأصلي، وكانوا يؤدون فرائض الصلاة داخل بيوتهم بحذر شديد، وكانوا يغلقون على أنفسهم بيوتهم أيام الآحاد، موهمين الطرف الآخر بأنهم ذهبوا إلى الكنيسة[6].

---

(1) محمد عنان: نهاية الأندلس، ص366-367. كذلك محمد حتاملة: المرجع السابق، 106.

(2) محمد حتاملة: المرجع السابق، ص107. كذلك عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس، ص184.

(3)P. Fray Henrique Florez: Memorias de las Reynas católicas, Historia genealogica de la caso real de castilla y de León, 2 a edic. Tomo II. Madrid, 1770, p. 842.

(4) خليل السامرائي: المرجع السابق، ص308.

(5) المرجع نفسه، ص308-309.

(6) محمد حتاملة: المرجع السابق، ص111.

ونظراً للصفة السرية المطلقة التي تُمارس بها الشعائر الإسلامية في هذه الظروف الحرجة، فقد أصبحت تعاليم الإسلام وممارساته تقاليد موروثة، يتوارثها الأبناء عن الآباء جيلاً بعد جيل، في حلقات مغلقة، لها صفة المجالس السرية[1].

يشير إلى ذلك الباحث "مرثيديس غارسيا أرينال)[2]، ويذكر الدور الذي لعبته المرأة المسلمة بقيامها بدور الملقن والحارس الأمين، في نقل تعاليم الإسلام إلى أبنائها. حيث كان الدين الإسلامي يُلقن للأطفال عندما كانوا يعودون لأسرهم من الكنائس، ويبتدي تعليمهم أصول عقيدتهم الإسلامية من الثالثة عشرة حتى الخامسة عشرة، خشية من زلة اللسان، أو البوح بأمرهم لدى النصارى الذين لقنوهم النصرانية، ووضعوهم عيوناً على آبائهم، وعلى ذلك نقلت عدة وشايات فكانت مأساة مروعة، للأسر التي يبلغ عنها أبناؤها أنفسهم، وبعضهم ساعده الحظ على إقناع أولاده بتعاليم الإسلام، بعد أن ابتعدوا عنه فترة زمنية تدربوا وتعلموا خلالها في أحضان الكنيسة تعاليم النصرانية[3].

ويبدو أن محور سلسلة المشاكل الموريسكية لمسلمي الأندلس، تعود في جذورها الأصلية إلى الصراع العقائدي بعد أن زالت دولة الإسلام[4]، وأفلت شمسها في ذلك الفردوس المفقود[5]، إذ كان الاضطهاد الرهيب الذي مارسه النصارى ضد المسلمين هناك، يعود إلى تعاليم الكنيسة، وآراء رجالها في ذلك العصر[6]، وكان هذا هو الدور ذاته الذي لعبته محاكم التفتيش في أسبانيا النصرانية، وشعر المسلمون أن هناك مخططاً صليبياً رهيباً، على شكل سلسلة من المؤامرات والدسائس التي تستهدف أول ما تستهدفه، طمس آخر معالم الحضارة الإسلامية من الناحية الدينية والثقافية

---

(1) محمد عنان: نهاية الأندلس، ص329. كذلك خليل السامرائي: المرجع السابق، ص308، محمد حتاملة: المرجع السابق، ص111-112.

(2)Mercedes Garcia Arenal: Los Moriscos y la Inquisicion. Procesos del tribunal de cuenca Madrid, 1, 978, p. 25.

(3) Ibid. p. 25

(4) محمد حتاملة: المرجع السابق، ص113. كذلك عبد الحميد العبادي: المرجع السابق، ص185.

(5) محمد حتاملة: المرجع السابق، ص113.

(6) محمد عنان: نهاية الأندلس، ص384.

والاجتماعية[1]، بعد ما قضي عليها من الناحية السياسية. وحاول هؤلاء الموريسكيون بكل ما لديهم من قوة إنقاذ أنفسهم وعقيدتهم التي كانت من الأهداف الرئيسية للسياسة الإسبانية النصرانية[2].

ولذا اكتسب الدين – باعتباره أحد مقومات الوجود المميز لهم عن غيرهم – أهمية كبرى في هذا الصراع العقائدي، لكونه معقلاً يلجأون إليه، حتى لا تذوب معالم شخصيتهم في التركيبة الاجتماعية الجديدة[3].

1- "التقية" دفاع الموريسكيون ضد النصارى:

لم تكن المواجهة الجدلية ممكنة أصلاً بين المجموعتين في أسبانيا النصرانية خلال القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، فدواوين محاكم التفتيش كانت ترفض كل تسامح وحوار، ولم يبق للموريسكيين كإجراء وقائي، إلا إخفاء معتقداتهم والدخول في جلد متستر[4].

وبالإضافة إلى ذلك، فإن الإسلام يسمح لاتباعه بعدم أداء واجباتهم الدينية في ظروف قاهرة أو خشية إلحاق مضرة كبيرة للشخص[5]، ومع هذا فإن المؤمن وجب عليه أن لا يعرض حياته للخطر، الحياة التي تمثل أهم وأكبر نعمة وهبها الله سبحانه وتعالى للإنسان، ونجد مصدر هذا التسامح الذي منح للفرد في القرآن الكريم، يقول تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[6].

---

(1) محمد عنان: نهاية الأندلس، ص384-385. كذلك علي الشطشاط: نهاية الوجود العربي في الأندلس، ص99.

(2)Rafael Altamira: Manual de Historia de Espāna. Buenos Aires, 1 946, p. 400.

(3)Ibid, p. 400.

(4) لوي كارديلاك: المرجع السابق، ص90.

(5) المرجع نفسه، ص90.

(6) سورة النحل، الآية 106.

إن "التقية" الاحتياط أو الكتمان، وهو الحذر والسرية هي بالذات الكلمات التي تُشير إلى الفعل الذي بواسطته، يمتنع المسلم، الذي يعيش وسط بيئة اجتماعية عدائية، عن ممارسة دينه متظاهراً باعتناق الدين، الذي فُرض عليه فرضاً، والمؤمن وجب عليه المحافظة على العقيدة الإسلامية في أعماقه، وقد ظهر مذهب "التقية" هذا في القرون الأولى لظهور الإسلام وذلك بعد المصائب الأولى التي حلت ببعض الطوائف والفرق الإسلامية[1].

وانطلاقاً من اللحظة التي تلقى فيها الموريسكيون التعميد بالقوة، فإن المجتمع الذي شكلوه سوف يتحول إلى جمعية ضخمة ذات طابع شبه سري، وقد استمر الفقهاء في مباشرة وظائفهم سراً[2]، ومع هذا فإن الموريسكيين طوال إقامتهم بالأندلس تحت وطأة إسبانيا النصرانية يمالكهم الشعور بالظلم والحيف، وأنه وقع تغليطهم، وقد فهموا أيضاً كيف أنه عن طريق هذه الأوامر الملكية وبمجرد إمضائها، أريد القضاء على التقاليد الإسلامية العريقة[3]، ويقول المؤرخ الأسباني المسلم: "لوي دومار مول كارفاجال" "Louis de Marmol Carvajel" في تاريخه لثورة البشرات: "إن الداخلين حديثاً (في الدين المسيحي) كانوا دوماً يشعرون بالحقد تجاه ديننا وأنهم لم ينسوا أبداً، أنه في اتفاقية غرناطة، التزام الملكان الكاثوليكيان بالسماح للمسلمين بممارسة دينهم إلى الأبد[4].

إن مثل هذه الوضعية لا يمكن إلا أن تحث على الكتمان والسرية للأشخاص الذين يُجبرون على التنكر لمعتقداتهم الشخصية العميقة وهذا "اللورنت" "Llorente" في كتابه: "Historia Critica de La Inquisition en Espana" عندما كتب: "أن

(1)Claude Cahen: El Islam desde Los origenes hesta el comienzo del imperio otomano, Madrid, éd. Castilla, 1972, p. 205.

(2)Caro Baroja, Los Moriscos del Reino de Granada, p. 102.

(3) لوي كارديلاك: المرجع السابق، ص91.

(4)Louis de Marmol Carvajel, R Belion y castigo de los Moriscos de Granada, B.A.E., tome XXI, Historia dores de sucesos particulores, p. 157.

محاكم دواوين التفتيش قد وفقت عندما عاقبت فقط الأشخاص الذين لا يعرفون المكـر، ولكنها لم توفق في تبديل دين أحد منهم، وهذا كما لمسناه عند اليهود والعرب الذين تم تعميدهم بدون اقتناع حقيقي، وكان الهدف هو البقاء في إسبانيا"[1].

وفي الواقع فإن هذا المشكل بالنسبة للموريسكيين، قد وضع على النحو التـالي: ما العمل للمحافظة على الإسلام وسط المسيحيين؟ وقد اتضح ذلك مبكراً في الأندلس، لدى موريسكيي غرناطة في أوائل القرن العاشر الهجري/السادس عـشر المـيلادي، عندما أُجبروا على التعميد والتمسح[2]، وبالتدقيق فإن نص الخماديا وهـو مخطـوط: Real Academia de La Historia de Madrid T 13 عبارة عن جـواب مفتـي وهران لموريسكيي وهران الذين استفتوه في ممارسة دينهم، وهذه الفتوى صدرت عن المفتي "أحمد بن جمعة" في عام (910هـ/1504م)[3].

إن محتوى هذه الفتوى ذو فائدة مضاعفة: فقد كشفت لنا بادئ الأمر على تذكير لأهم القواعد الإسلامية الكبرى للإسلام، وقد قدمت ليس بشكل نظري، ولكن بالرجوع إلى الممارسة في وسط مسيحي. وقد جاء في هذه الفتوى تذكير بوحدانية الله سـبحانه وتعالى، والاعتراف بمحمد كرسوله، ووجوب إقامة الشعائر الدينية والقيـام بالزكـاة والتطهر والامتناع عن شرب الخمر وأكل لحم الخنزير، وكذلك منع المـسلمات مـن التزوج بالمسيحيين[4].

وكذلك تناولت الفتوى مشاكل العلاقات بين المسلمين والمسيحيين: ماذا وجـب على الموريسكي القيام به كلما أُجبر على التنكر لعقيدته وممارسة أخرى لا تمـت لـه بصلة؟ وقد درست عدة حالات، وفي كل مرة نجد الجواب الآتي: إذا كان المـسيحيون مثلاً يجبرون المسلمين على سب الرسول (ﷺ) فإنه وجب عليهم في هذه الحالة تسميته بحمد (Hamed) شأنهم في ذلك شأن المسحيين، وكذلك عدم ربطه بإنه مبعوث مـن

(1)Llorente, Historia critic… op. cit., t. I, pp. 17-18.

(2) لوي كارديلاك: المرجع السابق، ص91.

(3) المرجع نفسه، ص91-92.

(4) مرثيدس أبيثال: المرجع السابق، ص49-50. كذلك لوي كارديلاك: المرجع السابق، ص92.

عند الله، ولكن بالشيطان أو بشخصية يهودية باسم محمد[1]: "إذا طلب منك سب محمد، فإنك تتجزه تحت الأمر ولكن بنية أن تربط ذلك بشرور الشيطان أو حمد اليهودي"[2].

أما فيما يتعلق بالصلاة، فإن الموريسكي المجبر إلى التحول إلى الكنيسة في نفس الساعة التي وجب عليه أداء صلاته الإسلامية، فإنه في هذه الحالة يُعفى من أدائها وتُحسب عليه وكأنه أداها تماماً ووجهته مكة[3]. أما إذا تعذر عليه أداء صلاته في النهار، فباستطاعته تأديتها في الليل[4].

أن التطهر لأداء الشعائر هو الآخر يمكن أن يعوض: وهذا وفقاً للملابسات، كالغوص في ماء البحر، أو مسح الجسم بمادة نظيفة، تراباً أو خشباً، وإذا أجبر الإنسان على شرب الخمر أو أكل لحم الخنزير فبإمكانه القيام بذلك، ولكن بشرط أن يعتبر ذلك فعلاً فاحشاً ويدخر لنفسه حسن النية[5].

وأخيراً فإن المشكل الأساسي هو التالي: إذا كان الموريسكيون قد أجبروا على التنكر لعقيدتهم، فإنه يجب عليهم أن يكونوا مراوغين في أجوبتهم، وإذا ضغط عليهم فإنه يجب عليهم، في أعماق أنفسهم إنكار ما أجبروا على التصريح به[6]. وإذا أجبرتهم على التنكر لدينهم فليس بإمكانهم المراوغة، فليفعلوه على أن يبقى ضميرهم متمسكاً بالعقيدة ومحتقر لكل الأشياء التي يجبرون على التصريح بها[7].

إن أكثر الموريسكيين قد اختاروا البقاء بعد أن إلتجأوا إلى "التقية" التي اتخذوها وكأنها أملهم الوحيد للنجاة وطريقهم الوحيدة للحفاظ على الحياة في إطار المجموعة

---

(1)Harfe: "Crypto-Islam in XVI Spain", in, Actas del Congreso de Cordoba, 1962, pp. 305-307.

(2) لوي كارديلاك: المرجع السابق، ص92.

(3) محمد عنان: نهاية الأندلس، ص345.

(4) مرثيدس أرينال: المرجع السابق، ص50.

(5) لوي كارديلاك: المرجع السابق، ص92.

(6) المرجع نفسه، ص93.

(7) المرجع السابق، ص93.

المسيحية[1]. يقول أحد الموريسكيين الملتجئين إلى تونس عن هذا المبدأ في مقابل الاضطهاد المسيحي: "اضطهدوا أمتنا الأندلسية بالسجون والتعذيب والقتل، ومع هذا فإن أتباعنا، حافظوا بشدة على عقيدتهم الصادقة، وتظاهروا بإتباع عقيدة أخرى، في حين أن قلوبهم تؤمن بشيء آخر، وهذا ما جعلهم يسخرون من حماقتهم ومن ضعف عقيدتهم المغروفة جداً لدينا"[2].

على أن الموريسكيين قد يتخذ تجاههم القوة لحضور الطقوس الدينية وعلى الخصوص صلاة القداس، وعلى هذا الأساس فإن موقفهم لن يكون موقف الورع والنسك ونفس هذا الموريسكي عبر عن هذا الموقف حيث يقول: "تلك هي قوانين المسيحيين وهي التي نتمت نظرنا ونمارسها وأننا في بعض الأحيان نتظاهر بإتباعها، غير أن الله يعلم أننا من أعماقنا نسخر منها عندما نشاهد رفع القربان أو لمس الصدر"[3].

وظل المسلمون على عقيدتهم لم يتزحزحوا قيد أنملة، مما كان يثير الألم والغيظ في نفوس رجال الدين الكاثوليك[4]. وهكذا امتلأت القيود الحديدية، واستخدمت كل وسائل الإرهاب والتعذيب[5]. وكانت عيون محاكم التفتيش تنتشر في كل مدينة وقرية تقف بالمرصاد لأي محاولة للخروج على هذا النظام الصارم، أو على سياسة الاستيعاب المُحكمة التي وضعها المجتمع المسيحي[6].

وقاد هذا العناد والمقاومة العلنية ثم السرية (مبدأ التقية) الذي كان شأن الثقافة الموريسكية من جانب الموريسكيين من ناحية، وإصرار الكنيسة على تمسيحهم من

---

(1) فون شاك: المرجع السابق، ص129. كذلك محمد عنان: المرجع السابق، ص324.

(2) لوي كارديلاك: المرجع السابق، ص93-94 نقلاً عن مخطوط رقم 9653، المكتبة الوطنية بمدريد.

(3) لوي كارديلاك: المرجع السابق، ص94 نقلاً عن مخطوط رقم 9654، المكتبة الوطنية بمدريد

(4) محمد خطاب: المرجع السابق، ص95. كذلك فون شاك: المرجع السابق، ص128-129.

(5) محمد خطاب: المرجع السابق، ص95.

(6) لوي كارديلاك: المرجع السابق، ص105.

ناحية أخرى، إلى تفاقم المشكل الموريسكي، وإلى تردي أوضاع بقايا المسلمين في الأندلس[1].

2- الشعائر الدينية للموريسكيين:

للموريسكيين شعائرهم ومظاهرهم الدينية الخاصة التي تجسدت فيها احتفالاتهم وأعيادهم وتقاليدهم وهي:

أ - الطهور:

لكي يؤدي الموريسكي الطهور كان عليه أن يتجرد من ملابسه تماماً ويضع إناءً فيه ماء ساخن وصابون ويغسل جسده كله، ثم يُفرغ الماء ويضع ماءً آخراً نظيفاً مكانه، ويُدخل المرويسكي يديه ويقول[2]: الله أكبر الله أكبر الله أكبر، أشهد لي أمام وجه الله" وبهذه الطريقة يغسل كل أعضاء جسمه مبتدئاً بالرأس منتهيا بالقدمين، وهو يردد نفس الكلمات عند غسل كل عضو[3]، بعد ذلك يجلس الموريسكي بجوار الإناء ويأخذ الماء بكلتا يديه، ثلاث مرات، ويلقي الماء على كتفه الأيمن، ثم يضع يده اليمنى على كتفه الأيمن واليد اليسر تحت ذراعه الأيمن بحيث تلتقي اليدان عند الظهر، وإذا لم تلتقيا يأخذ عصا صغيرة لكي تلتقيا وعند التقاء اليدين، يقول[4]: اللهم صل روحي بالجنة" ثم يضع بكلتا يديه على كتفه الأيسر ثلاثاً، ثم يضع الماء على كتفه الأيمن ثلاثاً بحيث يصل المجموع إلى تسعة، بعد ذلك يرتدي قميصاً وملابس نظيفة[5].

---

(1)H. Ch. Lea the Moriscos of Spain. 1953. pp. 362-363.

(2) مرثينس أرينال: المرجع السابق، ص97.

(3) المرجع نفسه، ص97.

(4) محمد رزوق: الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، ص105.

(5) المرجع نفسه، ص105.

ب) الوضـــــوء:

عندما يتوضأ الموريسكي يأخذ دورقاً من الماء النظيف البارد ويغسل يديه ثلاثاً، وفي كل مرة يقول[1]: "اللهم نظف يدي عن أخذ الحرام، أنظفها لكي أوكد وأشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله"، وبعد غسل اليدين يغسل عورته ويقــول[2]: "اللهــم نظفت عورتي من الحرام، ثم يربت على الماء بكفيه ثلاثاً ويعود إلى غسل اليدين ثلاث مرات مردداً بنفس الدعاء، بعد ذلك يتمضمض ثلاثاً ويقول[3]: "اللهم اجعل أول وآخر كلامي لا إله إلا الله محمداً رسول الله"، بعد ذلك يستنشق ويقول[4]: "اللهم اجعل نفسي تشم رائحة الجنة"، ثم يغسل وجهه ثلاثاً ويقول[5]: "اللهم أنر وجهي كما تضيء وجــه أحبابك أمين"، بعد ذلك يغسل الذراع الأيمن حتى المرفق ويقول[6]: "اللهم أعطني كتابي بيميني، آمين يا الله"، بعد ذلك يغسل الذراع الأيسر ويردد نفس الدعاء، ثم يغسل الرأس حتى القفا وهو يقول[7]: "اللهم أضع رأسي في الجنة..."، وبعد ذلك يغــسل الأذنــين لكي تسمعا القرآن في الجنة، ثم يغسل الرقبة ثلاثاً ويقول[8]: "اللهم اعتق رقبتــي مــن النار آمين يا الله"، بعد ذلك يغسل قدميه ثلاثاً اليمنى ثم اليسرى وهو يقــول[9]: "اللهــم ثبت قدمي اليمنى على الصراط وألاّ تزل كما تزل أقدام الكــافرين، بــل أمــرَّ علــى الصراط كما يمر البرق، وأشهد بكلمة الحق أنه لا إله إلا الله لم يمت ولن يمــوت ولا

---

(1) مرثيدس أرينال: المرجع السابق، ص98.

(2) المرجع نفسه، ص98.

(3) لوري كارديلاك: المرجع السابق، ص31.

(4) المرجع نفسه، ص31.

(5) عبد الجليل التميمي: تمسك الموريسكيين بدينهم وهويتهم من خلال قراءاتهم لأحاديــث الرســول فــي مخطوطتين، المجلة التاريخية المغربية، تونس، السنة 11، العددان 35-36، ديسمبر 1984م، ص5-13.

(6) المرجع نفسه، ص5-13.

(7) المرجع نفسه، ص5-13.

(8) مرثيديس أرينال: المرجع السابق، ص98.

(9) المرجع نفسه، ص98.

شبيه له، وأن محمداً عبده ورسوله جاء بشريعة الحقّ، آمين يا الله"، ثم يقول نفس ذلك عند غسل القدم اليسرى[1].

ج) الصـــــلاة:

هناك صلاة تُسمى صلاة "الصبح" يضع الشخص ملاءة علـى الأرض ويقـف عليها حافي القدمين ويضع كفتي يديه على وجهه ويقول ثلاث مـرات[2] حـي علـى الصلاة حي على الفلاح "تشهد أن لا إله إلا الله" ثم يوجه يديه ناحية الأرض ويقول[3]: "الله أكبر، الشكر يا الله" ثم يقول[4]: "اللهم أرجوك بفضلك ورحمتـك أن تغفـر لـي ولوالدي وأن تتقبل مني صلاة الشكر هذه كما تتقبلها من عبادك الصالحين، وممن يشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، آمين يا الله". بعد ذلك يعود إلى إسدال اليـدين بحيث تكون الكفتان ناحية الأرض ويقول[5]: "الله أكبر"، بعد ذلك يضع اليـدين علـى الفخذين ويقول[6]: "الحمد لله رب العالمين الرحمن" بعد ذلك يضع اليدين على الفخذين ويقول[7]: قل هو الله أحد، الله الصمد"، ثم يضع وجهه على الأرض فوق الملاءة ويردد ثلاثاً "اللهم اغفر لي برحمتك"، بعد ذلك يقف مرة أخرى ويسجد مرة أخرى، ثم يجلس على ركبتيه ويقول[8]: التحيات لله، الزاكيات لله"، ثم ينظر ناحية اليمين ويقول "السلام" وعادة هذه الصلاة تؤدي عند شروق الشمس[9].

---

(1) مرثيديس أرينال: المرجع السابق، ص98.

(2) محمد رزوق: المرجع السابق، ص104.

(3) المرجع نفسه، ص104.

(4) المرجع نفسه، ص104.

(5) مرثيديس أرينال: المرجع السابق، ص99.

(6) سورة الفاتحة، الآية 2.

(7) سورة الإخلاص، الآية 1.

(8) محمد عنان: المرجع السابق، ص379.

(9) المرجع نفسه، ص379.

د) صلاة الظهـــر:

تؤدى صلاة الظهر في منتصف النهار، وهي من أربع ركعات يُقال فيها: "الحمد لله" أربع مرات، وتؤدى مثل الصلاة السابقة وبنفس الكلمات المذكورة[1].

هـــ) صلاة العصر:

تؤدى هذه الصلاة بنفس الحركات والكلمات المذكورة، دائمـــاً تـــؤدى الـــصلاة والإنسان متجه إلى القبلة، وهو المكان الذي تخرج منه الشمس، بعد ثلاث ساعات من طلوع الشمس في الشتاء[2].

و) الصلاة الأخيرة:

تؤدى بعد صلاة العصر في الساعة الرابعة مساءً بنفس الأركان، إلا أنها ثلاث ركعات، والركعة هي خفض ورفع الرأس[3].

ز) صلاة العتمة:

تؤدى هذه الصلاة في اللّيل، وهي أربع ركعات على النحو المشار إليه سلفاً[4].

ح) صلاة (الوتر) Tabalquet:

وهي تؤدى بعد كل الصلوات وبنفس الطريقة وبها تنتهي صلوات اليوم، وهناك من يقوم بتأدية هذه الصلاة جماعة[5].

(1) مرثيديس لرنيال: المرجع السابق، ص99.

(2) المرجع نفسه، ص99.

(3) محمد حتاملة: المرجع السابق، ص111.

(4) المرجع نفسه، ص111.

(6) محمد عنان: المرجع السابق، ص379.

ط) صيام رمضان:

ومدته ثلاثون يوماً، لا يأكل الموريسكي خلال اليوم إلاّ في الليل عند بزوغ النجم، وفي كل ليلة يتسحر المسلم، فيأكل بقية ما خلفه في أكل الليل، ويأكل قبل الفجر ويغسل فمه ويؤدي الصلاة، ويتطهر المسلم قبل بدء رمضان، يبدأ الصوم برؤية هلال شهر رمضان وينتهي برؤية هلال شهر شوال[1]، بعد ذلك ينتظر أحد عشر شهراً، والشهر الثاني عشر يكون هو رمضان، بحيث أن كل رمضان يبدأ قبل رمضان السابق له بنحو عشرة أيام، إذ هكذا يكون حساب الأهلة[2]، وهو الفرق بين السنة القمرية والسنة الشمسية.

وبعد أن ينتهي شهر رمضان، يحتفل الموريسكيون بعيد الفطر، وفي أوائل أيام العيد يُقبّل الابن الموريسكي يد أبيه، ويطلب منه أن يسامحه[3]، والآباء يباركون الأبناء، فيضعون أيديهم على رؤوسهم ويقولون "جعلك الله مؤمناً أو "مؤمنة" صالحاً أو "صالحة"، ويطلب كل موريسكي من أخيه المغفرة قائلاً "غفر الله لي ولك"[4].

ي) عيد الأضحى:

يحتفل به في اليوم العاشر من الشهر الثالث بعد شهر رمضان، (أي في العاشر من شهر ذي الحجة)، ويصوم الموريسكيين الأيام العشرة التي تسبق العيد فلا يأكلون طوال اليوم حتى دخول الليل، ويتسحرون في الفجر، وللاحتفال بالعيد يذبح الموريسكي خروفاً على الطريقة الإسلامية، ويحتفلون بعيد الضحى إحياءً لتضحية إبراهيم بكبش بدلاً عن ابنه إسماعيل[5].

---

(1) كحيلة، عبادة: القطوف الدواني في التاريخ الأسباني (القاهرة، 1998م)، ص70.

(2) عبادة كحيلة: القطوف الدواني، ص70.

(3) المرجع نفسه، ص71.

(4) مرثيديس أرنيال: المرجع السابق، ص100.

(5) حسن، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة، 1991)، 603/4.

ك) الليلة الطيبة:

بعد مرور ثمانية أشهر على عيد الأضحى وقبل حلول شهر رمضان بشهر واحد يحتفل الموريسكيون بمناسبة يسمونها الليلة الطيبة[1]، يقولون أن الله يكتب فيها أسماء الذين سيموتون خلال هذا العام، ويؤدي الموريسكي الطهارة والصلاة في تلك الليلة[2]، ويقولون أن عليهم أداء مائة ركعة في إحدى هذه الركعات يتلو سورة الفاتحة "الحمد لله"[3]، و"قل هو الله أحد"[4]، ثم الفاتحة "الحمد لله".

وبعد الوضوء يجلس الموريسكي جلسة التشهد وينظر إلى ظله، فإذا ظهر ظل أحدهم بلا رأس فمعنى ذلك أنه سيموت خلال هذا العام[5].

ل) الجمعـــة:

يحتفل الموريسكيون بيوم الجمعة من كل أسبوع وإذا لم يتمكنوا من صلاة الجمعة لأنهم مراقبون فإنهم يؤجلون وقت صلاتها[6].

م) الموتـــى:

يغسل الموريسكيون موتاهم أولاً ثم يكفنونهم في سبع قطع من القماش، ثم يضعون شيئاً لتغطية العورة، لأنهم يقولون إنه بدون الكفن لا يستطيع المسلم الوقوف أمام الله يوم القيامة، وعند الكتفين يغطون الجسد كله[7].

---

(1) الليلة الطيبة: يعلم المسلم أنه ليست هناك مناسبة إسلامية بهذا الاسم، ولعل التاريخ الموضح هنا يشير إلى ليلة الإسراء والمعراج، ونظن أن تسميتها بهذا الاسم يعود إلى أثر مسيحي - مرثيديس أرينال: المرجع السابق، ص101.

(2) مرثيديس أرينال: المرجع السابق، ص101.

(3) سورة الفاتحة، الآية 2.

(4) سورة الإخلاص، الآية 1.

(5) مرثيديس أرينال: المرجع السابق، ص101.

(6) محمد عنان: المرجع السابق، ص379. كذلك محمد حتاملة: المرجع السابق، ص111.

(7) الحميدي: جذوة المقتبس، ص29. كذلك ابن عبدون، محمد بن أحمد التجيبي: رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة، تحقيق ليفي بروفنسال (القاهرة، 1995)، ص23.

ن) ليلة القدر:

تؤدى صلاة ليلة القدر بخمس عشرة ركعة وتؤدى للنبي محمد (ﷺ) وابنته فاطمة، ويكون ذلك بالنظر إلى الأرض ووضع اليدين على البطن وقراءة "إنا أعطيناك الكوثر"[1].

س) سورة "الفلق":

تُقراء سورة "الفلق" بوضع العينين والأيدي بالطريقة الموضحة سابقاً، ويقول المسلم: قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق"[2].

ع) سورة "النـــاس":

تُقرأ سورة "قل أعوذ برب الناس"[3] بوضع العينين واليدين بالطريقة الموضحة سابقاً، ويقول الموريسكي "قل أعوذ برب الناس"، بعد الانتهاء من هذه السور يسدل الموريسكي يديه ويقول: "نشهد أن لا إله إلا الله"، بعد ذلك يخفض رأسه وجسده قائلاً: نشهد أن لا إله إلا الله الله أكبر"، بعد ذلك يعود إلى القيام ويردد نفس الكلمات، بعد ذلك يجلس الموريسكي على ركبتيه فوق الملاءة ويقول: "اللهم إنك وعدت في القرآن الكريم أن تسمع من يدعوك، وأن تستجيب لمن يعبدك، أنا عبد من عبيدك وقفت ببابك اطلب الجنة لي ولوالدي والمؤمنين والمؤمنات"[4].

---

(1) سورة الكوثر، الآية 1.

(2) سورة الفلق، الآية 1 و2.

(3) سورة الناس، الآية 1.

(4) مرثيديس أرنيال، ص101.

ف) الزكاة أو الذبح:

لا يأكل الموريسكي لحم حيوان مات مخنوقاً، لكنه يأكل مما ذُبح، ولا تستطيع النساء أن تذبح فتحمل المرأة طيورها إلى رجل لكي يذبح لها، والرجل حين يذبح الطائر أو الحيوان يوجه وجهه إلى القبلة، ويختبر سكينه قبل الذبح ويقول عند الذبح "بسم الله"[1].

ص) التعميـــد:

يضع الموريسكي حبات من القمح والشعير وقطعاً من الذهب والفضة في إنـاء ويصب عليها ماءً ساخناً، ويضع المولود وهو عارٍ فوق الإناء ويغمر جسده بالماء، ثم يوضئه، ثم يلبسه ملابس نظيفة ويطلقان عليه اسماً[2]. بعد ذلك يضعان له غطاء رأس من الحرير، ويأخذ الموجودون في الحفل قطع من القماش ويسألون من يقوم بطهوره عن اسمه ويردد الآخرون الاسم، ثم يرفعون المولود جميعاً ويقولون بصوت عالٍ "لي لي لي لي"، وينزعون عنه غطاء الرأس ويضعون كتاباً بالعربية على فم وأنف وعين المولود وهم يقولون: "جعلك الله مؤمناً صالحاً"[3].

بعد ذلك ينزعون الذهب والفضة من الإناء وتأخذهما امرأة وتلقي بالماء تحت سرير الأم وهي تضحك، ولا يتواجد الرجال في هذا الحفل الذي يُقام في اليوم السابع للولادة[4].

ب) الشهـــادة:

أي قول "نشهد أن لا إله إلاّ الله"، وهي كلمات يرددونها للمسلم الذي يموت لكي يحصل على الجائزة ويريه الله ملك الحسنات[5].

ثانياً: المجادلة من خلال الحياة اليومية:

---

(1) حسن إبراهيم: المرجع السابق، 604/4.

(2) مرثيديس أرنيال: المرجع السابق، ص102.

(3)Borant: Los Moriscos espanoles. pp. 622-623.

(4)Ibid, pp. 622-623.

(5) مارثيديس أرنيال: المرجع السابق، ص103.

1- المساجد والفقهاء ركائز الحياة الدينية عند الموريسكيين:

ظل الموريسكيون إلى غاية عام (932هـ/1525م) يتمتعون بمساجدهم وفقهائهم، لكن بعد فرض التعميد الإجباري أعطيت الأوامر بغلق جميع المساجد[1]، وأصبحت بذلك العبادات تمارس داخل المنازل وفي مساجد سرية، ففي عام (982هـ/1574م)، توصل محققوا سرقسطة إلى وجود مسجد "قري كلاندا" بين الجبال، إذ كان يذهب إليه الموريسكيون بانتظام[2]، واستمر هذا المسجد نفسه في العمل، إذ حوكم الفقيه "أمادورسا مبيرويلو" "Amadorsa Mpervelo" سنة (1003هـ/1593م)، بتهمة تدريس القرآن داخله، وفقاً لما ورد في محضر تحقيق الفلاح الموريسكي "باسكوال رايس" "Pascual Raez" الذي اتهم بأنه كان يصلي فيه[3].

وإلى غاية فترة الطرد ظل دور المساجد أساسياً، ففي مدينة "Villo Feliche" كان الموريسكيون يتمتعون بمسجدهم سنة (1019هـ/1609م)[4]، وقد كتب المحققون أن الموريسكيين كانوا يدخلون إليه ويخرجون علانية تماماً، كما يدخل المسيحيون إلى كنائسهم ويخرجون[5]. وكذلك الشأن بالنسبة لمسجد "Purroy"، استمر الموريسكيون في الذهاب إليه رغم أن نصفه خُرب تماماً سنة (1018هـ/1608م)، وكان الفقيه "مكيل كالفو" "Miguel Calvo" يعلم فيه القرآن لمواطنيه[6].

ورغم المتابعات المتواصلة التي كان يقوم بها المحققون فإن الفقهاء ظلوا يؤطرون الموريسكيين ويعلمونهم مبادئ دينهم ويحثونهم على التمسك بها، وعدم الانجراف وراء حملات التبشير التي كان يقوم بها الرهبان[7]، وكان هؤلاء الفقهاء

---

(1) محمد رزوق: المرجع السابق، ص104.

(2) المرجع نفسه، ص104.

(3) Jacqueline Fournel - Guérin, op. cit. p. 128.

(4) Ibid, p. 128.

(5) محمد رزوق: المرجع السابق، ص104. كذلك محمد عنان: المرجع السابق، ص342.

(6) Jacqueline Fournel- Guérin, op. cit., p. 128.

(7) Ibid, p. 128.

يمارسون عدة مهن تكون أحياناً متواضعة، لكنهم غالباً ما يكونون على علـم بـأمور دينهم[1]. وكانت مهامهم متعددة: منها ممارسة مهمة الـوعظ والإرشـاد، ويـساعدون المرضى، ويقومون بنسخ القرآن، ففي مدينة "Belchite"، كان الفقيه "ميكيـل دي لافونيتي" "Miguel de La Fuente" يمتهن النسخ ويقوم بمهة التعليم في نفس الوقت: إذ كان يستقبل الموريسكيين لديه في الليل، ويقوم بتعليمهم القرآن مقابل كيس من القمح، كما أتهم الفقيه "الكسندر بنيالوصا" "Alexandre Penalosa" بأنـه كـان يقوم بنسخ الكتب الدينية[2]. كما كانوا يقومون باستقبال المبعوثين من شـمال أفريقيـا، حاملين معهم الكتب الضرورية لنسخها وبيعها للموريسكيين[3].

وكان دورهم بارزاً أثناء المناسبات الدينية، فقد كانوا يشرفون علـى عمليـات ختان الأطفال[4].

لقد حافظ الموريسكيون وإلى اللحظة الأخيرة على فقهائهم وتنظيماتهم الدينية، إذ أشار الباحث "Fonseca" إلى الدور الذي لعبه هؤلاء ساعة الرحيل، وكيـف كـانوا يرشدون مواطنيهم[5]، ولا غرابة في هذا الدور الخطير الذي كانوا يقومون بـه، فقـد اتصفوا بالصبر والثبات حتى في أحلك الظـروف، ظـروف الـسجن. ففـي سـنة (1011هـ/1601م) وبـسجن طليطلـة[6] كـان الفقيـه "خيروتيمـودي روخـاس"

---

(1) Ibid, p. 128.

(2) Ibid. p. 129.

(3) Jacqueline Fournel-Guérin, op. cit., p. 130.

(4) محمد عنان: المرجع السابق، ص379. كذلك محمد رزوق: المرجع السابق، ص105-107.
Dr. Lea: The Moriscos, p. 213-214.

(5) Fonseca, Relacion, pp. 89-90.

(6) طليطلة: وهي مدينة عظيمة القطر والبشر تمتاز بالحصانة من خلال أسوارها العالية المنيعة، وهي تقع على ضفة النهر الكبير، وكانت أيام الروم دار لملكهم، ووجد بها أهل الإسلام عنـد افتتـاح الأنـدلس ذخائر تكاد تفوق الوصف ومنها مائة وسبعون تاجاً من الذهب، وألف سيف مجـوهر ملكـي، كمـا= =وجدوا بها مائدة سليمان بن داوود، وتلك المائدة موجودة بمدينة روما - ينظر الإدريـسي: المـصدر السابق، مج 2/551-552.

"Geronimo de Rujas" يجادل المسيحيين المسجونين معه ويقول لهم: "أنه يرغب في إنقاذ أرواحهم، وأن الله سوف يبصرهم وينقذهم من العمى والجهل الذي يحيط بهم[1].

وقد تمت متابعة الموريسكيين متابعة دقيقة عن كل أفعالهم وأعمالهم في الصوم والوضوء والصلاة والصدقة وكذلك الحج وتتم معاقبتهم على هذه الأعمال التي يقومون بها، وكانوا متمسكين بها إلى أقصى حدٍ ممكنٍ، بل ومارسوها وهم في السجون وتحت التعذيب[2].

كما حافظوا على قدسية يوم الجمعة، إذ تتوقف في هذا اليوم جميع الأنشطة التجارية، ويرتدون الألبسة النظيفة[3]، وقدأتهم "أمادور بيون" "Amador Peon" من كلاندا "Calanda" سنة (987هـ/1579م) بأنه يغير كل يوم جمعة ملابسه، وأنه يعتبره كيوم الأحد[4].

كذلك حافظ الموريسكيون على صوم رمضان، وكان الفقهاء يحثون الموريسكيين على الصوم والتشبث به، ولمجابهة هذه الوضعية يحاولون الابتعاد عن النصارى أثناء فترة الأكل، بل ويذهبون إلى حد الاتفاق مع رب العمل على تغيير أوقات عملهم بما يتناسب وهذا الشهر[5].

ودأب الموريسكيون على تعليم أطفالهم الامتناع عن لحم الخنزير منذ صباهم، وهذا ما فعله الموريسكي "لوبي البلنسي" "Lope Valenciano" عندما أودع أبناءه لدى المسيحيين، وأوصاهم ألا يعطيهم خمراً أو لحم خنزير، مما أدى به إلى الوقوع بين جلادي محاكم التفتيش[6]، كذلك كان النقد اللاذع يُوجه إلى المسيحيين من طرف

(1) Louis Cardaillac, op. cit, p. 65.

(2) محمد رزوق: المرجع السابق، ص106.

(3) محمد حتاملة: المرجع السابق، ص83-86.

(4) خليل السامرائي: المرجع السابق، ص308.

(5) Jacqueline Fournel-Guerin, op. cit., p. 136.

(6) Jacqueline Fournel - Guerin, op. cit., p. 141.

الموريسكيين عندما يقدمون إليهم طعاماً تشم منه رائحة لحـم الخنزيـر[1]، "فخـوان هرادور" "Juan Herrador" "بالقلعة" "Alcala" قد رفض الأكل في صحون بها لحم خنزير، ولهذا السبب كان يقطع كل ما وجب أكله بأصـابعه[2]، ونفـس هـذا الأمـر لموريسكية من "كاتالانيا" التي حضرت ذبح أحد الخنازير عنـد جـزار القريـة، فقـد صاحت: "أنها لا تأكل لحم الخنزير حتى ولو توجوها ملكة"[3].

وأثار الامتناع عن أكل لحـم الخنزيـر أيـضاً مجادلـة بـين الموريـسكيين والمسيحيين، فقد أورد الشهاب الحجري ما يأتي: "قال لي القاضي[4]: ولحم الخنزيـر، لماذا هو ممنوع عندكم؟ قلت: لأنه نجس، لأنه لا يأكل إلاّ النجاسات، وحتى في الإنجيل هو ممنوع، قالوا ليس بممنوع، وأين المنع في الإنجيل..."[5].

وكان الامتناع عن شرب الخمر عاماً، إذ كان الموريسكيون يراوغـون كثيـراً محاكم التفتيش، فقد كانوا مثلاً يملكون مزارع العنب ليظهروا أنهم "مـسيحيون طيبـون" غير أن الجهاز القمعي لمحاكم التفتيش، كان يفطن أحياناً لحيل الموريسكيين، فقد أُلقي القبض بطليطلة على "خوان هيرادو" "Jaun Herrado" لأنه يملك العنب ويصنع منه الخمر قصد "إخفاء نيته السيئة، إذ هو في الواقع لا يشرب الخمر"[6].

وكما أثار الامتناع عن أكل لحم الخنزير جدالاً بين الموريسكيين والمـسيحيين، فقد أثاره أيضاً الامتناع عن شرب الخمر، فقد أورد الشهاب الحجري في هذا الـصدد: "... وانتقل إلى مسألة أخرى، وقال ما السبب حتى منعكم نبيكم عن الخمر؟ قلت: منعه

---

(1) Ibid, p. 141.

(2) Louis Cardaillac, op. cit, p. 24.

(3) Lgnocio Bauer y Landauer, Relaciones y Manuscritos (Moriscos), Madrid, editorial Ibero-Africano-American S.D., p. 60. كذلك لوي كارديلاك: المرجـع الـسابق، ص32.

(4) الحجري: المصدر السابق، ص53.

(5) المصدر نفسه، ص53.

(6) محمد رزوق: المرجع السابق، ص107. كذلك Louis Cardaillac, op. cit., p. 24.

الله تعالى، لأن أفضل ما تكرم به على بني آدم وهو العقل، والذي يزيله هو الخمر، وهو أقبح المسائل كلها، قال: حتى عندنا هو ممنوع أن يشرب الإنسان حتى يسكر، قلت، ظهر لي أنه ممنوع لكم في الإنجيل ولا انتبهتم له، قالوا: في أي موضع؟ قلت: في الدعاء الذي أمركم به سيدنا عيسى عليه السلام أن تدعوا به، وأوله أبونا الذي في السماء ... إلى أن تقولوا: ولا تدعنا نقع فتنة النفس وآخرون يترجمون: "ولا تدخلنا التخريب" وهم الأكثر، ...والأول عندي هو الصحيح...[1].

إن حقد المسيحيين على الموريسكيين تطور بشكل سريع من حقد ديني إلى حقد عام وشامل لجميع التقاليد والعادات الموريسكية[2]، ومع ذلك فإنهم مارسوا وحافظوا بالإضافة إلى ذلك حتى لحظة الطرد النهائي على أكبر الأعياد الإسلامية والاحتفال بها وتعظيمها وأصبحت هذه التقاليد والعادات علامة على اتباع الموريسكيين للدين الإسلامي[3].

2- رفض الموريسكيون للتقاليد والعادات النصرانية:

أن معارضة الموريسكيين للنصارى سوف تترجم عادة برفض الممارسات الدينية المفروضة عليهم. وقد ظهر ذلك بأشكال عديدة[4]، سواء بموقف معاد في بعض الحالات أو غالباً تحت شكل المخادعات التي تهدف إلى إلغاء تلك الاحتفالات أو الطقوس، أو بشكل أبسط مرده عدم الرغبة في القيام بذلك[5].

وقد ظهر ذلك جلياً في أكبر ملابسات الحياة التي يحتفل بها دينياً كالولادات أو الزواج أو الدفن، ونظراً إلى أن الآباء الموريسك لا يقدرون على رفض تعميد أطفالهم، فإنهم يسارعون أثناء رجوعهم من الحفل إلى غسل رؤوس أطفالهم، غسلاً دقيقاً وفركها

---

(1) الحجري: المصدر السابق، ص50-51.

(2) محمد رزوق: المرجع السابق، ص107.

(3) المرجع نفسه، ص108.

(4) لوي كارديلاك: المرجع السابق، ص35.

(5) المرجع نفسه، ص36.

بعد ذلك بلباب الخبز، محاولة منهم لإلغاء تأثيرات التعميد[1]. وفي عام (981هـ/1573م)، "ببلمنتاجو" "Belmontejo" غسل "جوان سيارا" بماء ساخن رأس ابنه ليفسخ كل الآثار المائية والزيوت المقدسة للتعميد[2].

كذلك وقبيل الطرد النهائي "بدازا" "Deza" كانت "ماريا جاركينا" "Maria Jarquina" بعد حفلة الكنيسة ورجوعها إلى بيتها: "وبحضور شخصيات أخرى من أمتها، قد نزعت ملابس طفلها وغسلته بالماء الساخن وأعطت له اسماً عربياً"[3].

ويبدو أن هذا الأمر، كان بالفعل عادة عامة إذ ينظم في مساء يوم التعميد، جلسة ودية بين المسلمين كتعبير للوقاية ضد القربان المقدس[4]، وخلال هذه الأمسية تُتلى آيات من القرآن الكريم ويعطي للرضيع اسماً عربياً إسلامياً، يعتبر بالنسبة للعائلة تعويضاً للاسم الذي تلقاه يوم التعميد، ثم يتم إكساؤه ملابس أنيقة وتجميله بالعنبر والمرجان في العنق وخواتم من فضة[5].

وهناك موريسكيون آخرون، لتجنب تعميد أبنائهم، يستعملون في بعض الأحيان الحيلة، فعوضاً عن تقديم مولود العائلة الجديد، يعمدون أحد أطفالهم الذي تلقى القربان المقدس من قبل، وسيستمر في تلقيه التعميد كلما حدثت ولادات جديدة بالقرية[6].

كذلك العيش كزوجين دون تلقي البركة أثناء موكب الزفاف يعد من طرف الموريسكي علامة على الهرطقة، وهذا ما جاء في لائحة اتهام "الفيرا" "Alvira" زوجة "مانوالدونايري" "Manuel Donayre" التي جاء فيها بالتحديد: "أن هذه المرأة

---

(1) لوي كارديلاك: المرجع السابق، ص36.

(2) Boronat y Barrachina, Los Moriscos espanoles y su expulsion, valencia, Imprenta de Franciso Vives y Mora, 1901, t. III, p. 252.

(3) Boronat y Barrachina, op. cit., 252.

(4) محمد رزوق: المرجع السابق، ص104.

(5) مرثيديس لرنيال: المرجع السابق، ص117. كذلك لوي كارديلاك: المرجع السابق، ص36.

(6) لوي كارديلاك: المرجع السابق، ص36.

قد تزوجت كعربية وأنها مع "مانوال دونايزي" وهو موريسكي، وقد زفت إليه حسب قانون العرب، دون أن تتلقى بركة الزفاف الكنيسية، وقد استمرا على العيش معاً كزوجين عربيين"[1].

كما نلاحظ من جهة أخرى، أن رفض القانون الرباني للقربان المقدس، يعتبر بالنسبة لمفتشي دواوين التحقيق، رفضاً لسلطة الكنيسة[2]، وهي التي تقنن هذا القربان، بجعله نظاماً مقبولاً[3]، وقد لوحظ على الموريسكيين أيضاً أنهم لا يحترمون القواعد التي حددتها الكنيسة وعلى الخصوص كل ما يتعلق بالزواج بين الأقرباء من الأهل، وكذلك عدم طاعتهم لطقوس الكنيسة التي تنظم بعض أشكال المجتمع النصراني[4].

ولتجنب الاستمرار في ممارسة هذه الطقوس الأجنبية بالنسبة للمذهب الكاثوليكي، وللسير قدماً في تطبيق سياسة الاندماج، قرر مجلس مدريد في عام 995هـ/1587م)، تحت إشراف "فيليب الثاني"[5]، أن كل الموريسكيين، دون استثناء، يجب عليهم تلقي دفن كنسي، وأنه تحتم عليهم دفن موتاهم في نفس مقابر المسيحيين، ومثل هذا الإجراء، كان يهدف على الخصوص مملكة بلنسية وأراغون وهي الممالك الأكثر إسلاماً من غيرها[6]. وكان تأثير هذا القرار في هذه المناطق، قد أثار غضب الموريسكيين وحزنوا لهذا الأمر[7].

وأمام هذا الضغط المتواصل من قِبل النصارى لمسح الشخصية الإسلامية في الأندلس، والقضاء على العادات والتقاليد الإسلامية الطيبة، أصر الموريسكيون على

---

(1) لوي كاردياك: المرجع السابق، ص37.

(2) محمد خطاب: المرجع السابق، ص94.

(3) المرجع نفسه، ص94.

(4) مرثيدس أرنيال: المرجع السابق، ص127-128.

(5) محمد رزوق: المرجع السابق، ص91.

(6) المرجع نفسه، ص91.

(7) Brandel, Lamediterrannee, 2/124-126.

ممارسة عاداتهم وتقاليدهم الإسلامية الطاهرة مهما كلفهم ذلك من ثمن[1]. وأصروا على دفن موتاهم في الحقول من الأراضي البكر، وهم يتجنبون أي شكل من أشكال دفن موتاهم في المقابر المسيحية[2].

ومن المعلوم في الأندلس كلها لم يوص أي موريسكي بأي شيء للكنيسة، ولم يطلب أحد منهم إقامة قداس على روح ميت، رغم أنهم أثرياء ويرون كيف يؤدي المسيحيون هذه الأعمال[3]، وهذا دليل على أنهم يسخرون من كل ذلك، وعلى أنهم لا يعتقدون أن الموتى يذهبون إلى المطهر، ولا الصدقات التي يقدمونها إلى الكنيسة يمكن أن تكون عوناً لهم، ولهذا فهم يكفرون بالمطهر، ويؤكدون أنه لا وجود بعد الموت إلا للجنة أو النار، وهذا ما يقول به سيدنا محمد (ﷺ)[4].

كذلك لم تبن في أية قرية موريسكية صومعة لراهب ولم يرفع صليب، إضافة إلى كراهيتهم للصور والتماثيل[5]، فهم لا يحتفظون بها في بيوتهم، ونفس الشيء يقال عن الماء المبارك وعن بقية الشعائر المسيحية الأخرى، فهم لا يعيرونها أي اهتمام، وإذا أداها الموريسكي فإنه يفعل ذلك مضطراً أمام المندوب أو الحاجب المكلف من قبل السلطات بمراقبة الموريسكيين[6]، ورغم كثرة الموريسكيون فإنه لم يدخل أحداً منهم في المسيحية طول فترة تعايشهم معهم، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الموريسكيين متحدين في ذلك ويتبعون جميعاً الدين الإسلامي ومتمسكين بتقاليدهم وعاداتهم الإسلامية النبيلة[7].

---

(1) مرثيدس آرنيال: المرجع السابق، ص158.

(2) المرجع نفسه، ص158.

(3) لوي كارديلاك: المرجع السابق، ص38.

(4) المرجع نفسه، ص38.

(5) مرثيديس أرنيال: المرجع السابق، ص159.

(6) لوي كارديلاك: المرجع السابق، ص40.

(7) Boront, Los Moriscos espanoles, pp. 619-620.

وكل الموريسكيون يجتنبون شرب الخمر وأكل لحم الخنزير، ومن الواضح أنهم لا يمتنعون عن ذلك من باب التقشف المصاحب للتوبة عن الذنوب، بل لأنهم لا يعترفون بأنهم ارتكبوا ذنباً، وإتباعاً للشريعة الإسلامية التي تأمر بذلك[1].

وعزوفهم عن المسيحية يتمثل أيضاً في الامتناع عن مصاهرة المسيحيين القدامى، وأنهم لا يطلبون منهم صدقة، وفي ذلك امتثال لتعاليم القرآن[2].

وهذا يؤكد كره الموريسكيين للديانة المسيحية ولأتباعها وعدم تقبلهم لتقاليدهم وعاداتهم ورفضها رفضاً تاماً، وكان الموريسكيون كثيراً ما يتلقون ببرودة تعاليم الأساقفة، فعندما يطلب منهم قراءة الإنجيل فإنهم يقومون بذلك محتجين، ويختصرون إلى درجة كبيرة أثناء القراءة ومن يقاطع ذلك، يفرض عليه دفع ضريبة أو غرامة مقابل ذلك[3].

وفي حالات أخرى، كان الموريسكيون يحتفلون بالأعياد المسيحية على "الطريقة العربية"، ويبدو أنه كانت توجد طريقة للاحتفال بعيد القديس "بطرس" بأخذ حمام طقوسي: استحمت "وايزابال دوالقزار" "Isabel de Alcazar" صبيحة عيد القديس "بطرس" واغتسلت عارية، في إناء مملوء ماء، وكانت تهدف من ذلك أن تجعله عادة طقوسية ذلك أن النظافة بالنسبة لها ضرورة حتمية، وليس ذلك احتفالاً عربياً وخاصة وأنها مصابة بمرض الجرب[4]. والواقع أن "ايزابال دو القزار" كانت تداوم بهذا الشكل، وبطريقتها على ممارسة التقاليد القديمة للاحتفال بعيد القديس "بطرس" أو "أنصار" الأندلس[5].

---

(1) Ibid. p.621-623.

(2) مرثيديس أرنيال: المرجع السابق، ص159.

(3) لوي كارديلاك: المرجع السابق، ص41.

(4) المرجع نفسه، ص41.

(5) Fernando de La Granja "Fiestas Cristianes en al-Andalous (Materials para su estudio" in, Al-Andalous Fasc. 1969, pp. 1-53.

وقد عبَّر "فيليب الثاني" عن هاته السياسة بدقة في حيثيات العفو سنة (979هـ/1571م)، الذي منحه لموريسكيي أراغون وبلنسية وكاتولونيا، وقد أكد أنه سوف يحترم تقاليد والده الإمبراطور "شارل الخامس"، حيث ركَّز كل جهوده على المحافظة على ممالكه ومناطق نفوذه من كل خيانة أو بدعة[1]. وهكذا أصبحت بعد ذلك دواوين التحقيق رمزاً وتعبيراً عن ضمان المعتقد السليم بالنسبة إليهم، كما أنها سوف تترجم عن الصرامة التي مارستها الكنيسة والدولة لاحترام وحدتها الدينية،والتي تعتبر ركيزة المجتمع النصراني خلال القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي[2]. ومن خلال ذلك، فإنه لا توجد، بالنسبة للموريسكيين إلا سياسة واحدة وهي سياسة الاندماج، وهذا بعد التسامح التكتيكي الذي مارسته أسبانيا النصرانية، وللوصول للهدف المنشود اتخذ الملوك والكنيسة أو دواوين التحقيق إجراءات متنوعة[3].

ومن هذه الإجراءات كان التعليم الديني للموريسكيين الذي أصبح أحد الاهتمامات الرئيسية للحكام ورجال الدين[4]. وقد كان الحكام يفكرون بأن الأمر يتعلق بمشروع طويل المدى، وعلى ضوء ذلك فقد منحوا بسهولة، خلال النصف الأول من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، آجالاً للمعتنقين النصرانية الجدد وعلى الخصوص في المناطق الأكثر محافظة على الإسلام، مثل: أرغون وبلنسية وغرناطة[5]. ففي سنة (970هـ/1562م)، حرر المجلس الأعلى لدواوين التحقيق إلى دواوين تحقيق غرناطة أن يُبدي بعض المرونة تجاه الموريسكيين حول عدد من المسائل كأكلهم اللّحم يوم الجمعة*، وقد ختم كلامه بضرورة مضاعفة الحماس

(1) لوي كارديلاك، المرجع السابق، ص43.

(2) مرثيديس أرتيال: المرجع السابق، ص128.

(3) المرجع نفسه، ص129.

(4) Baronat y Barrachina, op. cit., t, I, pp. 443-450.

(5) Ibid, t, I, pp. 450-452.

* أكل اللحم يوم الجمعة: هي علاقة إضافية على عدم وجود تعليم مسيحي أكثر منه علاقة على البدعة والانحراف. ينظر: Baronat y Barrachina, op. cit., t, I. p. 452.

تعليمهم[1].

ففي أرغون وبلنسية، كان النبلاء لا يساعدون قطعاً، رجال الدين ودواوين التحقيق على القيام بمهمتهم، وفي بلنسية اشتكى الأسقف من قبل، من التأثير السيئ الذي يحدثه - حسب رأيه - "أسياد الموريسكيين"، على رعاياه وأضاف قائلاً: إن هؤلاء الأسياد هم الذين يحتاجون بالفعل أن يعتنقوا الدين "المسيحي" قبل غيرهم[2].

وعلى ضوء ذلك، وجب اعتبار موقف "دون مارتين دواراغون" "Don Martin d'Aragon" "دوك فلاهرموسا" "Villa Hermosa" شاذاً عندما اهتم بهذا الشكل وأرسل تعليماته إلى القساوسة المكلفين بقرى الموريسكيين[3]. أما نشاط الدوق دوقاندي "Duc de Gandie" فكان هو الآخر قد تعهد بالإشراف على تعليم الدين المسيحي لرعاياه الموريسكيين وقد كتب "بيير سيو" "Pierre Suau" في كتابه "تاريخ القديس فرنسوا دو بورجيا" "Histoire de Saint Francois de Borgia": "أنه منشغل كثيراً بالتربية الدينية والأخلاقية لرعاياه الموريسك ... زيادة على الجماهير، ذلك أن الدوق يعول على تربية الأطفال لجلب الموريسكيين إلى الحياة المسيحية الحقيقية. ولهذا السبب فقد رغب في "قاندي"[4] "Gandie" نفسه، أن يفتح لهم مدرسة يعهد بها إلى آباء رفاق المسيح (Péres de la Compagnie de Jesus) شأنها، شأن مدرسة برشلونة التي كان معجباً بها وبنتائجها، وأنه في خلال شهر

---

(1)Baronat y Barrachina, op. cit., t. I, pp.452-469.

(2)Baronat y Barrachina, El beato Juan de Ribera y el Real Colegio de Corpus chiristi, Valencia, Vives y Mora, 1904, p. 110.

(3) Maria Soledad Carrasco urgoiti, op. cit., p.15 et pp. 19-20.

(4) قاندي: أحد القساوسة المكلفين بتعليم الدين المسيحي للرعايا الموريسكيين الجدد وكلفه الدوق فلاهرموسا بافتتاح مدرسة لأجل ذلك - Maria Sledad Carrasco, Urgoiti, op. cit., p20.

رمضان (952هـ/1544م)، فاتح بهذه الرغبة الأب "أراوز" "P. Araoz" الذي رفعها إلى "سان اينياس"[1] "Saint Ignace"[2].

إلا أن الأخير نصحه أن يفتح مدرسته، ليس للموريسكيين فقط، بل لكل رعاياه وهذا ما قبله الدوك[3].

وقد فشلت مدرسة أطفال الموريسك هاته، حيث كان يتردد عليها ثماني عشر طفلاً يتمتعون بمنحة: 12 لأطفال الولايات و6 لمركيزا دونيا "Marquisat Donia" وفي سنة (956هـ/1548م)، أعفى المدرسة من 12 طفلاً موريسكياً، أما التابعون "لدونيا" فقد استمروا حتى عام (959هـ/1551م)[4].

وفي نفس هذه الفترة اهتم "فراي طوماس دو فالانوفا" هو الآخر بتعليم الموريسكيين، وكذلك ما وجب القيام به للإشراف جيداً على هؤلاء المعتنقين الجدد[5].

ويبدو واضحاً أن هذه الاهتمامات قد عمت في الغالب وتم التعبير عنها من خلال أحداث النصف الثاني من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، وبالتحديد لغرض تعليم الموريسك، لهذا نشر ببلنسية سنة (974هـ/1566م) ما أطلق عليه "تعليم العقيدة المسيحية باللغة العربية والأسبانية"[6]، ويرجع الفضل في تحريرها إلى حماس أسقف بلنسية "دون مارتان دوايالا" "Don Martin de Ayala"، وقد نشرها باللغة الأسبانية بحروف لاتينية كبيرة ومصحوبة بترجمة عربية بين السطور. ومقدمة الأسقف ذات أهمية من حيث أنها تقدمه للموريسكيين كأبيهم الروحي. "وأنه من أعماقه يأمل إنقاذهم ونجاتهم". وتمشياً مع هذه الرغبة فقد قام بترجمة العقيدة المسيحية

---

(1) سان إينياس: أحد القساوسة المكلفين بتعليم الدين المسيحي للرعايا الموريسكيين الجدد.

Maria Sledad Carrasco, Urgoiti, op. cit., p.20.

(2) Pierre Suau, Histoire de Saint Francois de Borgia. troisieme general de la compagnie de Jesus. 1510-1572, Paris, Beauchesne, 1910, pp. 172-173.

(3) لوي كارديلاك: المرجع السابق، ص44، 45.

(4)Pierre Suau, Histoire de Saint Francois de Borgia, pp. 192-193.

(5)Baronat y Barrachina, Los Moriscos, op. cit., I, p.203.

(6) لوي كارديلاك: المرجع السابق، ص45.

في اللهجة العربية العامية المستعملة في المملكة، وحتى لا يحرم البعض منهم ممن لا يفهم اللغة الأسبانية، تعليم العقيدة والدين المسيحيين[1].

وهذا يؤكد لنا وبما لا يدع مجالاً للشك عداء الموريسكيين للديانة المسيحية ولأتباعها ورفضهم لعاداتهم وتقاليدهم وعدم قبولها، فرغم أن المسلمين مكثوا ثمانمائة عام في الأندلس، ورغم أنهم تعاملوا مع المسيحيين إلا أنهم بعيدون عن المسيحية كل البعد، ولم يستطع النصارى دمجهم في فلك ديانتهم وتقاليدهم وعاداتهم[2].

ثالثاً: نفي الموريسكيين وآثاره:

1- أسباب النفي:

يمكن تلخيص الأسباب التي أدت إلى طرد الموريسكيين في ثلاثة أسباب هي:

- **أولاً:** فشل سياسة الاندماج رغم جميع المحاولات التي قامت بها السلطات الأسبانية النصرانية[3]، فقد كتب الملك "فيليب الثالث"[4] في ديباجة أحد القرارات: "... أنكم لعلى علم بمحاولاتي، مدة سنين طويلة لتنصير موريسكيي هذه المملكة (بلنسية) وكذلك موريسكيي "قشتالة" وبإصداري أوامر العفو فيه مني عليهم، وبمساعي لتفقيههم في ديانتنا المقدسة، وبالنتائج الهزيلة المحصل عليها، إذ من الواضح أنه لم يتنصر أحد، بل على العكس لم يزدد إصرارهم إلا حدة ..."[5].

وهذا ما أكدته الترجمة التي أوردتها المصادر الأندلسية لذلك القرار، فقد كتب الشهاب الحجري في الترجمة التي قام بها للسلطان مولاي "زيدان" بمراكش ما يأتي"

---

(1) لوي كارديلاك: المرجع السابق، ص46.

(2) مرثيديس أرنبال: المرجع السابق، ص159.

(3) محمد رزوق: المرجع السابق، ص102.

(4) فيليب الثالث: هو ابن الملك "فيليب الثاني"، تولى الحكم في الفترة من (1006-1030هـ/1598-1621م) واستمر في نفس السياسة التي انتهجها أبوه تجاه الموريسكيين والتي كانت مبنية أساساً على القمع والمراوغة = ينظر محمد رزوق: المرجع السابق، ص111.

(5) Mercedes Garcia Arnela, Los Moriscos, pp. 251-253.

"... قد علمت ما صنع وعمل مع النصارى الجدود (كذا) الأندلس (كذا) أهل تلك السلطنة وقشتالة على طول السنين الكثيرة الماضية من التحريض والإرشاد لإثباتهم في ديننا المجيد وإيماننا ولا نفع معهم قليلاً ولا كثيراً لأنه لم يجد فيهم واحد من هو نصراني حقيقة[1].

كذلك الأمر بالنسبة لابن عبد الرفيع، حيث يقول في ترجمته للقرار: "... والتجربة أظهرت لنا عياناً أن الأندلس (كذا) الذين هم متولدون من الذين كدروا مملكتنا فيما مضى بقيامهم علينا مراراً وقتلهم أكابر مملكتنا والقسيسين والرهبان الذين كانوا بين أظهرهم، وقطعهم لحومهم وتمزيق أعضائهم ... مع عدم توبتهم مما فعلوه، وعدم رجوعهم رجوعاً صالحاً من قلوبهم لدين النصرانية، وأنه لم ينفع فيهم وصايانا ولا وصايا أجدادنا الملوك ولا من سلف منا ..."[2].

- ثانياً: أورد النص الأسباني ما يلي: "أنه من المعلوم أن موريسكيي قشتالة تقدموا أكثر فأكثر في تنفيذ مشاريعهم الشنيعة، وبما أني علمت بنفسي من تقارير صادقة وصحيحة أنهم في إصرارهم على الردة والضلال أرادوا ويريدون دائماً الشر والفساد لمملكتنا عن طريق سفرائهم وكذلك بسبل أخرى..."[3].

وبذلك لم يوضح هذا النص ما هي هذه المشاريع الشنيعة، ولا ما هو الشر والفساد الذي كان يسعى إليه الموريسكيون للمملكة، وإلى من كان هؤلاء السفراء، وما هي السبل الأخرى التي كان يستخدمها الموريسكيون؟. ذلك ما توضحه المصادر الأندلسية بتفصيل، فقد أورد الشهاب الحجري في ترجمته السالفة الذكر ما يأتي: "... ونحن في هذا تحققنا وصح من وجوه أنهم بعثوا للتركي الكبير (السلطان) باستنبول، ومولاي زيدان بمراكش رسلهم يطلبون منهم أن ينجدوهم وأنهم عندهم مائة وخمسون ألف رجلاً مسلمون، مثل الذين ببلاد المغرب الأفريقية،

(1) الحجري: المصدر السابق، ص106-107.

(2) ابن عبد الرفيع محمد: الأنوار النبوية في آباء خير البرية، مخطوط خ. ع. بالرباط عدد 1238 ك. نقلاً عن محمد رزوق: المرجع السابق، ص120.

(3) Mercedes Garcia Arnela, Los Moriscos, pp. 251-253.

وأيضاً لأعدائنا البحرية بالجهة الشمالية التي تحت القطب، وأنعموا (كذا) أنهم يعينهم بسفنهم (كذا) وأما سلطان استنبول فقد اصطلح مع سلطان الفرس، لأنه كان يشغله، وأما سلطان مراكش فقد عزم على تدويخ البلاد وتسكينها، وإذا تفرقوا جميعاً مع هؤلاء نرو (كذا) نفوسنا في الأمر الذي لا يخفى..."[1].

أما ابن عبد الرفيع، فقد أورد الترجمة على النحو الآتي: "... وظهر منهم العناد بعيشهم فيه بصفة دائمة واستنجادهم كذلك عون السلطان العثماني لينصرهم علينا، وظهر لي أن بينهم وبينه مراسلات إسلامية ومعاملات دينية، وقد تلقيت ذلك من إخبارات صادقة وصلت إليّ، ومع هذا إن أحداً منهم لم يأتِ إلينا ليخبرنا بما هم يريدونه في هذه المدة بينهم وفيما سبق من السنين بل كتموه بينهم..."[2].

واضح إذن أن النص الرسمي الأسباني كان يشير بذلك إلى علاقة الموريسكيين مع المغرب والعثمانيين.

- **ثالثاً**: ما لم يتعرض له البيان الأسباني ولكن الموريسكيين كانوا يعرفونه جيداً، فقد سُئل الشهاب الحجري – أثناء سفارته بهولندا – عن السبب الذي أدى بـ "فيليب الثالث" إلى طرد الموريسكيين فأجاب: "... أعلم أن الأندلس كانوا مسلمين في خفاء من النصارى، ولكن تارة يظهر عليهم الإسلام ويحكمون فيهم، ولما تحقق منهم ذلك لم يأمن فيهم ولا كان يحمل منهم أحداً إلى الحروب، وهي التي تفني كثيراً من الناس، وكان أيضاً يمنعهم من ركوب البحر لئلا يهربوا إلى أهل ملتهم، والبحر يفني كثيراً من الرجال، وأيضاً في النصارى كثيرون قسيسون، ورهبان، ومترهبات وبتركهم الزواج ينقطع فيهم النسل، وفي الأندلس لم يكن فيهم قسيسون ولا رهبان ولا مترهبات، إلا جميعهم يتزوجون، ويزداد عددهم بالأولاد وبترك الحروب،

---

(1) الحجري: المصدر السابق، ص107.

(2) ابن عبد الرفيع محمد: الأنوار النبوية في أنباء خير البرية، مخطوط خ.ع. بالرباط عدد 1238 ك، نقلاً عن محمد رزوق، المرجع السابق، ص121.

وركوب البحر، وهذا الذي في علمي سبب إخراجهم، لأنهم بطول الزمن يكثرون..."[1].

وفعلاً فإن الموريسكيون كانوا يزدادون بنسبة أكبر من نسبة ازدياد الأسبان، فمن خلال إحصاء سنتي (973-980هـ/1565-1572م)، إلى غاية الطرد (1018هـ/1609م)، ازداد الأسبان بنسبة 44.7% في حين ازداد الموريسكيون بنسبة 69.7%، وهذه النسبة المرتفعة كانت تشكل قلقاً دائماً بالنسبة للأسبان إلى أن وجدت الحل أخيراً[2] ألا وهو قرار الطرد.

2- مأساة النفي:

تلك هي البواعث التي حملت أسبانيا النصرانية، على التوجس من المسلمين المتنصرين، واعتبارهم خطراً قومياً يجب عليهم درئه والتخلص منه[3]. وكان هذا التوجس يزيد على مر الأعوام وتذكية الحوادث المختلفة، فقد غدت قضية المسلمين المتنصرين، غير بعيدة في نظر السياسة الإسبانية، مشكلة قومية خطيرة يجب التذرع لمعالجتها بأشد الوسائل وأنجعها[4].

وكانت السياسة الإسبانية النصرانية، تعتزم منذ أواخر عهد "فيليب الثاني"، أن تتخذ خطوتها الحاسمة، في شأن الموريسكيين. وكان هذا الملك المتعصب يعتزم نفيهم بعد الذي عانته أسبانيا النصرانية من جراءهم، ووضع بالفعل في عام (990هـ/1582م) مشروعاً لنفيهم، ولكن مشاغل السياسة الخارجية حالت دون تحقيق

---

(1) الحجري: المصدر السابق، ص103-104.

(2) Chaunu, P. "Minorités et conjoncture, l'explusion des Morisque, en 1609", Revue historique, paris, 1961, cc xx V, no. 1, p.90.

كذلك محمد رزوق: المرجع السابق، ص121.

(3) محمد عنان: المرجع السابق، ص392.

(4) المرجع نفسه، ص392.

ذلك[1]، وكان قد مضى يومئذ زهاء قرن على سقوط غرناطة، واستحالة بقية الأمة الأندلسية إلى شعب جديد، لا تكاد تربطه بالماضي المجيد سوى ذكريات غامضة. وكان التنصر قد عمّ الموريسكيين يومئذ بحكم القوة والإرهاق، نصارى يشهدون القداس في الكنائس، ويتكلمون ويكتبون القشتالية، غير أنهم لبثوا مع ذلك في معزل[2]، وأبت أسبانيا النصرانية، بعد أن فرضت عليهم دينها ولغتها ومدنيتها، أن تضمهم إلى حظيرتها القومية. وكانت ما تزال ثمة منهم جموع كبيرة في بلنسية، ومرسية، وغرناطة، وغيرها من القواعد الأندلسية القديمة[3]، وكانوا ما يزالون رغم العسف والإرهاق، والاضطهاد والتشريد والذلة، قوة أدبية واجتماعية خطيرة، وعنصراً بارزاً في إنتاج أسبانيا النصرانية القومي، ولا سيما في الصناعات والفنون[4]، ولكن السياسة الإسبانية النصرانية كانت تخشاهم بالرغم من ضعفهم وخضوعهم، بعد أن فشلت بوسائلها الهمجية البغيضة في كسب محبتهم وولائهم[5]، وكان ديوان التحقيق من جهة أخرى ومن ورائه الأحبار والكنيسة باعتبارهم، بالرغم من تنصرهم، أبداً وصمة في نقاء النصرانية، ويتصور الإسلام دائماً يجري كالدم في عروقهم[6].

وقد تضاربت آراء الساسة والأحبار الأسبان، في شأن الخطوة الحاسمة التي يجب اتخاذها للقضاء على خطر الموريسكيين، ورأى بعض أكابر الأحبار أن خطر الموريسكيين لا يزول إلا بالقضاء على الموريسكيين أنفسهم. وكان مما اقترحه المطران "ريبرا" أن يقضي عليهم بالرق، وأن يؤخذ منهم كل عام بضعة آلاف للعمل في السفن ومناجم الهند، حتى يتم إفناؤهم بهذه الطريقة[7]، وذهب البعض الآخر إلى

(1) عادل بشتاوي: المرجع السابق، ص162.

(2) Kinder, Herman, Hilgemann, Werner. Atlas of World (History), London, 1980, Vol. 1, p.243.

(3) محمد عنان: المرجع السابق، ص394.

(4) عادل بشتاوي: المرجع السابق، ص163.

(5) المرجع نفسه، ص163.

(6) محمد عنان: المرجع السابق، ص394. كذلك محمد رزوق: المرجع السابق، ص117.

(7) عادل بشتاوي: المرجع السابق، ص162. كذلك محمد عنان: المرجع السابق، ص394.

وجوب قتل الموريسكيين دفعة واحدة أو قتل البالغين منهم، واسترقاق الباقين وبيعهم عبيداً[1]، وكان مما اقترحه بعض وزراء "فيليب الثاني" عام (1007هـ/1598م)، أن يجمع الموريسكيين، ويحملوا على السفن ثم يُغرّقوا في عرض البحر[2]، واستمرت السياسة الأسبانية النصرانية حيناً تتلمس المخرج وسط هذه الحلول الهمجية، حتى توفي "فيليب الثاني" في عام (1007هـ/1598م)، وخلفه ولده "فيليب الثالث" وكان هذا الملك الفتى، ضعيف الرأي والإرادة، يتأثر كأبيه بنفوذ الأحبار، ويخضع لوحي وزيره وصفيه الدوق "دي ليرما"[3]، وكان الدوق من أشد أنصار فكرة القضاء على الموريسكيين، وقد أشار بها منذ سنة (1008هـ/1599م)، ووضع لتنفيذها مشروعاً، خلاصته أن الموريسكيين إنما هم عرب، ويجب أن يُعدم الشباب والكهول منهم، ما بين الخامسة عشر والستين، أو أن يسترقوا ويرسلوا للعمل في السفن وتنزع أملاكهم[4]، أما الرجال والنساء الذين جاوزوا الستين، فينفوا إلى المغرب، وأما الأطفال فيؤخذوا ويربوا في المعاهد الدينية، هذا المشروع الذي أقرته حكومة أسبانيا النصرانية، وأخذ يعمل سراً لحشد القوى اللاّزمة لحصر عدد الموريسكيين في الأندلس[5].

ومضت بضعة أعوام أخرى، والفكرة تبحث وتختمر وتتوطد، حتى كانت حوادث المغرب في عام (1016هـ/1607م)، وما نُسب للموريسكيين من صلة بمولاي "زيدان" سلطان مراكش ومشاريعه لغزو الأندلس[6]. عندئذ بادر مجلس الدولة الأسبانية النصرانية بالاجتماع في عام (1017هـ/1608م)، واستعرضت جميع الآراء السابقة وبحثت جميع الاقتراحات بوجوب نفي الموريسكيين خارج الأندلس[7]. وأكد

---

(1) محمد عنان: المرجع السابق، ص394.

(2) Dr. Lea: The Moriscos, p. 296-299.

(3) Ibid, pp.296-299.

(4) محمد عنان: المرجع السابق، ص394.

(5) المرجع نفسه، ص395. كذلك عادل بشتاوي: المرجع السابق، ص165.

(6) محمد رزوق: المرجع السابق، ص122. كذلك:

Mercedes Garcia Arnela, Los Moriscos de Reino de Granada, pp. 244-225.

(7) مؤلف مجهول: تاريخ الدولة السعدية التكدارتية، نشره جورج كولان، (الرباط، 1934)، ص93.

الجميع على أن نفي الموريسكيين أصبح ضرورة حتمية؛ لأنهم يتكاثرون بسرعة، بينما يتناقص عدد النصارى القدامى[1].

وفي عام (1018هـ/1609م)، بحث مجلس الدولة الأسبانية النصرانية المسألة لآخر مرة، وقدّم تقريراً ينصح فيه بوجوب نفي الموريسكيين[2]، لأسباب دينية وسياسية، وتقرر أن ينفذ هذا المشروع كله في خريف ذلك العام، وأرسلت الأوامر إلى حكام صقلية، ونابولي، وميلان، بإعداد جميع السفن الممكنة لنقل الموريسكيين[3]، وجميع القوات اللازمة لحراستهم، واجتمعت منذ أوائل الصيف في مياه ميورقة، عشرات السفن، وصارت أهبة للتنفيذ بسرعة ونشاط[4].

وهكذا انتهت السياسة الإسبانية النصرانية بعد فترة من التردد، إلى اتخاذ خطواتها الحاسمة في القضاء على البقية الباقية من الموريسكيين، وتحقيق أمنيتها القديمة، في تطهير الأندلس نهائياً من آثار الإسلام وآثار العرب، ومحو تلك الصفحة الأخيرة لشعب عظيم تالد[5].

وفي (22 جمادي الثانية 1018هـ/الموافق 22 سبتمبر 1906م)، أصدر الملك "فيليب الثالث" مرسوماً ملكياً يقضي بالنفي النهائي للموريسكيين، فساد بينهم الروع والاضطراب[6].

لقد نص القرار بعد التنويه بخيانة الموريسكيين واتصالهم بأعداء أسبانيا، وإخفاق كل الجهود التي بُذلت لتنصيرهم، وضمان ولائهم، وما استقر عليه رأي الملك

---

(1) محمد عنان: المرجع السابق، ص396.

(2) محمد عنان: المرجع السابق، ص396. كذلك عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس، ص184.

(3) محمد عنان: المرجع السابق، ص396.

(4)Boronat, Los Moriscos espànoles. t. I, pp. 184-186.

(5) محمد خطاب: المرجع السابق، ص95. كذلك علي الشطشاط: نهاية الوجود العربي، ص99.

(6) محمد عنان: المرجع السابق، ص396. كذلك محمد خطاب: المرجع السابق، ص95.

من نفيهم جميعاً إلى بلاد (المغرب)[1]، وبناءً على ذلك فإنه يجب على جميع الموريسكيين من الجنسين، أن يرحلوا مع أولادهم، في ظرف ثلاثة أيام من نشر القرار، من المدن والقرى إلى الثغور التي يعينها لهم مأمور الحكومة، والموت عقوبة المخالفين، وأن السفن قد أُعدت لنقلهم إلى بلاد المغرب[2].

وقع قرار النفي على الموريسكيين وقع الصاعقة، وسادهم الوجوم والذهول، وكان عصر الثورة والمقاومة قد ولى، ونُهكت قواهم، ونضبت مواردهم. وكانت الحكومة الإسبانية النصرانية قد اتخذت عدتها، وحشدت قواتها في جميع الأنحاء الموريسكية[3]، واجتمع زعماء الموريسكيون وفقهاؤهم في بلنسية، وقرروا أنه لا أمل في المقاومة وأنه لا مناص من الخضوع، واستقر الرأي على أن يرحلوا جميعاً[4]، وألا يبقى منهم أحداً، وأن من بقى منهم اعتبر مرتداً مارقاً[5]. ومع ذلك فقد وقعت ثورات محلية، وتأهبت بعض الجماعات المحتشدة في المناطق الجبلية للمقاومة، وعاثت في الأنحاء المجاورة، ولكنها كانت فورة المحتضر، فأُخمدت حركاتهم بسرعة وقُتل منهم عدد جم[6].

وتظلم كثير من المدنين من قرار النفي، وقالوا إنهم اعتنقوا النصرانية طوعاً قبل التنصير الإجباري، وغدوا نصارى أسبانيين قبل كل شيء، فصدر الأمر إلى الأساقفة ببحث ظلامتهم، وأن يُسمح لهم بالبقاء لمن توفرت فيه منهم شروط الولاء والإخلاص[7].

---

(1) محمد عنان: المرجع السابق، ص396.

(2) المرجع نفسه، ص396.

(3) مرثيديس لرنيال: المرجع السابق، ص225.

(4) المرجع نفسه، ص226.

(5) محمد رزوق: المرجع السابق، ص116-117.

(6) المرجع نفسه، ص117.

(7)Dr. Lea: History of the Inquisition in Spain, Vol. III, p. 399.

أما الأغلبية الساحقة من الموريسكيين فقد هرعت إلى اتخاذ أهبة الرحيل، وأخذوا في بيع ما تيسر بيعه من أمتعتهم وممتلكاتهم، وتدفقت السلع على الأسواق، لتُباع بأبخس الأثمان[1].

وفيما يتعلق بالمرحلة الأخيرة من الهجرة الأندلسية (1018-1023هـ/1609-1614م)[2]، والتي أعقبت قرار الطرد الجماعي للموريسكيين من الأندلس في فترة حكم "فيليب الثالث"، فإن الجهات الساحلية للجزائر قد استقطبت أعداداً كبيرة من المهاجرين قسراً بواسطة السفن الإسبانية، فبعد صدور مرسوم النفي، تم ترحيل 28 ألف موريسكي إلى ميناء دانية[3] و15 ألف أخرى إلى ميناء بلنسية، وقد حملتهم السفن الإسبانية على نفقاتها الخاصة إلى مدينة وهران، بينما اعتمد المهاجرون الآخرون على أنفسهم في استئجار السفن والإبحار صوب السواحل الجزائرية[4]. ولجأت إسبانيا إلى نقل الموريسكيين رأساً إلى السواحل الغربية من الجزائر، خاصة وهران والمرسى الكبير ومستغانم، بحيث استغلت السلطات الإسبانية فرصة تواجدها العسكري في كل من وهران والمرسى الكبير لترحيل الآلاف من الموريسكيين نحو هذه المناطق. وقد عرفت الجزائر خلال هذه المرحلة هجرة مكثفة من الموريسكيين الذي بلغ عددهم في مطلع القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي حوالي 25 ألف موريسكي[5].

---

(1) محمد عنان: المرجع السابق، ص398.

(2) عبد الجليل التميمي: "الدراسات الموريسكية في الخمسة والعشرين سنة الأخيرة في إسبانيا"، أعمال المؤتمر العالمي السادس للدراسات الموريسكية الأندلسية، زغوان، سرمدي، 1995، ص133.

(3) دانية: تقع على البحر المتوسط شرقي الأندلس، وهي عامرة حسنة تمتاز بربضها العامر وسورها الحصين الذي تظهر البراعة الهندسية في دقة بنائه، ولها قصبة منيعة، كما تكثر بها البساتين والأشجار المثمرة، وبها دار لصناعة السفن ومنها يخرج الأسطول للغزو = ينظر: الإدريسي: المصدر السابق، مج2،557.

(4) سعيوني، ناصر الدين: الأندلسيون (الموريسكيون) بمقاطعة الجزائر أثناء القرنين 16 و17م، دار السلطان، مجلة حوليات جامعة الجزائر، العدد 7، الجزائر، 1993م، ص113.

(5) المرجع نفسه، ص113.

وسافر منهم في اتجاه الشمال إلى حدود فرنسا نحو أربعة آلاف عائلة، وإلى قرطاجنة نحو عشرة آلاف بحجة السفر إلى الأراضي النصرانية، وذلك لكي يحتفظوا بأولادهم الصغار، ولكن تسرب الكثير منهم إلى الثغور المغربية[1]. وبلغ عدد المنفيين في الثلاثة أشهر الأولى زهاء مائة وخمسين ألفاً[2].

واتجهت بعض الجماعات منهم إلى الثغور الإيطالية مباشرة، أو عن طريق فرنسا، ومنها أبحرت إلى مصر والشام وقسطنطينية[3].

ونفذ قرار النفي في كل مكان بصرامة ووحشية، واستمرت السفن شهوراً بل أعواماً تحمل أكداساً من تلك الكتل البشرية المعذبة، فتلقي بها هنا وهنالك، في مختلف الثغور الأفريقية، في غمر من المناظر المروعة والمفجعة[4].

وقد رويت روايات كثيرة محزنة عن مصير بعض جماعات المنفيين، على أن بعض الموانئ والمدن بالمغرب أساءت استقبال الموريسكيين، وخاصة في وهران وتلمسان حيث قام البدو بسلبهم وقتلهم. وقد كتب المؤرخ الإنجليزي "شارلي" "Lea" حول هذا الموضوع بقوله: "لم يكن مسلمو تطوان متسامحين ... وقد أضيفت إلى الموريسكيين مأساة جديدة وهذا إلى درجة أن لم يكونوا فرحين ليعلموا أن هناك موريسكيين مسيحيين ثابتين في دينهم وقد رجموا أو قتلوا، وهذا نتيجة رفضهم دخول المساجد، وفي البلاد المغاربية وكقاعدة عامة، كانت آلام المهاجرين شنيعة جداً، وعندما نزلوا بوهران سعوا لتبني خطة إنشاء دولة موريسكية ... ولاشك أن الموريسكيين لم يكونوا يدركون الوضعية العامة، إلى أن عاينوا بأنفسهم كره العرب البدو لهم، وأنهم لا يرغبون الآن إلا في الرجوع إلى أسبانيا"[5].

---

(1) محمد عنان: المرجع السابق، ص400.

(2) المرجع نفسه، ص400.

(3) المقري: نفح الطيب، 617/2.

(4) محمد عنان: المرجع السابق، ص401.

(5) شارل لي: العرب والمسلمون بعد سقوط غرناطة، ترجمة حسن الكرمي (بيروت، 1988م)، ص212.

ولعل الصورة تبدو أكثر وضوحاً إذ حاولنا رصد ما كتبه المقري في "نفح الطيب" حيث يذكر: "... فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات، ونهبوا أموالهم، وهذا ببلاد تلمسان وفاس، ونجا القليل من هذه المعرة..."[1].

ويفهم من سياق هذه الرواية أن الموريسكيين لاقوا على أيدي إخوانهم بمنطقة تلمسان وفاس سوء المعاملة والمعاناة لا غير[2].

ومهما يكن من انتقادات لهذه الروايات فإن بعض الباحثين المعاصرين تبنوا مثل هذه المواقف بهذه الفترة الحرجة محللين إياها بشكل غير متوازن، وهو الأمر الذي جعلهم يُركزون على الطابع الغير إنساني والسلبي لمواقف بعض الطبقات الاجتماعية للأهالي[3]. هذه الوضعية الناجمة عن الفوضى الإدارية والسياسية للمغرب، كونها ظاهرة تاريخية قديمة، والمتمثلة في الصراع القبلي ونهب الأملاك، لم يستطع النظام العسكري العثماني القضاء عليها، على أساس أن الجزائر كانت دار جهاد ومحور صراع دائم مع القوى المسيحية في المنطقة[4].

آثار النفي:

أن العمل على إبادة الموريسكيين، كان ضربة شديدة لعظمة الأندلس ورخائها، ولم تنهض الأندلس قط من عواقب هذه السياسة الغاشمة التي اتبعتها أسبانيا النصرانية، بل انحدرت منذ نفي الموريسكيين، من أوج عظمتها إلى غمرة التدهور والانحلال[5].

لقد كان لقرار النفي آثاره السيئة والمدمرة على الصعيدين الاجتماعي والحضاري في الأندلس، فقد أدى قرار الطرد إلى خلو مناطق كاملة من سكانها بالقتل

---

(1) المقري: نفح الطيب، 528/4.

(2) المقري: المصدر نفسه، 528/4.

(3)Mercedes Garcia Arenal: Los Moriscos, Madriad, 1975, pp. 225-245.

(4) ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الثقافي، العهد العثماني (الجزائر، 1984م)، 141/1.

(5) محمد عنان: المرجع السابق، ص411.

أو بالاضطرار إلى الهروب، إثر قرار المصادره والنفي الجماعي لسكانها[1]، مما أدى إلى تخريب أكثر من أربعمائة قرية وضيعة في منطقة غرناطة وحدها، كانت آهلة بمجتمع الموريسكيين الحضاري المنتج، ولم تفلح جهود الكنيسة في ملء الفراغ بالأسر المسيحية المهجرة والمنقولة من مناطق أخرى، وهو عمل كما يراه النقد الحديث ضربة قاسية لعظمة إسبانيا النصرانية مازالت تعاني من آثاره حتى اليوم[2]. فقد حرمت إسبانيا النصرانية من النتاج والثروة العقلية والفنية والصناعية التي كانت تتمتع بها عناصر الأمة الأندلسية من المسلمين[3].

ولم يعرف الأسبان عندما نفوا المسلمين من بلادهم إنهم إنما يخربون بيوتهم بأيديهم، ولم يدركوا أنهم قتلوا الأوزة التي تبيض الذهب على حد تعبير "لين بول" "Lane Pool"، فقد بقيت أسبانيا النصرانية قروناً طويلةً في حكم العرب وهي مركز المدينة ومنبع الفنون والعلوم ومصباح الهداية والنور في أوروبا في ذلك الوقت، ولم تصل أية مملكة في أوروبا إلى ما يقرب مما وصلت إليه أسبانيا النصرانية في ثقافتها وحضارتها. بل لم تبلغ أسبانيا بعد ذلك في أزهى عصورها الأوج الذي بلغه المسلمون في الأندلس[4].

وقد اعترف بعض رجال الدين المسيحيين المعتدلين بهذه الحقيقة، وبقيمة الموريسكيين الحضارية والمادية، إذ روي عن مطران غرناطة قوله (في منتصف القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي): "ولكي نكون مسيحيين صالحين نحن وهؤلاء الموريسكيين عليهم أن يأخذوا عقيدتنا، وعلينا أن نأخذ منهم أعمالهم الطيبة الحميدة". ويقول "لين بول" "Lane Pool": "فحل البؤساء والدهماء واللصوص مكان

(1) محمد عنان: المرجع السابق، ص411.

(2)H. Ch. Lea. The Moriscos of Spain, 1953, pp. 363-364.

(3) المقري: نفح الطيب، 617/2. كذلك عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس، ص184، علي الشطشاط: المرجع السابق، ص99.

(4) عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس، ص184.

الطلاب والتجار والفرسان، ذلك مبلغ انحطاط إسبانيا بعد إقصائها للعرب، وهكذا يبدو البون شاسعاً بين أدوار تاريخها"[1].

وقد ظهرت هذه الآثار المخربة، بالأخص في محيط الزراعة والصناعة، وكان تدهور إيراد الضياع الكبيرة، وإيراد الكنائس والأديار، دليلاً ما أصاب قوة أسبانيا النصرانية المنتجة، الزراعية والصناعية، بسبب نفي طائفة كبيرة، من أنشط طوائف السكان وأغزرهم إنتاجاً[2]. وكان من الحقائق المعروفة أن السكان الأسبان كانوا يبغضون الأعمال الزراعية والفنية ويعتبرونها أمراً شائناً، وأن الإسباني لا يربي أولاده لمزاولة العمل الشريف، وأن أولئك الذين لا يجدون عملاً في الجيش والحكومة، يلتحقون بالكنيسة[3].

وقد كان النبلاء والأحبار، وأصحاب الضياع الكبيرة بوجه عام، يعتمدون في تعهد أراضيهم وفلاحتها على نشاط الموريسكيين وبراعتهم[4]، فلما وقع النفي جمد النشاط الزراعي، وخلت معظم الضياع من الزراع، وأقفر كثير من القرى، وهدمت ضياع كثيرة لخلوها من السكان، ولاسيما في منطقة بلنسية، واضطر النبلاء إلى استقدام العمال الزراعيين من الجزائر الشرقية (البليار) وأنحاء البرنية وقطلونية، ومع ذلك فقد حدث نقص ملحوظ في غلات الضياع الكبيرة[5]، ولم ينتفع النبلاء بما أصابوه من الاستيلاء على الأراضي التي نُزعت من أيدي الموريسكيين وتعذر عليهم تعميرها وفلاحتها، وحاق بهم الضيق حتى اضطر العرش إلى منح كثيرين منهم نفقات سنوية من خاصة أمواله، هذا فضلاً عما أصاب طوائف السكان الأخرى، التي كانت تتصل بالموريسكيين في المعاملات والتبادل، من العسر والضيق[6].

---

(1)Lane Pool: The Moors in Spain, p. 330.

(2) عادل بشتاوي: المرجع السابق، ص177.

(3)Lee: The Moriscos, pp. 379-381.

(4) محمد عنان: المرجع السابق، ص413.

(5) عادل بشتاوي: المرجع السابق، ص177. كذلك محمد عنان: المرجع السابق، ص414.

(6) محمد عنان: المرجع السابق، ص414. كذلك عادل بشتاوي: المرجع السابق، ص177.

وكما انحط دخل الكنائس والأديار، فكذلك خسر ديوان التحقيق شطراً كبيراً من دخله، مما كان يصيبه من مصادرة أموال الموريسكيين والحكم عليهم بالغرامات الفادحة، واضطرت الحكومة أن تحول كثيراً من محاكم التفتيش، التي أوشكت على الإفلاس، من جراء اختفاء الجماعة التي كانت تزدهر بمطاردتها واستصفاء أموالها[1]، وقد بيعت أملاك الموريسكيين وأراضيهم بمبالغ كبيرة، ولكن العرش استولى عليها ووزع معظمها على أصفيائه من الوزراء والنبلاء والأحبار، ولم ينل ديوان التحقيق سوى جزءاً يسيراً منها[2].

ولم تمض أعواماً قلائل على نفي الموريسكيين حتى ظهرت هذه الآثار المخربة كلها في حياة المجتمع الإسباني النصراني بصورة مزعجة، وهال العرش والحكومة ما أصاب الأمة من ضروب البؤس والخراب[3]، وطلب رئيس الحكومة الدوق "دي ليرما" في سنة (1927هـ/1618م)، إلى مجلس الأمة، أن ينظر في هذا الأمر، ويعمل على معالجته[4]، وقدم مجلس الدولة تقريره بعد عام، الذي أشير فيه إلى خراب المدن والقرى، وإلى تكاثر عدد رجال الدين وتزييف العملة، وبغض الشعب للعمل الشريف[5]، بل حاول أن يرجع الشر إلى الشر إلى فداحة الضرائب، وإلى الترف الذي تعيش فيه الطبقات الممتازة وإسراف الملك في الإغداق على أصفيائه[6]، وكذلك اهتم مجلس النواب بالأمر وقدّم عنه تقريراً إلى الملك. ومع أن التقارير الحكومية التي وضعت عن هذه المحنة، فقد كانت القرارات الملكية ما ينطق بهذه الحقيقة. ففي سنة (1031هـ/1622م)، أصدر الملك "فيليب الرابع"، قراراً بخفض الضرائب في بلنسية

---

(1) Boronat, Los Moriscos Espànoles ..., t. I. pp. 184-186.

(2) مرثيدس أرنيال: المرجع السابق، ص226. كذلك عنان: المرجع السابق، ص414.

(3) عادل بشتاوي: المرجع السابق، ص177.

(4) Defourneaux, Marcelin. Daily life in Spain in the Golden Age, (London), 1970, p. 17.

(5) عادل بشتاوي: المرجع السابق، ص178.

(6) Defourneaux Marcelin, op. cit., p. 18.

يشير فيه إلى هجرة السكان وإلى ما خسرته المدينة من ضروب الدخل، التي كانت تُجنى على ما يستهلكه الموريسكيون، وما خسره التجار من انقطاع التعامل معهم[1].

على أن جهود العرش والحكومة، لم تجد شيئاً في تخفيف هذه الضائقة، التي حلت بالمجتمع الأسباني النصراني[2]، وشملت سائر الطبقات سواء في الإنتاج أو الاستهلاك، ومضى وقت طويل قبل أن تستقر الأحوال نوعاً، وتفيق الزراعة والصناعة والتجارة من الضربة التي أصابتها[3].

يقول الدكتور "لي" "Lea" في ذلك: "إنه لا يمكن لفريق من السكان أن يعتمد عليه مدى القرون، في القيام بقسط عظيم من الإنتاج والتنظيمات المالية في البلاد، أن يخرق فجأة وينبذ، دون أن يثبت ذلك الخراب الواسع، ويثير معتركاً من المشاكل يمتد أثرها إلى أجيال مرهقة[4].

ثم ينعى على السياسة الإسبانية النصرانية تخبطها وقصر نظرها فيقول: "وإنه لمن خواص السياسة الإسبانية النصرانية في ذلك العصر، أنه لم يفكر أحداً في هذه الشؤون، ولم يحتط لها أحد في المباحثات الطويلة، التي جرت في قضية الموريسكيين، وقد حدثت ثمة مناقشات لا نهاية لها حول مختلف المشاريع ومزاياها، والوسائل التي ينفذ بها النفي، وماذا يسمح به للمنفيين، وماذا يكون مصير الأطفال. ولكن النتائج المحتملة تركت للمصادفة، واحتقرت التفاصيل العملية، واحتقر رضاء الفرد، وهو ما يوضح فشل السياسة الإسبانية النصرانية"[5].

ويقول العلامة "سكوت" "Scott" "لقد كانت نتائج هذه الجريمة التي ارتكبت ضد الحضارة، سواء البعيد منها أو المباشر، ضربة لأسبانيا. فقد عصفت بموارد عيشها، ودفع بها القحط إلى الخراب، وأضحى من الضرورة أن تمد الحكومة يد الغوث

---

(1) عنان: المرجع السابق، ص415.

(2) عنان المرجع السابق، ص415-416-429.

(3) عادل بشتاوي: المرجع السابق، ص178.

(4)Lea: The Moriscos, p. 387.

(5)Lea: The Moriscos, 387.

إلى كثير من الأسر النبيلة، التي أودى بثرواتها تصرف العرش الانتحاري، وخيم الصمت والوجوم على مناطق شاسعة، كان يغمرها الخصب الأخضر، وظهر اللصوص والخارجين على القانون مكان الزراع والصناع، وحل الجزاء المروع عقب مأساة لم تقدم على مثلها لحسن الطالع أية أمة أخرى، مأساة أنزلت منذ وقوعها بالأمة التي ارتكبت فظائعها، كل صنوف الدمار والويل حتى الجيل الأخير[1].

رابعاً: الأحوال المعيشية والعمرانية والمهارات التقنية للموريسكيين الأندلسيين:

1- أعدادهم:

كانت أعداد الموريسكيين كبيرة، ما يقرب من مليون نسمة، ففي القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، كان الموريسكيون يشكلون نحو نصف سكان مملكة أرغون، وأكثرية السكان في بلنسية بشرق الأندلس، ولعلهم كانوا يشكلون نصف سكان جزيرة ميورقة[2].

أما بالنسبة لقشتالة، فكان الموريسكيون قلة متناثرة بها، وهم فئتان: القدامى، وكانوا فارين يقيمون في أحياء خاصة بهم، وبينهم كثير من الصناع المهرة والفئة الثانية هم مسلمو الوادي الكبير (قرطبة - إشبيلية) وغرب الأندلس، وقد نزح معظمهم إما إلى المغرب، وإما إلى غرناطة التي تضاعف عدد سكانها نتيجة لذلك[3].

2- ثقافتهم:

رافق احتلال النصارى اختفاء "النخبة" (الزعامة) الثقافية والسياسية بين المسلمين، مما أدى إلى ضعف العربية تدريجياً، وهو يفسر ظهور ما يُعرف بالأعجمية

---

(1)Scott: The Moorish Empire in Europe, V. III, p. 328 كذلك محمد عنان المرجع السابق ص، 429.

(2)Harvey, L. P. Islamic Spain 1250-1500, Chicago University Press, 1990, 6/51.

(3)Ibid, 6/51.

(Alajamiada)، وهي القشتالية مكتوبة بحروف عربية، كما ظهر الأدب المعــروف بأدب "الأعجمية" (Alajamiado)[1].

يقول الأستاذ: "هارفي" "Harvey" إن من أهم مساهمات الفقيه "عيسى جــابر" لبقاء الإسلام في الأندلس فــي أواخــر القــرون الوســطى وفــي القــرن العاشــر الهجري/السادس عشر الميلادي أنه قدم لأبناء دينه ترجمة للقرآن الكريم وكتابــاً فــي الشريعة بالقشتالية الدارجة بينهم"[2].

وأما وضع الموريسكيين في مملكة أرغون القديمة فكان يختلــف عــن وضــع المريسكيين في بلنسية، فمعظمهم في أرغون، بسبب انقطاعهم الطويــل عــن ديــار الإسلام، لم يعد يعرف العربية، بينما في بلنسية وشرق الأندلس لكثرة المسلمين، ظلت العربية لغة التخاطب والمعاملات بينهم[3]، وقليل منهم كان يعرف اللغات الرومانسية، مما يفسر كثرة هجرة البلنسيين إلى غرناطة وشمال أفريقيا، وقلة هجرة مسلمي أرغون في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد، أن مسلمي أرغون كانوا يرسلون أبناءهم إلى بلنسية لتعلم العربية بها[4].

3- الفلاحـــــة:

كان الموريسكيون يشكلون أكثرية الفلاحين في الأرياف، ظلــوا يعملــون فــي المزارع لملاكها الجدد من النبلاء والنظم الديرية[5].

---

(1) أمين توفيق الطيب: دراسات في التاريخ الإسلامي، الدار الأندلسية للطباعة، (طرابلس، 1992)، ص276.

(2)Harvey, L. P. Islamic Spain, p.56.

(3) أمين الطيب: المرجع السابق، ص277.

(4) المرجع نفسه، ص277.

(5)Glick, T. F., Islamic and Christian Spain in the Early Middle Ages, Princection University Press, 1979, p. 178.

أن مناطق شاسعة من أرغون وبلنسية كان يفلحها الموريسكيون الذين كان رؤساء الإقطاع يفضلونهم على النصارى كمستأجرين لأراضيهم[1].

أن مهارة الموريسكيين في أعمال الفلاحة كانت عاملاً من عوامل المنافسة بين التاج والنبلاء في حسن معاملتهم واجتذابهم للعمل في أراضيهم[2].

يقول الأستاذ "هارفي": "إن عمل الموريسكيين حظي بالتقدير، دون أشخاصهم أو دياناتهم"[3].

4-الري:

احتفظ النصارى بوسائل الري، التي كان المسلمون قد طوروها لدرجة عالية، لا في غرناطة بعد سقوطها فحسب، بل كذلك في الأراضي الخصبة حول بلنسية، ومرسية، وشرق الأندلس، وجزيرة ميورقة، وانتشر في قطلونية استخدام الأرحاء المائية لرفع الماء إلى الأراضي المرتفعة[4].

وبسبب نزوح الكثيرين من المسلمين، فإن الأراضي المروية تقلصت مساحتها بعد نزوحهم، وانتشر رعي الأغنام وتربيتها بين النصارى، لاسيما في قشتالة، حيث بدئ بتربية أغنام المرينو[5] ذات الأصواف الممتازة، إذ منذ أواخر القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي هجنت الأغنام الإسبانية النصرانية بأغنام بني مرين[6].

ويمثل انبهار النصارى بالجنان المروية للمسلمين ما ذكره ملك أرغون "جيمس الأول" في كتاب "الأعمال" عن الجنان حول مدينة شاطبة "Jativa"، إذ يقول: "أبصرنا

(1) Ibid, p. 178.

(2) أمين الطيبي: المرجع السابق، ص281.

(3) Harvey, L. P. Islamic Spain, p. 136.

(4) أمين الطيب: المرجع السابق، ص281.

(5) المرينو: نسبة إلى قبائل المرين - أمين الطيبي: المرجع السابق، ص282.

(6) أمين الطيبي: المرجع السابق، ص281-282.

أجمل ما وقعت عليه أعيننا من جنان، وكانت تضم أكثر من مائة بستان، مما أبهج أفئدتنا"[1].

واحتفظ النصارى في وادي إيره (إقليم سرقسطة) بأنظمة الري العربية، وتعلموا إدارتها من المسلمين: فالماء كان يوزع بالدور (Ador)، ويُشرف على القناة صاحب الساقية (Cavacequia) والأمناء (Alamis)[2].

وشبيه بذلك ما اتبع بعد قرن في بلنسية بعد الاستيلاء عليها، حيث استمر فيهما وفي مدن شرق الأندلس العمل بنظام توزيع الماء على الطريقة الشامية، وترد في الوثائق المتعلقة بالري عبارة ثابتة مؤداها أن ترتيبات توزيع الماء يجب أن تستمر كما كان الحال (في عهد المسلمين)[3].

5-الصناعات:

وفضلاً عن الفلاحة، عرف الموريسكيون بمهاراتهم في الصناعات الخزفية، وزخرفة السقوف، وكانت صناعة الفخار من أهم أعمال موريسكيي بلنسية[4]، كما كان الموريسكيون ينتجون الحرير بكميات كبيرة (إقليم جيان)، ويزاولون صياغة الفضة وكان لهم دوراً بارزاً في صناعة المنسوجات في بلنسية وشاطبة وإشبيلية[5]، وبقيت صناعة الورق في شاطبة، وإنشاء المراكب في طرطوشة من خشب جبالها، ويقول "الإدريسي" في ذلك إن بجبال طرطوشة "خشب الصنوبر الذي لا يوجد له نظير في الطول والغلظ، ومنه تتخذ الصواري"[6].

---

(1)Hillgarth, J. N., The Spanish Kingdoms 1250-1516, Oxford University Press, 1976, 1/287.

(2)Glick, T. F., Islamic and Christian in the early middle ages, Princeton University Press, 1979, p. 100.

(3)Glick, T. F., Islamic and Christian Spain, p. 101.

(4) أمين الطيبي: المرجع السابق، ص283.

(5) المرجع نفسه، ص283.

(6) الإدرسي: المصدر السابق، ص187.

أما في مجال الحرف والصناعات اليدوية، فالموريسكيون كانوا لا مثيل لهم، وخاصة في تلك الأساليب الفنية التي تتطلب مهارات كأعمال الجص المزخرف، وتطعيم الخشب (بالصدف والعاج) ونحته، وعمل السقوف المزخرفة، والأبواب من قطع مفصلة، وصناعة الآجر، والصناعات الخزفية (Ceramical/ceramics)[1]. وفي هذا الخصوص يقول ابن بطوطة: "إنه يصنع بمرسية وكذلك في المرية، ومالقة الزجاج الغريب العجيب، وفخار مزجج مذهب"[2].

أ) الزليج والصناعات الخزفية:

إن أول ما يخطر بالبال في هذا الصدد قصر الحمراء بغرناطة، والقصر (Alcazar) في إشبيلية، بما يحتويانه من مساحات شاسعة من الزليج (Azulegjos) بأشكال هندسية متشابكة[3]. يقول ابن بطوطة: "إنه يصنع بالأندلس نوع من المفصص المعروف في الشرق بالفسيفساء، ونوع تبسط به قاعات ديارهم يُعرف بالزليجي يشبه المفصص، وهو ذو ألوان عجيبة، يقيمونه مقام الرخام الملون"[4].

إن فن المعمار الإسلامي كان يختلف عن فن المعمار القوطي القائم على الضخامة وخلو الجدران من الزخارف، فتصدير الزليج وغيره من الأعمال الخزفية كان صناعة كبرى أثناء فترة السيادة الإسلامية، وبعدها بقرون[5].

---

(1) أمين الطيبي: المرجع السابق، ص283.

(2) ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد إبراهيم اللواتي، رحلة ابن بطوطة، دار صادر (بيروت، بدون تاريخ)، ص202.

(3) أمين الطيب: المرجع السابق، ص283.

(4) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص202.

(5) أمين الطيبي: المرجع السابق، ص283-284.

ب- التشييد والبناء (المعمار):

إن الكثير من الكنائس في الأندلس شيدها الموريسكيون في أواخر القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي اعتماداً على مهاراتهم التقليدية التي اكتسبوها عبر قرون في بناء المساجد والقصور بالمدن الإسلامية[1]. فالنصارى الذين عهدوا إلى الموريسكيين بهذا العمل لم يجدوا فيه غضاضة، حتى حينما كان الموريسكيين يدخلون في زخارفهم عبارات باللغة العربية[2].

إن الفن المعماري الموريسكي هو السائد في قرطبة وإشبيلية، كما في كنائسها، والأثر الإسلامي واضح حتى في كاتدرائية طليطلة ذات الأبراج على شكل مآذن[3]، وقام الموريسكيون بزخرفة كنيسة "سان رامون" بطليطلة حيث تصحب الكتابات العربية المشاهد، كما يلاحظ بأن بناء وزخرفة أبراج الكنائس في أرغون كما في مدينة ترويل شبيهان بالخيرالدا (Giralda) في إشبيلية[4].

وفي أرغون يلاحظ أن الكنائس موريسكية الطراز المعماري، وفي إحدى هذه الكنائس في بلدة "Maluenda" نقشت عبارة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) بالعربية بعد عبارة من الإنجيل بالحروف القوطية[5].

كما أن أثر الموريسكيين في البناء في المباني الخاصة أكثر منه في المباني الدينية، وساهم الصناع الموريسكيون في إقامة المنشآت العامة، كالجسور ومباني البلديات والمستشفيات والحمامات وأرصفة الموانئ وكذلك في تشييد تحصينات المدن والقلاع[6].

---

(1) أمين الطيبي: المرجع السابق، ص286.

(2) المرجع نفسه، ص286.

(3)Hillgarth, J. N. The Spain kingdoms 1250-1516, I, 197-198.

(4)Ibid, I, 197-198.

(5)Ibid, I, 197-198

(6) أمين الطيبي: المرجع السابق، ص287.

ج) أعمال النجارة والحفر بالخشب:

تُفيد سجلات "برغش" "Burgos" عاصمة قشتالة القديمة أن الموريسكيين شاركوا في كافة أعمال البناء في "برغش" في القرنين الثامن والتاسع الهجريين/الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، وكان كل النجارين تقريباً بالمدينة من الموريسكيين(1).

كانت السقوف بكاتدرائية طليطلة من صنع الموريسكيين وعلى التقليد العربي، ويشتهر البيت المعروف ببيت الهندي بقرطبة ببابه ونافذته وهما من صنع الموريسكيين(2). كما أن أعمال الخشب الموريسكية كانت فائقة الجودة، وكان الحفر في الخشب (Wood work) مهارة تميز بها الموريسكيون في الأندلس(3).

د) المنسوجات:

اشتهرت مدينة شاطبة (بشرق الأندلس) منذ العهد الإسلامي بصناعة المنسوجات الكتانية، كما اشتهرت بلنسية بصناعة المنسوجات ولاسيما الحرير الموشي (الديباج)(4)، وصناعة الستائر حتى للكنائس وقد منح ملك أرغون موريسكيي شاطبة امتيازات ضريبية لاجتذاب الصباغين إليها، وكذلك صناع الحرير والصوف(5).

يقول ابن بطوطة: "إن مرسية اختصت بالوشي المذهب الذي يتعجب من حسن صنعه أهل المشرق إذا رأوا منه شيئاً، وفي قشتالة، من عمل مرسية تعمل البسط التي يغالى في ثمنها بالمشرق"(6).

---

(1) Hillgarth, J. N., The Spanish Kingdoms 1250-1516, Oxford Univ. Press. 1976, 1/180.

(2) Ibid, I, 180.

(3) أمين الطيبي: المرجع السابق، ص287.

(4) محمد حتاملة: المرجع السابق، ص109.

(5) المرجع نفسه، ص109.

(6) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص201.

ويذكر "الإدريسي" عن حصن بكيران (غربي دانية) فيقول: "إنه تصنع به ثياب تُباع بالأثمان الغالية، ويعمر الثوب منها سنين كثيرة، وهي من أبدع الثياب عتاقةً ورقة حتى لا يفرق بينها وبين الكاغد في الرقة والبياض"(1).



اللباس عند الفتاة الموريسكية

نقلاً عن: محمد حتاملة: التنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين (1474-1516م)، دار مطابع الشعب (عمان، 1980م)، ص183.

---

(1) الإدريسي: المصدر السابق، ص192.

هــ) صناعة الورق:

كانت شاطبة قرب بلنسية بشرق الأندلس في العهد الإسلامي، بل أول بلد في أوروبا صنع فيها الورق ومازال نوع من الورق السميك يُعرف في شمال المغرب الأقصى بالشاطبي[1]. ويذكر الشريف "الإدريسي" عن صناعة الكاغد "الورق" بمدينة شاطبة وقد زارها فيقول: "إنه يعمل بها من الكاغد ما لا يوجد له نظير بمعمور الأرض، ويعم المشارق والمغارب"[2].

وقد شجع ملوك أرغون الموريسكيين المشتغلين بصناعة الورق وحرصوا على بقائهم في المدينة[3].

ومما يدل على وفرة إنتاج شاطبة من الورق وما ذكره المؤرخ القطلاني "رامون مونتامر" "Muntamer" في تاريخه من أنه عندما يكتب عن "الجرائم السياسية" التي اقترفها الجنوبيون، والبيزيون، فإنه لن "يستطيع حتى لو توفر لديه كل ورق شاطبة!"[4].

و) الطـــب:

عملت النساء الموريسكيات طبيبات وقابلات للعائلات المسيحية، وفي أرغون ترجم من العربية حوالي خمسين كتاباً في الطب بين القرنين السابع والتاسع الهجريين/الثالث والخامس عشر الميلاديين وظلت كتب الطب العربية تُدرس عند جماعة الموريسكيين في سرقسطة حتى نهاية القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي[5].

---

(1) أمين الطيبي: المرجع السابق، ص288.

(2) الإدريسي: المرجع السابق، ص

(3) أمين الطيبي: المرجع السابق، ص288.

(4) Burns, R. I., Islam under the Crusaders, Princeton Univ. Press, 1973, p. 92.

(5) أمين الطيبي: المرجع السابق، ص290.

ومع ذلك فإن الأطباء المسلمين وكذلك اليهود كانوا يواجهون صعوبات في الحصول على إجازات لمزاولة مهنتهم من قبل مجلس طبي كل أعضائه من النصارى[1].

وفي مدينة وشقة (Huesea) إلى الشمال الشرقي من سرقسطة، منع الموريسكيون واليهود، من مزاولة الطب أو دراسته في جامعة المدينة، وفي بلنسية سُمح لعدد من المسلمين بمزاولة مهنة الطب بصورة استثنائية[2].

أضف إلى ذلك أن الموريسكيين كانوا يستأثرون بالتنظيم والخبرة في الأسواق، فمنهم كان البياطرة، والسّمارون، والحدادون[3]، كما تخصص الموريسكيون في صناعة وصيانة الأعنة والسروج، وكافة متطلبات الفارس آنذاك، من دروع وسيوف ورماح وأقواس رمي، وبنادق، ونظراً لاشتغالهم بصناعة الأسلحة، فإنهم وجدوا أنفسهم في طليعة التقنيات الجديدة التي كانت آنذاك آخذة في التطور بسرعة[4].

ومن خلال ما سبق يتضح للباحث أن الموريسكيين كونوا مجتمعاً متماسكاً متضامناً قوياً بنشاطه وأدبه وذكائه، وإن لم تعد لهم الصدارة، ولم يعودوا الطبقة الحاكمة في البلاد، فإنهم ظلوا يحافظون على تقاليد ومهارات ماضيهم المجيد، ولم يتركوا أثرهم وأساليبهم في إسبانيا المسيحية فحسب، بل تخطوها إلى كل أوروبا والعالم الجديد.

---

(1) Hillgarth, J. N., The Spanish kingdoms 1250-1516, I, 162.

(2) Ibid, I, 163.

(3) Harvey, L. P., Islamic in Spain 1250-1516, p. 144.

(4) Ibid, p.144.

الخاتمة

اتضح ليّ من خلال دراستي للموريسكيين ودورهم في الحفاظ على الهوية الإسلامية في الأندلس أن تاريخ المسلمين في الأندلس لم ينته بسقوط غرناطة (897هـ/1492م)، بل إن نقطة انطلاق تاريخية لمعاناة الموريسكيون قد بدأت حتى تاريخ الطرد عام (1018هـ/1609م).

وقد احتوت الدراسة على ماهية الموريسكيين وسبب تسميتهم، وأوضحت الدراسة مرحلة ما بعد سقوط غرناطة، وما فعله المسيحيون النصارى من إحراق للكتب العربية والإسلامية، وما فرضه الحكام المسيحيون من عقوبات على الموريسكيين لمحو شخصيتهم الإسلامية الأصيلة، كما استعرضت الدراسة بعض محتويات معاهدة تسليم غرناطة والتصرف عكس ما جاء فيها، ثم ركزْت الدراسة على مبدأ التقية وهي ممارسة الموريسكيين لطقوسهم الدينية الإسلامية مع إعلانهم التنصير، ومن خلال ذلك سلّطت الضوء على اللغة والأدب الموريسكي، وضياع التراث.

وركّزت الدراسة على انتفاضات وثورات الموريسكيين، واستغاثات الموريسكيين لطلب النجدة من الحكام المسلمين، وموقفهم من هذه النجدة، كما تم التعرف على الحياة الاجتماعية الداخلية للموريسكيين وهم يمارسون الطقوس الإسلامية سراً، ومدى تأثير الموريسكيين في التراث الأسباني لأجيال متعاقبة وحتى العصر الحديث،

لقد أوضحت الدراسة كيفية تعامل الموريسكيون مع الواقع المرير الذي كانوا في ظله، كما أوضحت الدراسة العلاقة بين الموريسكيين ومحاكم التفتيش والموريسكيين والأتراك، وبيان حركة المقاومة المسلحة للموريسكيين من خلال تشكيل الميليشيات المسلحة بالمدن، أو تنظيم المجاهدين في دول شمال إفريقيا، حيث كانت للمجاهدين البحريين شبكة قوية من المعلومات داخل أسبانيا بواسطة "المنفيين"، وأعطت الدراسة

معنى لمصطلح الموريسكي في قاموس الأكاديمية الأسبانية، وهو المنفي، والمنفي بالنسبة للأسبان النصارى هو مجرم لا غير.

لقد بينت الدراسة كيفية الإصرار على التصدي إلى التنصير القسري والاضطهاد والظلم والتمسك بالهوية الإسلامية والمحافظة عليها، كما توصلت الدراسة إلى اعتبار المشكل الموريسكي بأنه مشكلاً عالمياً وليس كما تدعي أسبانيا مشكلاً داخلياً، والدليل على ذلك هو تأثير العلاقات بين القوتين العظمتين: أسبانيا وتركيا آنذاك.

لقد أوضحت الدراسة كيف كان فيليب الثاني قد قضى على آخر ما تبقى من السياسة المعتدلة التي حاول أبوه أن ينتهجها، بإصدار عدة مراسيم تبين مدى الفزع الذي أصابه من غزو إسلامي جديد للمنطقة، ونبين من جهة أخرى مدى التأثير الذي كان يمارسه رجال الكنيسة على الملك لجعل السياسة في خدمة الدين.

وأوضحنا من خلال هذا البحث الدور الحضاريّ الذي اضطلع به الموريسكيون في عدد من المجالات كالفلاحة والريّ، والصناعات وخاصة الخزفيات والحفر بالخشب، والمعمار والمنسوجات، وصناعة الورق، وكافة المستلزمات الأخرى في شتى مناحي الحياة.

وأخيراً يمكن أن نستخلص من موضوع الدراسة النتائج التالية:

1- إن غياب رمز الوحدة الوطنية في بلاد الأندلس المتمثل في سقوط الخلافة الأموية فيها أسهم بشكل كبير في تمزق كيانها السياسي.

2- اتسمت معارك نصارى الأسبان ضد المسلمين بالأندلس بالحروب الصليبية المقدسة، مما جعل البابا يصدر صكوك الغفران للمشاركين فيها فضلاً عن مشاركة الأساقفة والرهبان لبث الحماس في نفوس جنودهم وإلهاب مشاعرهم للدفاع عن الصليب.

3- لقد ركّز قادة نصارى الأسبان إلى تحويل معالم المدن التي يتغلبون عليها على طمس معالمها الإسلامية وتحويلها لمعاقل سلطانهم ومركزاً لنفوذهم.

4- حاول الأندلسيون، مواجهة الموقف، لكن كان كل شيء يسير نحو النهايـــة، إذ أن تصميم نصارى الأسبان على اقتحام آخر معقل إسلامي بالأندلس فاق أية محاولـــة قام بها الأندلسيون بالمنطقة للدفاع عن معقلهم الأخير، وتميـــزت هـــذه المرحلـــة بفرض التعميد الإجباري على المسلمين، أي في الأخير نهاية الإسلام العلني لتبتدئ مرحلة "الإسلام السري" ومحاولة دمج المسلمين في المجتمع الأسباني، وإخلالهـــم بالعهود المبرمة مع المسلمين.

5- رفض المسلمون لأية محاولة لإدماجهم في المجتمع الأسباني، فأعلنوا الثورة مراراً من أجل المحافظة على هويتهم الحضارية.

6- واجه الأسبان هذه الثورات مراراً بعنـــف ووحـــشية لإدراكهـــم عمـــق المـــشكل المطروح.

7- كانت سياسة شارل الخامس أقل عنفاً من سياسة الملكين الكاثوليكيين، إذ نلاحظ أنه كان يتبع سياسة اللين في أحياناً كثيرة، ويرجع هذا أساساً إلى الآثار الاقتـــصادية الناجمة عن هجرة عدد كثير من الموريسكيين وبيع أملاكهم.

8- تدخل الأتراك لمساعدة الموريسكيين على الهجرة أذكى حماسهم وجعلهم يربطـــون اتصالات مباشرة معهم في شأن القيام بثورات داخل الأندلس نفسها، مما كان يثير مخاوف الأسبان باستمرار، لأن هذا التعاون كفيل بإفشال المشروع القاضي بوحدة الجبهة المسيحية.

9- تراجع فيليب الثاني عن سياسة أبيه المعتدلة، وذلك نتيجة فزعه الشديد من غـــزو إسلامي جديد للمنطقة، فقد أصدر مجموعة من القرارات التي من شأنها التـــضييق على الموريسكيين وجعلهم تحت قبضته لمراقبتهم.

10- استمرت موجة المقاومة ضد السلطات الأسبانية رغـــم الإجـــراءات الظالمـــة المتخذة ضدهم، وظل الموريسكيون متشبثون بهويتهم الحضارية مما أقنع فيليـــب الثاني بفشله، وجعله يفكر آخر أيامه بإخراجهم، وهذا ما قام به بالفعل ابنه فيليـــب الثالث.

11- أقيمت محاكم التفتيش عقب إنهيار الوجود العربي في الأندلس التي قُتل فيها الآلاف من المسلمين وتنصيرهم.

12- الملايين الذين نزحوا من الأندلس انتقلوا إلى شمال أفريقيا، وأدى ذلك إلى ظهور وتنشيط التجارة والصناعات المختلفة.

13- أما بالنسبة لأوروبا فقد استفادت من حضارة العرب المزدهرة آنذاك، ولو استمر الوجود العربي فترة أكثر لكانت الفائدة أعظم.

وختاماً أسأل اله التوفيق والسداد، واستغفره من كل خطأ وزلل، فإن كل ابن آدم خطّاء، وخير الخطّائين التوّابون.

مصادر ومراجع البحث

أولاً: المخطوطات

أولاً: المخطوطات:

الأندلســــــــــي، ابن عبد الرفيع محمد (م: سنة 1052هـ/42-1643م).
- الأنوار النبوية في خير البرية، مخطوط خ.ع. بالرباط، عدد 1238 ك، وثيقة من مخطوط الأنوار النبوية، ضمن وثائق الهجرة الأندلسية، نشر عبد المجيد التركي، حوليات الجامعة التونسية، العدد الرابع، 1967م، كـذلك محمـد رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، أفريقيا الشرق (الدار البيضاء، 1998م).

مخطوط رقم (9653)، المكتبة الوطنية بمدريد نقلاً عن: لوي كارديلاك: الموريسكيون الأندلسيون والمـسيحيون، ترجمة عبد الجليل التميمي، ديوان المطبوعات الجامعيـة الجزائرية، (الجزائر، د.ت)، ص94.

مخطوط رقم (9654)، المكتبة الوطنية بمدريد نقلاً عن: لوي كارديلاك: الموريسكيون الأندلسيون والمـسيحيون، ترجمة عبد الجليل التميمي، ديوان المطبوعات الجامعيـة الجزائرية، (الجزائر، د.ت)،ص94.

ثانياً: المصادر

ثانياً: المصادر:

- القرآن الكريـــــــــم، مصحف الجماهيرية، برواية قالون عن نـــافع، جمعيـــة الدعوة الإسلامية (طرابلس، د.ت).
- ابن الأبـــــــــــار، أبـــو عبـــد الله محمـــد بـــن عبـــد الله (م: ســـنة 658هـ/1260م).
  الحلة السيراء في أشعار الأمراء، نشر حـسين مـؤنس (القاهرة، 1963م).
- ابن أبي دينــــــــار، أبو عبد الله بن أبي القاسم الرعيني القيرواني (م: سنة 1092هـ/1681م).
  المؤنس في أخبار أفريقية وتونس، تحقيق محمد شـمام، المكتبة العتيقة (تونس، 1967م).
- ابـــــــن أبي زرع، أبو الحسن محمد بن علي الفاسي.
  (م: سنة 726هـ/1325م).
  الأنيس المطرب بروض القرطاس فـي أخبـار ملـوك المغرب ومدينة فاس (المغرب، 1972م).
- ابن الأثيـــــــــــر، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد.
  (م: سنة 630هـ/1232م).
  الكامل في التاريخ، تسعة أجزاء، دار صادر (بيـروت، 1979م).
- ابن إيـــــــــــاس، محمد بن أحمد.
  بدائع الزهور في وقائع الدهور، مطبعة بولاق (القاهرة، 1312هـ).
- ابن الأحمـــــــــر، إسماعيل (م: سنة 807هـ/1404م).
  بيوتات فاس الكبرى، دار منصور للطباعـة والوراقـة (الرباط، 1972م).

- ابن بسام، أبو الحسن علي الشنتريني (م: سنة 542هـ/1147م).
الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (القاهرة، 1939م).
- ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (م: سنة 528هـ/1183م).
الصلة في تاريخ علماء الأندلس، الدار المصرية (القاهرة، 1966م).
- ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد إبراهيم اللواتي (م: سنة 779هـ/1377م).
رحلة ابن بطوطة، دار صادر (بيروت، بدون تاريخ).
- ابن بلقين، عبد الله بن بلقين بن باريس م: سنة 483هـ/1099م)
التباين، منشورات عكاظ (الرباط، 1955م).
- ابن جلجل، أبو داود سليمان بن حسّان الأندلسي (م: سنة 384هـ/994م).
طبقات الأطباء والحكماء – تحقيق فؤاد سيد (القاهرة، 1955م).
- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد (م: سنة 456هـ/1063م)
- جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف (القاهرة، 1971م).
- الرد على ابن النغريلة اليهودي، تحقيق إحسان عباس، مكتبة دار العروبة (القاهرة، 1960م).
- ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي الموصلي الحوقلي البغدادي (م: أواخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي).
صورة الأرض في الطول والعرض، دار مكتبة الحياة (بيروت، بدون تاريخ).

- ابن الخطيب، لسان الدين ابن الخطيب محمد بن عبد الله (م: سنة 776هـ/1374م).
  - الإحاطة في أخبار غرناطة – تحقيق محمد عبد الله عنان (القاهرة، 1977م).
  - أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام – تحقيق وتعليق ليفي بروفنسال، دار المكشوف (لبنان، 1956م).
  - كناسة الدكان بعد انتقال السكان (القاهرة، بدون تاريخ).
  - اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصيرية (القاهرة، 1347هـ).
- ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (م: سنة 808هـ/1405م)
  - كتاب العرب وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (بولاق، 1284هـ).
  - المقدمة (بيروت، بدون تاريخ).
- ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد (م: سنة 681هـ/1282م).
  وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (القاهرة، 1950م).
- ابن الدلائي، أحمد بن عمر بن أنس العذري (م: سنة 478هـ/1108م).
  ترصيع الأخبار وتنوير الآثار، والبستان في غرائب البلدان، والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق عبد العزيز

الأهواني، معهد الدراسات الإسلامية (مدريد، 1965م.

- ابن صاحب الصلاة، عبد الملك بن محمد الباجي (م: نهاية القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي).
المن بالإمامة على المستضعفين، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي (بيروت، 1987م).
- ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله (م: سنة 257هـ/871م).
فتوح أفريقية والأندلس (الجزائر، 1947م).
- ابن عبدون، محمد بن أحمد التجيبي (عاش خلال القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي).
رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة، تحقيق ليفي بروفنسال (القاهرة، 1955م).
- ابن عذاري المراكشي، أبو العباس أحمد بن محمد (كان حياً عام 712هـ/1312م).
البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب – تحقيق ليفي بروفنسال، دار الثقافة (بيروت، بدون تاريخ).
- ابن القطان، أبو الحسن علي بن محمد الكتامي القاسمي (م: سنة 628هـ/1382م).
نظم الجمان في أخبار الزمان، تحقيق محمود علي مكي، المطبعة المهدية (تطوان المغرب، د.ت).
- ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عامر (م: سنة 367هـ/977م).
تاريخ افتتاح الأندلس – حققه وقدم له ووضع فهارسه إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني (بيروت، 1982م).

- ابن الكردبوس، أبو مروان عبد الملك التوزي (م: القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي).
  الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية (مدريد، 1971م).
- ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر (م: سنة 749هـ/1348م).
  تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية (بيروت، 1996م).
- بن عباد، المعتمد.
  ديوان المعتمد بن عباد، تحقيق رضا الحبيب السوسي، الدار التونسية للنشر (تونس، 1975م).
- الإدريسي، الشريف أبو عبد الله محمد (م: سنة 548هـ/1153م).
  نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة، 1994م).
- البكري، عبد الله بن عبد العزيز (م: سنة 487هـ/1094م).
  جغرافية الأندلس وأوروبا (من كتاب المسالك والممالك)، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي (بيروت، 1968م).
- الحجري، أحمد بن قاسم (م: سنة 1051هـ/1641م).
  ناصر الدين علي القوم الكافرين، تحقيق محمد رزوق (الدار البيضاء، 1967م).
- الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت (م: سنة 626هـ/1228م).
  معجم البلدان، دار صادر (بيروت، 1977م).
- الحميدي، أبو عبد الله بن أبي نصر (م: سنة 448هـ/1056م).
  جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، نشر محمد بن

تاويت الطنجي (القاهرة، 1952م).

• الحميـــــــــــري، محمد بن عبد المنعم السبتي (م: في أواخر القرن التاسع الهجري/السادس عشر الميلادي).
الروض المعطار في خبر الأقطار، نشر وترجمة ليفـــي بروفنسال (القاهرة، 1937م).

• الخزرجــــــــــي، أبو عبيدة (م: سنة 582هـ/1187م).
بين الإسلام والمسيحية، تحقيق محمد شامة، مكتبة وهبة (القاهرة، 1972م).

• الســـــــــلاوي، الناصر شهاب الدين أبو العباس أحمد بن خالد (م: سـنة 1315هـ/1897م).
الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتـــاب (الدار البيضاء، 1954م).

• الشقنـــــــــدي، إسماعيل بن محمد.
رسالة في فضل الأندلس (وردت ضمن كتاب فـضائل الأندلس وأهلها لابن حزم وابن سعيد والشقندي) نـشرها وقدم لها صلاح الدين المنجّـد (دار الكتـــاب الجديـد، 1968م).

• الضبّـــــــــــي، أحمد بن يحيى بن أحمد (م: سنة 599هـ/1202م).
بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأنـــدلس، المكتـب التجاري الوطني للطباعة والنشر (د.م، د.ت).

• الطرطوشـــــــي، أبو بكر محمد بن محمد بن الوليـد الفهـري (م: ســنة 520هـ/1136م).
سراج الملوك، جزءان، تحقيق محمد فتحي أبـو بكـر، الدار اللبنانية للكتاب (القاهرة، 1994م).

- العمــــــــــري، ياسين بن خير الله (م: سنة 1232هـ/1816م).
مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق أحمد زكي باشا (القاهرة، 1924م).
- القزوينـــــــي، زكريا بن محمد بن محمود (م: سنة 682هـ/1284م).
آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر (بيروت، 1969م).
- القلقشنـــــــدي، أبو العباس أحمد بن علي بن عبد الله (م: سنة 821هـ/1418م).
صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج5، المؤسسة المصرية للطباعة (القاهرة، د.ت).
- مجهـــــــــول، (م: القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي).
أخبار مجموعة في ذكر الأندلس وأمرائها والحروب الواقعة بها بينهم، نشره وعلق عليه لافوينتي والكنترا (مدريد، 1987م).
- مجهـــــــــول، أخبار العصر في دولة بني نصر، المنشور بعناية المستشرق ميللر (جوتنجن، 1963م).
- مجهـــــــــول، تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية، نشره جورج كولان (الرباط، 1934م).
- مجهـــــــــول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية – تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمازمه، دار الرشاد الحديثة (الدار البيضاء، 1979م).
- المراكشـــــــي، عبد الواحد علي (م: سنة 621هـ/1224م).
  - وثائق المرابطين والموحدين، تحقيق حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة، 1997م).
  - المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد

سعيد العريان، دار الاستقامة (القاهرة، 1963م).

• المسعـــــــــــودي، أبو الحسن علــي بــن الحــسين بــن علــي (م: ســنة 346هـ/957م).
مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس (بيــروت، د.ت).

• المعجم الوسيـــــــط، تأليف المجمع اللغوي للغة العربية، المكتبــة الإســلامية للطباعة والنشر والتوزيع، ط1 (استنبول، 1960م).

• مقديـــــــــــش، محمود.
نزهة الأقطار في عجائب التواريخ، جزءان، دار الغرب الإسلامي (بيروت، 1988م).

• المقـــــــــــري، شهاب الدين أبو العباس أحمــد بــن محمــد (م: ســنة 1041هـ/1631م).
- أزهار الرياض في أخبار عياض، نشر منــه ثلاثــة أجزاء مصطفى السقا وإبراهيم الأبيــاري والحفــيظ شلبي (القاهرة، 1942م).
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (القاهرة، 1302هـ).

• الناصـــــــــري، أحمد بن خالد السلاوي (م: سنة 1251هـ/1835م).
الاستقصاء لأخبار المغرب الأقــصى (الــدار البيــضاء 1954م).

• النويـــــــــري، شهاب الدين أحمد عبد الوهاب بن محمد بن عبد الــدائم (م: سنة 732هـ/1332م).
نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق أحمد كمال زكــي، الهيئة المصرية العامة للكتاب (د.م، 1980م).

ثالثاً: المراجع العربية

ثالثاً: المراجع العربية:

- أبو خليل، شوقي

الزلاقة بقيادة يوسف بن تاشفين، دار الفكر (دمشق، 1987م)

- أبو زهرة، محمد

ابن حزم حياته وعصره – وآراؤه الفقهية، مطبعة علي أحمد مخيمر (القاهرة، 1954م).

- أرسلان، شكيب

خلاصة تاريخ الأندلس، منشورات دار مكتبة الحياة (بيروت، 1983م).

- أرينال، مرثيديس غارثيا

الموريسكيون الأندلسيون، ترجمة وتقديم جمال عبدالرحمن، المجلس الأعلى للثقافة (القاهرة، 2003م).

- أشباخ، يوسف

تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عنان، مكتبة الخانجي (القاهرة، 1996م).

- أمير علي، سيد

مختصر تاريخ العرب (بدون مكان، بدون تاريخ).

- بدر، أحمد

دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها من الفتح حتى الخلافة، مكتبة أطلس، ط2 (دمشق، 1972م).

- بروكلمان، كارل

تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله للعربية نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين (بيروت، 1988م).

- بروفنسال، ليفي

الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة السيد محمود عبد العزيز وصلاح الدين حلمي، مؤسسة شباب الجامعة (الإسكندرية، 1990م).

- البستاني، بطرس

- دائرة معارف القرن العشرين، دار المعرفة، مج10 (بيروت، د.ت).
- معارك العرب في الأندلس، دار الجيل (بيروت، 1980م).

- بشتاوي، عادل سعيد

الأندلسيون المواركة "دراسة في تاريخ الأندلسيين بعد سقوط غرناطة، منشورات دار أسامة (دمشق، 1985م).

- بيضون، إبراهيم

الدولة العربية في أسبانية حتى سقوط الخلافة، دار النهضة (بيروت، 1986م).

- بن بية، محمد عبد الله

الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين، دار الأندلس الخضراء (جدة، 2000).

- التواتي، عبد الكريم

مأساة انهيار الوجود العربي في الأندلس، مكتبة الرشاد (الدار البيضاء، 1967م).

- الجندي، أنور

الإسلام وحركة التاريخ، مطبعة الرسالة (القاهرة، 1968م).

- حبيبة، علي

مع المسلمين في الأندلس، (د.م، د.ت).

- حتاملة، محمد عبده
  - محنة مسلمي الأندلس عشية سقوط غرناطة وبعدها، مطابع دار الشعب (عمان، 1977م).
  - التنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين (1474-1516م)، دار مطابع الشعب (عمان، 1980م).
- الحجي، عبدالرحمن علي

التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، دار العلم (بيروت، 1976م).

- حسن، حسن إبراهيم

تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة، 1991م).

- حسين، ممدوح

الحروب الصليبية في شمال أفريقيا وأثرها الحضاري، دار عمار (الأردن، 1989م).

- حلاق، حسان

العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، الأندلس - صقلية، الدار الجامعية (بيروت، 1986م).

- حمادة، محمد ماهر

الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمالي أفريقيا، مؤسسة الرسالة، ط2 (بيروت، 1986).

- حومد، أسعد

محنة العرب في الأندلس (بيروت، 1980م).

- حمودة، علي محمد

تاريخ الأندلس السياسي والعمراني والاجتماعي (القاهرة، 1975م).

- خالص، صلاح

إشبيلية في القرن الخامس الهجري، دار الثقافة (بيروت، 1965م).

- رزوق، محمد

الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين (16-17)، أفريقيا الشرق (الدار البيضاء، 1998م).

- الزركلي، خير الدين

الأعلام لأشهر الرجال والنساء والمستعربين (د.م، د.ت)

- زيتون، محمد محمد

المسلمون في المغرب والأندلس، دار الوفاء للطباعة (القاهرة، 1984م)

- السامرائي، خليل

علاقة المرابطين بالممالك الأسبانية وبالدول الإسلامية، وزارة الإعلام (العراق، 1985م).

- السامرائي، خليل وآخرون

تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دار الكتب الوطنية (بنغازي، 2000م).

- سالم، السيد عبد العزيز

1- تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (الإسكندرية، 1961م).

2- تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة (القاهرة، بدون تاريخ).

3- في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر (الإسكندرية، 1985م).

4- قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس (دراسة تاريخية، عمرانية أثرية في العصر الإسلامي)، دار النهضة العربية (بيروت، 1971م).

- سعيدوني، ناصر الدين

دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الثقافي (العهد العثماني) (الجزائر، 1994م).

- سيديو

تاريخ العرب العام (بدون مكان، بدون تاريخ).

- شارلي

العرب والمسلمون بعد سقوط غرناطة، ترجمة حسن الكرامي (بيروت، 1988م).

- شاك، فون

الفن العربي في إسبانيا وصقلية، ترجمة الطاهر أحمد، دار المعارف (بدون مكان، 1985م).

- الشريقي، إبراهيم

التاريخ الإسلامي خلال أربعة عشر قرناً (د.م، 1971م)

- الشطشاط، علي حسين

- تاريخ الإسلام في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة، 2001م).
- نهاية الوجود العربي في الأندلس، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة، 2001م).

- صبحي، حسن

الشرق الأدنى في ظل الأتراك العثمانيين (بيروت، 1976م).

- الصوفي، خالد

- تاريخ العرب في أسبانيا – عصر المنصور الأندلسي، دار الكتاب العربي (بيروت، بدون تاريخ).

- تاريخ العرب في الأندلس (عصر الإمارة) من عبد الرحمن الداخل إلى عبد الرحمن الناصر، منشورات جامعة قاريونس، ط2 (بنغازي، 1980م).
- تاريخ العرب في الأندلس (الفتح وعصر الولاة)، دار النجاح (بيروت، 1971م).

• طلفاح، خير الله

حضارة العرب في الأندلس (بدون مكان، بدون تاريخ).

• الطيبي، أمين توفيق

- دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، الدار العربية للكتاب (ليبيا – تونس، 1994م).
- دراسات في التاريخ الإسلامي، الدار الأندلسية للطباعة (طرابلس، 1992م).

• عبود، إمحمد

التاريخ السياسي والاجتماعي لإشبيلية في عهد ملوك الطوائف، مطابع الشويخ (تطوان، 1983م).

• العبادي، أحمد مختار

في التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة (بيروت، 1972م).

• العبادي، عبد الحميد

المجمل في تاريخ الأندلس، دار القلم (القاهرة، 1964م).

• عتيق، عبدالعزيز

الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية (بيروت، 1976م).

• عنان، محمد عبدالله

- دولة الإسلام في الأندلس (القاهرة، 1969م).
- العصر الثاني في دول الطوائف، مكتبة الخانجي (القاهرة، 1990م).

- عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الثاني، دار سحنون للنشر والتوزيع (تونس، 1990م).
- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين (القاهرة، 1966م).

- الغزيوي، علي
أدب السياسة والحرب في الأندلس، مكتبة المعارف (الرباط، 1987م).

- قشتيلو، محمد
محنة المورسكوس بأسبانيا (تطوان، 1980م).

- كارديلاك، لوي
الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون، ترجمة عبد الجليل التميمي، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية (د.ت).

- كحالة، عمرو رضا
معجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية، دار إحياء التراث العربي (بيروت، د.ت).

- كحيلة، عبادة
القطوف الدواني في التاريخ الأسباني (القاهرة، 1998م).

- مؤنس، حسين
-تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي، مطابع العصر الحديث للنشر والتوزيع (بيروت، 1992م).
-عالم الإسلام (القاهرة، 1973م).
-فجر الأندلس، دار المعارف (القاهرة، 1959م).
-معالم تاريخ المغرب والأندلس، مطابع المستقبل، ط1 (القاهرة، 1980م).

- محمود، حسن أحمد
قيام دولة المرابطين، دار الفكر العربي (القاهرة، 1967م).

- مصطفى، إبراهيم وآخرون
  المعجم الوسيط (د.م، د.ت).
- النجار، محمد مصطفى وأحمد مجاهد مصباح
  فتوحات الإسلام في أفريقيا والمغرب والأندلس، مكتبة النهضة العربية (القاهرة، 1967م).
- نجيب، مصطفى
  حماة الإسلام، دار الكتاب العربي (بيروت، د.ت).
- نصر الله، سعدون
  تاريخ العرب السياسي في الأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ط1 (بيروت، 1988م).
- هارفي، ليونارد باتريك
  تاريخ الموريسكيون السياسي والاجتماعي والثقافي (دراسة في كتابة الحضارة العربية في الأندلس التي أشرفت على إعدادها سلوى الخضري)، مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت، 1998م).

رابعاً: المراجع الأجنبية

رابعاً: المراجع الأجنبية:

- A. G. S. Camara Cedulas, n. 255 vol. 65, in "Les bendits Morisques…" (without date).
- A. H. N. inq. Leg 197 n° 5 in Morisques et Chretiens.
- Alfonso Gamirsandoval: organización de la defen sa de la casto del Reino de Granada desde su reconquista hats finales del siglo XVI, Granada, 1948, capt III.
- Alfredo Opisso: Historia de Espána y de Las Republicas Latino-Americans, tomo VIII, Barcelona (Sin ano) cap XII.
- Alonso de Santa Cruz: Cronico de los Reyers catolicos ediction y estudio par juan de Mata carriazo tomo I. Sevilla, 1951, capt XLIV.
- Antonio Dominguez y Bernard Vicent: Historia de Los Moriscos. Vida y tragedia de una minoria revista de occidente, Madrid, 1978, cpat I.
- Archives minicipales de Grenade provision, I Fol. 162 in- "Les Bandits Morisques …", (without date).
- Augustin: La Chréticnte Medieval, Histoire du Monde, tome VII, (Paris, 1929).
- Avalle-Arce (Juan Bautista): Bernal Francésy y su romance. Armario de Estudios Medievales III, (Barclona, 1966).

- Baronat y Barrachina, El beato Juan de Ribera y el Real Colegio de corpus christi, Valencia, vives y mora, 1904.
- Baronat y Barrachina, Los Moriscose Espanoles y su expulsion, valencia, Imprenta de Francisco vives y Mora, 1901, t. II.
- Bartolome deLos Angeles: "Pardon de Los Moriscos residentes en parte del reino de velencia Manuscrito num. 81 del la Biblioteca univ. de velencia" in origines de La Insquisicion Espanola.
- Bernard Vincent "Les bandits Morisques en Andalouise au x vle le siecle, in Revue d'historia moderne et contemporaine, 1974.
- Braudel, F. "Conflits et refus de civilisation Espagnols et Morisques au xv IIe aiecle in Annales, Economies, societes, civilisation, II, Octobre - Decembre, 1974.
- Burns, R. I., Islam under the crusaders, Princeton U. P., 1973.
- C. Bernaldo de quhos et L. Ardica, "El Bandolerisom andaluz" in, les Bandits Morisques en Andalouise".
- C. Perez Bustamante: Compendio de Historia de Espana, 5 edicion, (Madrid, 1952), Cap xxv.
- Carmen Munoz Roca-tallada vidas de Mujeres Llustres, vida de Maria de Pacheco "El ultimo comunero" provenza 219-Barcelona capitulo II.

- Claude Chaen: El Islam des de les origens el comienzo del Imperio Otomano, Madrid, ed. Castilla, 1972.
- Defourneaux, Marcelin, Daily in Spain in the golden age, London, 1970.
- Dominguez Oritz (Antonio) y Bernard Vincent, Historia de Los Moriscos vida y tragedia de una minoria.
- Dozy, R, Historire des Musulmas de Espagne Traduction Espagnole parmagdlena Fuentes, (Barcelona, 1954).
- Elie de La Primandie, "Documents Inedits sur l'histoire l'occupation Espgnole en Afrique (1506-1574) in Revue Afriqiane, 1876.
- Fernando de La Granja "Fiestas Cristianas en al-Anadlous (Materiales para su estudio)" in, Al-Andalous, xxxiv, Face, 1, 1969, Face 1, 1970.
- Fr. Jaime DeBleda: Crónica de Los Moros de Espana, Velencia, 1618.
- Francisco de Paula Villa-Realy Valdivia: Lecciones, Elementales de Historia critica de Espána, 20 edicion, Granada, 1899.
- Fransisco de Paula Villa-Real y valdivia, leccioness elementales de Historia critica de Espana, 2a ediction Granada, 1899.

- Glick , T. f., Islamic and Christian Spain in the early middle ages, Princeton U. P. 1979.
- H. Ch Leay the Moriscos of Spain, 1953.
- H. Ch Lea The Moriscos of Spain, 1953.
- Harfe: "Crypto-Islam in xvi Spain", in, Actas del Congreso de Cordoba, 1962.
- Harvey, L. P. Islamic Spain (1250-1500), Chicago, U.P. 1990.
- Hillgarth, J. N., The Spanish kingdom (1250-1516), Oxford, U. P. 1976.
- Hugo Hantsch, Le probleme de la Lutte contre l'invasion turque dans l'idee plitique generale de chairs-ouint, incharles quint et son tems, (without date).
- Huici, Miranda: Las Grandes Battles de La Reconquista (Madrid, 1956).
- Ignocio Bauer y Landauer, Relaciones y Manuscritos (Moriscos), Madrid, editorial Ibero-Africano-American .s.d. (without date).
- Isirdo de la Los Mudegares, (Madrid, 1948).
- Jacqueline Fournel - Guerin, les Morisques aragonais et l'inquisition de saragosse (1540-1620), these inedite Montpellier III, 1980.
- Joaquin Durany y Lerchundl: Latoma Granda y cabllcros que concurrieron a ell a tomo II, (Madrid, 1893).

- Jose Ma Doussinaque: La politica internacional de Fernando el católico Espasa-calpe S.A., Madrid, 1944, capt. II.
- Juan de Mata Carriazo: Historia de La casa real de Granada, en Miscelánea de Estudios Arabes y Hebraicos. Unversidad de Granada Vol. Vi, 1957.
- Julián Ma Rubio y varios: Historia de Espana, tomo III, Barcelona, 1935.
- Kinder, Herman Hilgemann, Werner Atlas of world history, vol. I, London, 1980.
- Lafuente Alcantars (D. Miguel), Historia de Granada, 1846, tomo IV.
- Lane Pool: The Moors in Spain, (without date).
- Levi, Provencal, La politica de Abd al Rahman III, Al Andalus, Vol. XI Fasc, 2, 1946.
- Lucio Marineo Siculo: Vida y hechos de Lo reyers católicos, Madrid, 1943.
- Luis Del Marmol Carvajal: Historia de la rebelión y castigo de los Moriscos, (without date)..
- Luis Del Marmol Carvajal: Historia de la rebelion y castigo de los Moriscos, (without date).
- Marcelino Menendez y Pelaye: Historia de Los Heterodozos Espanoles. 2a Edicion tomo V. Madrid, 1928. Capt III.

- Marcelino Menendez y pelayo, Historia de Espána, Madrid, 1941.
- Maria Soldad Carrasco Urgoiti, El problema Morisco en Aragon al comienzo del reinado de Felib II capt. IV, (without date).
- Marmol Carvajal (Luis del): Historia de Larebelion y castigo de los Moriscos del Reino de Granada, Madrid, 1797, tomo I, Libro 1, capt XXI.
- Marmol Carvajal, Historia del rebelion y castigo de Los Moriscos del reino de Granada, IV, cap VII, (without date).
- Menedez y Pelayo (Marcelino): Historia de los heterodoxes Espánoles, Segunda edicion tomo V, Madrid, 1928.
- Mercedes Garcia Arenal: Los Moriscos y la Inquisicion. Procesos del tribunal de cuenca, Madrid, 1978.
- Modesto Lafuente Alcantara: Historia General de Espána tomo II Barcelona, 1879 capt XIX.
- Orti y Lara (Juan Manuel): La Inquisicion, (Madrid, 1877).
- P. Chaunu, "Minorilés et conjoncture, l'explusion des Morisque, en 1609", in Revue Historique, Paris, 1961, c.c x.x v, no.

- P. Fray Henrique Florez: Memorias de La Reyans católicas, Historia genealogica de La casa real de castilla y de León 2 a edic tomo II, Madrid, 19770.
- Perez de urbal primeras ... Arabs, Abril T. xxiv 1953.
- Pierre Suau, Histoire de Saint Francois de Borgia, troisiéme General de La compagnie de Jesus, 1510-1572, Paris - Beauchesne, 1910.
- Primera, Cronica General (Ed. Pidal) Vol. II, (without date).
- Rafael Altumira: Manual de Historia de Espana Buenos Aires, 1946.
- Raphail Carrosco, Peril ottoman et solidarite Morisques, in Revue d'histoire Maghrebine no 25-26, Juin, 1982.
- Rebelion y Castigo de Los Moriscos de Granada, (without date).
- Ricardo Garcia Carcel, origines dela Inquisicion Espanola: El Trinunal de Valencia, (without date).
- W. Prescott: The Morrisk Empire in Europe, V. III, (without date).
- W. Prescott: History of Ferdinand and Isabella the Catholic (London, Sonnenschein), (without date).
- William prescott: historia del reinado de los Reyers catolicos tomo III Madrid, 1846, capt. VII

خامساً: المجلات والندوات والمؤتمرات العلمية

خامساً: المجلات والندوات والمؤتمرات العلمية:

- التميمي، عبد الجليل

- تمسك الموريسكيين بدينهم وهويتهم من خلال قراءاتهم لأحاديث الرسول في مخطوطتين، مقال بالمجلة التاريخية المغربية، تونس، السنة الحادية عشر، العددان 35، 36، ديسمبر، 1984م.
- الخلفية الدينية للصراع الأسباني – العثماني على الولايات المغربية في القرن السادس عشر"، المجلة التاريخية المغربية، العدد الثالث (تونس، 1975م).
- "الدراسات الموريسكية في الخمسة والعشرين سنة الأخيرة في أسبانيا" في أعمال المؤتمر العالمي السادس للدراسات الموريسكية الأندلسية، رغوان، سيرمدي، 1995م.
- "رسالة" من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541م، المجلة التاريخية المغربية، العدد الثالث (تونس، 1975م).

- الجراري، عباس

التأثير الموريسكي في الطرب المغربي، سلسلة ندوات، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية (شفشاون، 2000م).

- خطاب، محمد الطيب

الموريسكيون الأندلسيون (مرحلة الاضطهاد وضياع التراث) مجلة تراث الشعب، العددان 1، 2 (مسلسل 52-53) (طرابلس، 2005م).

- رزوق، محمد

المسلمون بأسبانيا خلال القرن السادس عشر، مجلة البحوث التاريخية، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، العدد الثاني (طرابلس، 1992م).

- رمضان عبد العظيم

"محاكم التفتيش"، مجلة العربي، العدد 258 (القاهرة، بدون تاريخ).

• سالم، السيد محمود عبد العزيز

- الأندلس، دائرة معارف الشعب، مطابع الشعب، 1959م (د.م).
- دائرة معارف الشعب، مقال عن مالقة، مطابع الشعب، 1959م (د.م).

• سعيوني، ناصر الدين

الأندلسيون (الموريسكيون) بمقاطعة الجزائر أثناء القــرنين 16 و17م، دار السلطان، مجلة حوليات جامعة الجزائر، العدد السابع، الجزائر، 1993م.

• الصباغ، ليلي

ثورة مسلمي غرناطة، مجلة الأصالة الجزائريـــة، العـــدد 27، ســبتمبر - أكتوبر، (الجزائر، 1975م).

• عنان، محمد عبد الله

- "دستور بلد الموريسكيين"، مجلة العربي، العدد 156 (القــاهرة، بـدون تاريخ).
- "تراث الأندلس الفكري"، مجلة العربي، العدد 99 (القاهرة، بدون تاريخ).
- "قصة كاتب موريسكي"، مجلة العربي، العـــدد 131 (القــاهرة، بــدون تاريخ).

• عبود، امحمد

- جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجــري، مجلــة كليــة الدعوة الإسلامية، العدد السابع (طرابلس، 1990م).

• مؤنس، حسين

- الثغر الأعلى الأندلسي، مجلة كلية الآداب، المجلد الحادي عشر، مطبعة جامعة فؤاد الأول (القاهرة، 1949م).
- مقدمة كتيب (أسنى المتاجر) في بيان أحكام من غلب وطنــه النــصارى ولــم يهاجر، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، المجلد الخامس (مدريــد، 1975م).

• هويدي، فهمي

"في بلاد الموريسيك غرباء الأندلس"، مجلة العربي، العدد 228 (القــاهرة، د.ت).

الملاحق

ملحق رقم (1)*

مضمون معاهدة تسليم غرناطة المعقودة بين أبي عبد الله الصغير والملكين الكاثوليكيين؛ ضون فرديناند وضونيا إيسابيلا

بتاريخ 21 محرم سنة 897هـ/الموافق 25 نوفمبر سنة 1491.

وقد تضمنت هذه الوثيقة الشهيرة، التي قررت مصير آخر القواعد الأندلسية ومصير الأمة الأندلسية، شروطاً عديدة بلغت ستة وخمسين مادة، وقد لخصت الرواية الإسلامية معظم محتوياتها مع شيء من التحريف وهذا مضمون هذه المحتويات:

(1) أن يتعهد ملك غرناطة والقادة والفقهاء والوزراء والعلماء، وكافة الناس، سواء في غرناطة والبيازين وأرباضهما، بأن يسلموا طواعية واختياراً، وذلك في ظرف ستين يوماً تبدأ من تاريخ هذه المعاهدة، قلاع الحمراء والحصن، وأبوابها وأبراجها، وأبواب غرناطة والبيازين، إلى الملكين الكاثوليكيين، أو إلى من يندبانه من رجالهما، على ألا يسمح لنصراني أن يصعد إلى الأسوار القائمة بين القصبة والبيازين حتى لا يكشف أحوال المسلمين، وأن يعاقب من يفعل ذلك. وضماناً لسلامة هذا التسليم، يقدم الملك المذكور مولاي أبو عبد الله والقادة المذكورون، إلى جلالتهما، قبل تسليم الحمراء بيوم واحد، خمسمائة شخص صحبة الوزير ابن كماشة، من أبناء وإخوة زعماء غرناطة والبيازين، ليكونوا رهائن في يديهما لمدة عشرة أيام، تصلح خلالها الحمراء، وفي نهاية الأجل يرد أولئك الرهائن أحراراً. وأن يقبل جلالتهما، ملك غرناطة وسائر القادة والزعماء، وسكان غرناطة والبشرات وغيرهما من الأراضي، رعايا وأتباعاً تحت حمايتهما ورعايتهما.

* نقلاً عن كتاب المقري: نفح الطيب، 2/615-616.

(2) وأنه حينما يرسل جلالتهما رجالهما لتسلم الحمراء المذكورة، فعليهم أن يدخلوا من باب العشار ومن باب نجدة، ومن طريق الحقول الخارجية، وألا يسيروا إليها من داخل المدينة، حينما يأتون لتسلمها وقت التسليم.

(3) وأنه متى تم تسليم الحمراء والحصن، يرد إلى الملك المذكور مولاي أبي عبد الله ولده المأخوذ رهينة لديهما، وكذلك يرد سائر الرهائن المسلمين الذين معه، وسائر حشمه الذين لم يعتنقوا النصرانية.

(4) ويتعهد جلالتهما وخلفاؤهما إلى الأبد، بأن يترك الملك المذكور أبو عبد الله والقادة، والوزراء، والعلماء، والفقهاء، والفرسان، وسائر الشعب، تحت حكم شريعتهم، وألا يؤمروا بترك شيء من مساجدهم وصوامعهم، وأن تترك لهذه المساجد مواردها كما هي، وأن يقضي بينهم وفق شريعتهم وعلى يد قضاتهم، وأن يحتفظوا بتقاليدهم وعوائدهم.

(5) وألا يؤخذ منهم خيلهم أو سلاحهم الآن أو فيما بعد، سوى المدافع الكبيرة، والصغيرة فإنها تسلم.

(6) وأنه يحق لسائر سكان غرناطة والبيازين وغيرهما، الذين يريدون العبور إلى المغرب، أن يبيعوا أموالهم المنقولة لمن شاؤوا، وأنه يحق للملكين شراءها بمالهما الخاص.

(7) وأنه يحق للسكان المذكورين أن يعبروا إلى المغرب، أو يهبوا أحراراً إلى أية ناحية أخرى، حاملين أمتعتهم وسلعهم، وحليهم من الذهب والفضة وغيرها. ويلتزم الملكان بأن يجهزا في بحر ستين يوماً من تاريخه، عشر سفن في موانيهما يعبر فيها الذين يريدون الذهاب إلى المغرب. وأن يقدما خلال الأعوام الثلاثة التالية السفن، لمن شاء العبور، وتبقى السفن خلال هذه المدة تحت طلب الراغبين فيه، ولا يقتضي منهم خلال هذه المدة أي أجر أو مغرم، وأنه يحق العبور لمن يشاء بعد ذلك، نظير دفع مبلغ "دوبل" واحد عن كل شخص، وأنه

يحق لمن لم يتمكن من بيع أملاكه، أن يوكل لإدارتها، وأن يقتضي ريعها حيثما كان.

(8) وألا يرغم أحد من المسلمين أو أعقابهم، الآن أو فيما بعد، علـى تقلـد شـارة خاصة بهم.

(9) وأن ينزل الملكان، للملك أبي عبد اله المذكور، ولسكان غرناطـة والبيـازين وأرباضهما، لمدة ثلاث سنوات تبدأ من تاريخه، عن سائر الحقوق التي يجـب عليهم أداؤها عن دورهم ومواشيهم.

(10) وأنه يجب على الملك أبي عبد الله، وسكان غرناطـة والبيـازين وأرباضـهما والبشرات وأراضيها، أن يسلموا وقت تسليم المدينة طواعية ودون أيـة فديـة، سائر الأسرى النصارى تحت أيديهم.

(11) وأنه لا يسمح لنصراني، أن يدخل مكاناً لعبادة المسلمين دون ترخيص، ويعاقب من يفعل ذلك.

(12) وألا يولى على المسلمين مباشر يهودي، أو يمنح أية سلطة أو ولاية عليهم.

(13) وأن يعامل الملك أبو عبد الله المذكور، وسائر السكان المسلمين، برفق وكرامة، وأن يحتفظوا بعوائدهم وتقاليدهم، وأن يؤدي للفقهاء حقـوقهم المـأثورة وفقـاً للقواعد المرعية.

(14) وأنه إذا قام نزاع بين المسلمين، فصل فيه وفقـاً لأحكـام شـريعتهم، وتـولاه قضاتهم.

(15) وألا يكلفوا بإيواء ضيف أو تؤخذ منهم ثياب أو دواجن أو أطعمة أو ماشـية أو غيرها دون إرادتهم.

(16) وأنه إذا دخل نصراني منزل مسلم قهراً عنه، عوقب على فعله.

(17) وأنه فيما يتعلق بشؤون الميراث، يحتفظ المسلمون بـنظمهم ويحتكمـون إلـى فقهائهم وفقاً لسنن المسلمين.

(18) وأنه يحق لسائر سكان غرناطة والبشرات وغيرها الداخلين في هذا العهد، الذين يعلنون الولاء لجلالتهما، في ظرف ثلاثين يوماً من التسليم، أن يتمتعوا بالإعفاءات الممنوحة مدى السنوات الثلاثة.

(19) وأن يبقى داخل الجوامع والهيئات الدينية و أية أشياء أخرى مرصودة على الخير، وكذا داخل المدارس، متروكاً لنظر الفقهاء، وألا يتدخل جلالتهما بأية صورة، في شأن هذه الصدقات أو يأمران بأخذها في أي وقت.

(20) وأنه لا يؤخذ أي مسلم بذنب ارتكبه شخص آخر، فلا يؤخذ والد بذنب ولده أو ولد بذنب والده، أو أخ، أو ولد عم بذنب ولد عم، ولا يعاقب إلا من ارتكب الجرم.

(21) وأنه إذا كان مسلم أسيراً وفر إلى غرناطة أو البيازين أو أرباضهما أو غيرهما، فإنه يعتبر حراً، ولا يسمح لأحد بمطاردته إلا إن كان من العبيد أو من الجزائر.

(22) وألا يدفع المسلمون من الضرائب أكثر مما كانوا يدفعون لملوكهم المسلمين.

(23) وأنه يحق لسكان غرناطة والبيازين والبشرات وغيرها، ممن عبروا إلى المغرب أن يعودوا خلال الأعوام الثلاثة التالية، وأن يتمتعوا بكل ما يحتويه هذا الاتفاق.

(24) كما لا يحق لمن عبر منهم إلى المغرب، ولم ترضه الإقامة هنالك أن يعود خلال الأعوام الثلاثة وأن يتمتع بكل ما في هذا الاتفاق.

(25) وأنه يحق لتجار غرناطة وأرباضهما والبشرات وسائر أراضيها، أن يتعاملوا في سلعهم آمنين، عابرين إلى المغرب وعائدين، كما يحق لهم دخول سائر النواحي التابعة لجلالتيهما، وألا يدفعوا من الضرائب سوى التي يدفعها النصارى.

(26) وأنه إذا كان أحد من النصارى – ذكراً أو أنثى – اعتنق الإسلام، فلا يحق لإنسان أن يهدده أو يؤذيه بأية صورة، ومن فعل ذلك يعاقب.

(27) وإنه إذا كان مسلم قد تزوج بنصرانية واعتنقت الإسلام، فلا تُرغم على العودة إلى النصرانية، بل تُسأل في ذلك أمام المسلمين والنصارى، وألا يرغم أولاد "الروميات" ذكوراً أو إناثاً على اعتناق النصرانية.

(28) وأنه لا يرغم مسلم أو مسلمة قط على اعتناق النصرانية.

(29) وأنه إذا شاءت مسلمة متزوجة أو أرملة أو بكر اعتناق النصرانية بدافع الحب، فلا يقبل منها، حتى تسأل وتوعظ وفقاً للقانون، وإذا كانت قد استولت خلسة على حلي أو غيرها من دار أهلها أو أي شيء آخر، فإنها ترد لصاحبها، وتتخذ الإجراءات ضد المسؤول.

(30) وألا يطلب الملكان، أو يسمحا بأن يطلب إلى الملك المذكور مولاي أبي عبدالله، أو خدمه أو أحد من أهل غرناطة أو البيازين وأرباضهما والبشرات وغيرهما، من الداخلة في هذا العهد، بأن يردوا ما أخذوه أيام الحرب من النصارى أو المدجنين، من الخيل أو الماشية أو الثياب أو الفضة أو الذهب أو غيرها، أو من الأشياء الموروثة، ولا يحق لأحد يعلم بشيء من ذلك أن يطالب به.

(31) وألا يطلب إلى أي مسلم، يكون قد هدد أو جرح أو قتل أسيراً أو أسيرة نصرانية، ليس أو ليست في حوزته، رده أو ردها الآن أو فيما بعد.

(32) وألا يدفع عن الأملاك والأراضي السلطانية، بعد انتهاء السنوات الثلاثة الحرة، من الضرائب إلا وفقاً لقيمتها، وعلى مثل الأراضي العادية.

(33) وأن يُطبق ذلك أيضاً على أملاك الفرسان والقادة المسلمين، فلا يدفع عنها أكثر مما يدفع عن الأملاك العامة.

(34) وأن يتمتع اليهود من أهل غرناطة والبيازين وأرباضهما، والأراضي التابعة لها بما في هذا العهد من الامتيازات، وأن يُسمح لهم بالعبور إلى المغرب خلال ثلاثة أشهر، تبدأ من يوم 18 ديسمبر.

(35) وأن يكون الحكام والقواد والقضاة، الذين يعينون لغرناطة والبيازين والأراضي التابعة لهما، ممن يعاملون الناس بالكرامة والحسنى، ويحافظون على الامتيازات الممنوحة، فإذا أخل أحدهم بالواجب، عوقب وأحل مكانه من يتصرف بالحق.

(36) وأنه لا يحق للملكين أو لأعقابهما إلى الأبد، أن يسألوا الملك المذكور أبي عبد الله، أو أحداً من المسلمين المذكورين بأية صورة، عن أي شيء يكونوا قد عملوه، حتى حلول يوم تسليم الحمراء المذكورة، وهي فترة الستين يوماً المنصوص عليها.

(37) وأنه لا يُولى عليهم أحد من الفرسان أو القادة أو الخدم، الذين كانوا تابعين لملك وادي آش.

(38) وأنه إذا وقع نزاع بين نصراني أو نصرانية ومسلم أو مسلمة، فإنه ينظر أمام قاضي نصراني وآخر مسلم، حتى لا يتظلم أحدهما مما يقضي به.

(39) وأن يقوم الملكان بالإفراج عن الأسرى المسلمين ذكوراً وإناثاً، من أهل غرناطة والبيازين وأرباضهما وأراضيهما، إفراجاً حراً دون أية نفقة من فدية أو غيرها وان يكون الإفراج عمن كان من هؤلاء الأسرى بالأندلس في ظرف خمسة الأشهر التالية، وأما الأسرى الذين بقشتالة فيفرج عنهم خلال الثمانية أشهر التالية، وبعد يومين من تسليم الأسرى النصارى لجلالتيهما يُفرج عن مائتين من الأسرى المسلمين، منهم مائة من الرهائن ومائة أخرى.

(40) وأنه إذا دخلت أية محلة من نواحي البشرات في طاعة جلالتيهما، فإنه يجب أن تسلم إليهما كل الأسرى النصارى ذكوراً وإناثاً، في خمسة عشر يوماً من تاريخ الانضمام، وذلك دون أية نفقة.

(41) وأن تُعطى الضمانات للسفن المغربية الراسية الآن في مملكة غرناطة، لكي تسافر في أمان، على ألا تكون حاملة أي أسير نصراني، وألا يحدث لها أحد ضرراً أو إتلافاً، وألا يؤخذ منها شيء، ولا ضمان لمن تحمل منها أسرى من النصارى، ويحق لجلالتيهما إرسال من يقوم بتفتيشها لذلك الغرض.

(42) وألا يدعى أو يؤخذ أحد من المسلمين رغم إرادته، وإذا شاء جلالتيهما استدعاء الفرسان، الذين لهم خيول وسلاح للعمل في نواحي الأندلس، فيجب أن يدفع لهم الأجر من يوم الرحيل حتى يوم العودة.

(43) وأنه يجب على من عليه دين أو تعهد، أن يؤديه لصاحب الحق، ولا يحق لهم التحرر من هذه الحقوق.

(44) وأن يكون المأمورون القضائيون الذين يعينون لمحاكم المسلمين، مسلمين الآن وإلى الأبد.

(45) وأن يكون المتولون لوظائف الحسبة الخاصة بالمسلمين، أيضاً مسلمين، وألا يتولاها نصراني الآن ولا في أي وقت.

وأن يقوم الملكان في اليوم الذي تسلم إليهما فيه الحمراء والحصن والأبواب كما تقدم، بإصدار مراسيم الامتيازات، للملك أبي عبد الله وللمدينة المذكورة، ممهورة بتوقيعهما، ومختومة بخاتمهما الرصاص ذي الأهذاب الحريرية، وأن يُصدق عليها ولدها الأمير، والكردينال المحترم دسبينا، ورؤساء الهيئات الدينية، والعظماء والدوقات والمركيزون والكونتات والرؤساء، حتى تكون ثابتة وصحيحة الآن، وفي كل وقت (56 ثافرا) (43 سمانقا).

وقد ذُيلت المعاهدة، بنبذة خلاصتها أن ملكي قشتالة يؤكدان ويضمنان بدينهما وشرفهما الملكي، القيام بكل ما يحتويه هذا العهد من النصوص، ويوقعانه باسميهما ويمهرانه بخاتميهما، وعليها تاريخ تحريرها وهو يوم 25 نوفمبر سنة 1491م.

ثم ذيلت بعد ذلك، وبتاريخ لاحق هو يوم 30 ديسمبر سنة 1492م، أعني بعد تسليم غرناطة بعام، بتوكيد جديد يأمر فيه الملكان ولدهما الأمير، وسائر عظماء المملكة بالمحافظة على محتويات هذا العهد وألا يعمل ضده شيء، أو يُنقص منه شيء، الآن وإلى الأبد، وأنهما يؤكدان ويقسمان بدينهما وشرفهما الملكي بأن يحافظا، ويأمران بالمحافظة على كل ما يحتويه بنداً بنداً إلى الأبد، وقد ذيل هذا التوكيد بتوقيع الملكين، وتوقيع ولدهما وجمع كبير من الأمراء والأحبار والأشراف والعظماء.

وفي اليوم الذي وقعت فيه معاهدة تسليم غرناطة، وهو يوم 25 نوفمبر سنة 897هـ/1491م، وفي نفس المكان الذي وقعت فيه، وهو المعسكر الملكي بمرج غرناطة، أبرمت معاهدة أخرى أو ملحق سري للمعاهدة الأولى، يتضمن الحقوق والامتيازات والمنح، التي تعطى للسلطان أبي عبد الله، ولأفراد أسرته وحاشيته، وذلك متى نفذ تعهداته التي تضمنتها المعاهدة من تسليم غرناطة والحمراء وحصونها.

وتتلخص هذه الحقوق والامتيازات والمنح فيما يأتي:

- أن يمنح الملكان الكاثوليكيان لأبي عبد الله ولأولاده وأحفاده وورثته إلى الأبد، حق الملكية الأبدية، فيما يملكانه من محلات وضياع في بلاد برجة، ودلاية ومرشانة، ولوشار، وأندرش، وأجيجر، وأرجبة، وبضعة بلاد أخرى مجاورة،وكل ما يخصها من الضرائب وحقوق الريع، وما بها من الدور والأماكن والقلاع والأبراج، لتكون كلها له ولأولاده وأعقابه وورثته بحق الملكية الأبدية، يتمتع بكل ريعها وعشورها وحقوقها.
- وأن يتولى القضاء في النواحي المذكورة باعتباره سيدها، وباعتباره في الوقت نفسه تابعاً وخاضعاً لجلالتيهما، وله حق بيع الأعيان المذكورة ورهنها، وأن يفعل بها ما يشاء ومتى شاء، وأنه متى أراد بيعها، فإنه يعرض ذلك أولاً على جلالتهما، فإذا لم يريدا شراءها، فله أن يبيعها لمن يشاء.
- وأن يحتفظ جلالتيهما بقلعة أدرة، وسائر القلاع الواقعة على الشاطئ.
- وأن يعطي جلالتهما إلى الملك المذكور مولاي أبي عبد الله، هبة قدرها ثلاثون ألف جنيه قشتالي من الذهب (كاستيليانو)، يبعثان بها إليه، عقب تسليم الحمراء، وقلاع غرناطة الأخرى التي يجب تسليمها، وذلك في الموعد المحدد.
- وأن يهب جلالتهما للملك المذكور، كل الأراضي والرّحى والحدائق، والمزارع التي كان يملكها أيام أبيه السلطان أبي الحسن، سواء في غرناطة أو في البشرات لتكون ملكاً له ولأولاده ولعقبه وورثته، ملكية أبدية، وله أن يبيعها أو يرهنها وأن يتصرف فيها كيفما شاء.

- وأن يهب جلالتهما أيضاً، إلى الملكات والدته وإخوته وزوجته، وإلى زوجة أبي الحسن، كل الحدائق والمزارع والأراضي والطواحين والحمامات، التي يملكها في غرناطة والبشرات، تكون ملكاً لهن ولأعقابهن إلى الأبد، ولهن بيعها ورهنها والتمتع بها وفقاً لما تقدم.
- وأن تكون سائر الأراضي الخاصة بالملك المذكور والملكات المذكورات، وزوجة مولاي أبي الحسن، معفاة من الضرائب والحقوق الآن وإلى الأبد.
- وألا يطلب جلالتهما أو أعقابهما إلى ملك غرناطة أو حشمة أو خدمه رد ما أخذوه في أيامهم سواء من النصارى أو المسلمين من الأموال والأراضي.
- وأنه إذا شاء الملك المذكور أبو عبدالله، والملكات المذكورات، وزوجة مولاي أبي الحسن وأولادهم وأحفادهم وأعقابهم، وقوادهم وخدمهم وأهل دارهم، وفرسانهم وغيرهم، صغاراً وكباراً، العبور إلى المغرب، فإن جلالتهما يجهزان الآن أو في أي وقت سفينتين لعبور الأشخاص المذكورين، متى شاءوا، تحملهم وكل أمتعتهم وماشيتهم وسلاحهم، وذلك دون أية أجر أو نفقة.
- وأنه إذا لم يتمكن الملك المذكور وأولاده وأحفاده وأعقابه، والملكات المذكورات، وزوجة مولاي أبي الحس، والقواد والحشم والخدم، وقت عبورهم إلى المغرب من بيع أملاكهم المشار إليها، فإن لهم أن يوكلوا من شاءوا لقبض ريعها، وإرساله حيث شاءوا دون قيد أو مغرم.
- وأنه يحق للملك المذكور، متى شاء، أن يرسل من يرى من خدمة أو قادته إلى المغرب بسلع أو غيرها من إيراداته، وذلك دون قيد أو مغرم.
- وأنه يحق للملك المذكور، متى خرج من غرناطة، أن يسكن أو يقيم متى شاء، في الأراضي التي أقطعت له، وأن يخرج هو وخدمه وقواده وعلماؤه وقضاته وفرسانه، الذين يريدون الخروج معه، بخيلهم وماشيتهم متقلدين أسلحتهم، وكذلك نساؤهم وخدمهم، وألا يؤخذ منهم شيء سوى المدافع، وألا يفرض عليهم الآن أو

في أي وقت، وضع علامة خاصة في ثيابهم أو بأية صورة، وأن يتمتعوا بسائر الامتيازات المقررة في عهد تسليم غرناطة.

- وأنه في اليوم الذي يتم فيه تسليم الحمراء وحصونها، يصدر جلالتهما المراسيم اللازمة بالمنح المذكورة، موقعة ومختومة، ومصدق عليها من ابنيهما الأمير والكردينال وسائر العظماء.

تلك هي الشروط التي وضعت لتسليم آخر القواعد الأندلسية، وتلك هي الامتيازات والمنح التي منحت لآخر ملوك الأندلس. فأما فيما يتعلق بغرناطة ومصاير الأمة المغلوبة، فقد كانت هذه الشروط المسهبة، والتي أشتملت على سائر الضمانات المتعلقة بتأمين النفس والمال، وسائر الحقوق المادية، وصون الدين والشعائر والكرامة الشخصية، أفضل ما يمكن الحصول عليه في مثل هذه المحنة، ولو أخلص العدو الظافر في عهوده.

ولكن هذه العهود لم تكن في الواقع، حسبما أبدت الحوادث فيما بعد، سوى ستار الغدر والخيانة، وقد نقضت هذه الشروط الخلابة كلها لأعوام قلائل من تسليم غرناطة، ولم يتردد المؤرخ العربي نفسه في أن يصفها: "بأنها أفضل مادة لتقدير مدى الغدر الإسباني فيما تلا من العصور. وقد بذل "فرديناند" ما بذل من عهود وضمانات وامتيازات لأهل غرناطة، بعد ما لقيت جيوشه من الصعاب، وما منيت به من الخسائر الفادحة، أمام أسوار مالقة وبسطة، ولأنه كان يعلم أن الحاضرة الأندلسية الأخيرة، تموج بعشرات الألوف من المدافعين، وانه يقتضي لأخذها عنوة بذل جهود مضنية، وتحمل تضحيات عظيمة، ولقد لجأ "فرديناند" إلى جانب إرهاق غرناطة بالحصار الصارم، إلى البذل والرشوة لإغراء الزعماء القادة، وعلى رأسهم "أبو عبد الله"، وذلك لكي يصل إلى تحقيق غايته المنشودة بطريق سليمة مأمونة، وجاءت نصوص المعاهدة السرية مؤيدة لما أشارت إليه الرواية الإسلامية المعاصرة، من ريب وشكوك تحيط بموقف "أبي عبد الله" ووزرائه وقادته.

ملحق رقم (2) *

القصيدة التي أرسلها مسلمو الأندلس إلى السلطان العثماني طلباً لنجدته

سلام كريم دائم متجدّد ... أخص به مولايَ خيرَ خليفةٍ[1]
سلام على مولاي ذي المجد والعُلا ... ومَنْ ألبس الكفارَ ثوبَ المَذَلّة
سلام على من وسّع الله ملكه ... وأيّده بالنصر في كل وِجهة
سلام على مولاي من دار ملكه ... قُسْطنطينيةٍ أكرمْ بها من مدينة
سلام على من زيّن الله ملكه ... بجند وأتراك مِنَ أهل الرِّعاية
سلامٌ عليكُمْ شرّف الله قدرَكُمْ ... وزادكُمْ مُلكاً على كل مِلّة
سلام على القاضي ومَنْ كان مثلَه ... مِنَ العلماء الأكرمينَ الأجلّةِ
سلام على أهل الدِّيانة والتُّقى ... ومن كان ذا رأيٍ مِنَ أهل المشورة
سلام عليكم من عَبيد تخلّفوا ... بأندلس بالغرْب في أرض غُرْبة
أحاط بهم بحر من الرُّوم زاخرٌ ... وبحر عميقٌ ذو ظلام ولُجّة
سلام عليكم من عُبيد أصابهم ... مُصاب عظيم يالَها مِنْ مُصيبة
سلام عليكم من شُيوخ تمزّقت ... شُيُوبهم بالنّتف من بعد عِزّة
سلام عليكم من وجوه تكشّفت ... على جملة الأعلاج من بعد سُتْرة
سلام عليكم من بنات عواتق ... يسوقهم اللُّباط قهراً لخَلْوة[2]
سلام عليكم من عجائز أُكرِهَتْ ... على أكل خنزير ولحم جِيفة
نقبل نحن الكلُّ أرض بساطكم ... وندعو لكم بالخير في كل ساعة

---

* نقلاً عن كتاب محمد حتاملة: التنصير القسري لمسلمي الأندلس، ص93-98.

(1) المقصود بايزيد الثاني سلطان الدولة العثمانية.

(2) اللباط هو الكردينال خمنيس سيسنيروس.

أدام الإله ملككم وحياتكم ... وعافاكم من كل سوء ومحنة

وأيّدكم بالنصر والظفر بالعدا ... وأسكنكم دار الرضا والكرامة

شكونا لكم مولايَ ما قد أصابنا ... مِن الضرّ والبلوى وعظم الرزية

غُدِرنا ونُصِّرنا وبُدِّل ديننا ... ظُلِمنا وعُومِلنا بكلّ قبيحة

وكنا على دين النبي محمد ... نقاتل عُمّال الصليب بنية

ونلقى أموراً في الجهاد عظيمةً ... بقتلٍ وأسرٍ ثم جوع وقلّة

فجاءت علينا الروم[1] من كلّ جانب ... بسيل عظيم جملةً بعد جُملة

ومالوا علينا كالجراد بجمعهم ... بجد وحزمٍ من خيول وعُدّة

فكنا بطول الدهر نَلْقى جموعهم ... فنقتلُ فيها فرقةً بعد فرقة

وفرسانُهم تزداد في كل ساعة ... وفرساننا في حال نقصٍ وقلّة

فلما ضَعُفنا خيّموا في بلادنا ... ومالوا علينا بلدةً بعد بلدة

وجاءوا بأنفاط[2] عظام كثيرة ... تهدم أسوار البلاد المنيعة

وشدوا عليها في الحصار بقوة ... شهوراً وأياماً بجدّ وعزمة

فلما تفانت خيلُنا ورجالنا ... ولم نر من إخواننا من إغاثة

وقلّت لنا الأقوات واشتدّ حالنا ... أطعناهُمُ بالكُرْه خوف الفضيحة

وخوفاً على أبنائنا وبناتنا ... مِنْ أن يؤسَروا أو يقتلوا شر قِتلة

---

(1) الروم: هنا تعني النصارى الذين حاربوا المسلمين من أسبان وغيرهم.

(2) أنفاط: جمع نفط ويقصد بها كل ما يستخدم من آلات وغيرها في الحرق والتدمير.

على أنْ نكونَ مثلَ من كان قبلَنا … من الدَّجْن(1) من أهل البلاد القديمة
ونُبقي على آذانِنا وصلاتِنا … ولا نتركنْ شيئاً من أمرِ الشريعة
ومن شاء منا البحرَ جاز مؤمَّناً … بما شاء من مال إلى أرض عُدْوة
إلى غير ذاك من شروط كثيرة … تزيد على الخمسين شرطاً بخمسة
فقال لنا سلطانُهم(2) وكبيرُهم … لكم ما شرطتم كاملاً بالزيادة
وأبدى لنا كُتْباً بعهد وموثق … وقال لنا هذا أماني وذمّتي
فكونوا على أموالكم ودياركم … كما كُنتُم من قبلُ دونَ أذيّة
فلما دخلنا تحت عَقْد ذِمامهم … بدا غدْرُهم فينا بنقض العزيمة
وخان عهوداً كان قد غرّنا بها … ونصّرنا كُرْهاً بعُنْفٍ وسَطْوة
وأحرقَ ما كانتْ لنا من مُصاحفٍ … وخلّطها بالزِّبل أو بالنجاسة
وكل كتاب كان في أمر ديننا … ففي النار ألقَوْهُ بهُزْءٍ وحَقْرة
ولم يتركوا فيها كتاباً لمسلم … ولا مُصْحَفاً يُخْلى به للقراءة
ومن صام أو صلى ويُعلَم حالُه … ففي النار يُلقُوه على كل حالة
ومَنْ لم يجِئْ منّا لموضع كُفْرِهم(3) … يعاقبُه اللَّبّاط شرَّ العقوبة
ويَلْطِم خدَّيه ويأخذ ماله … ويجعلُه في السجن في سُوء حالة
وفي رمضانٍ يُفْسِدون صيامنا … بأكل وشُرْب مرة بعد مرة

---

(1) الدجن: هم المدخنون من المسلمين الذين عاشوا على دينهم بين الأسبان قبل سقوط غرناطة وانتهى بهم الأمر إلى مصير الأندلسيين الموريسكيين نفسه.

(2) الملك ضون فرديناند الكاثوليكي.

(3) الكنيسة.

وقد أمرونا أن نسبّ نبينا	ولا نذكرنه في رخاء وشدة
وقد سمعوا قوماً يغنّون باسمه	فأدركهم منهم أليمُ المضرّة
وعاقبهم حكّامهم وولاتهم	بضرب وتغريم وسجن وذلّة
ومن جاءه الموتُ ولم يحضر الذي	يذكّرهم[1] لم يدفنوه بحيلة
ويُترك في زبلٍ طريحاً مجدّلا	كمثل حمار ميّت أو بهيمة
إلى غير هذا من أمور كثيرة	قباحٍ وأفعالٍ غزارٍ رديّة
وقد بُدّلتْ أسماؤنا وتحولتْ	بأسماء أعلاج من أهل القبالة
فآهاً على أبنائنا وبناتنا	يروحون للباط في كل غدوة
يعلّمهم كفراً وزوراً وفرية	ولا يقدروا أن يمنعوهم بحيلة
وآهاً على تلك المساجد سوّرتْ	مزابلَ للكفّار بعد الطّهارة
وآهاً على تلك الصوامع علّقتْ	نواقيسُهم فيها نظيرَ الشهادة
وآهاً على تلك البلاد وحسنها	لقد أظلمتْ بالكفر أعظم ظلمة
وصارت لعبّاد الصليب معاقلا	وقد أمِنوا فيها وقوع الإغارة
وصرنا عبيداً لا أسارى نُفتدى	ولا مسلمين نطقهم بالشهادة
فلو أبصرت عيناك ما صار حالُنا	إليه لجادتْ بالدموع الغزيرة
فيا ويلنا، يا بؤسَ ما قد أصابنا	من الضرّ والبلوى وثوبِ المذلّة

(1) القس المعرف قبل الموت.

سألناك يا مولايَ بالله ربِّنا ... وبالمصطفى المختارِ خيرِ البرية

وبالسادة الأخيار آل محمد ... وأصحابه أكرِمْ بهم من صَحَابة

وبالسيِّد العبَّاس عَمِّ نبيِّنا ... وشَيْبته البيضاءِ أفضلِ شيْبة

وبالصالحين العارفينَ بربِّهِمْ ... وكلِّ وليٍّ فاضلٍ ذي كرامة

عسى تنظروا فينا وفيما أصابنا ... لعلَّ إلهَ العرش يأتي برحمة

فقولُكَ مسموعٌ وأمرُك نافذ ... وما قلتَ من شيْءٍ يكون بسرعة

ودينُ النصارى أصلُه تحتَ حكمِكُمْ ... ومن ثَمَّ يأتيهم إلى كل كُورَة

فبالله يا مولايَ مُنُّوا بفضلكم ... علينا برأي أو كلام بحُجَّة

فأنتمْ أولو الإفضال والمجدِ والعلا ... وغوثُ عبادِ الله في كل آفة

فسلْ بابَهُم[1] أعني المقيم برومة ... بماذا أجازوا الغدر بعد الأمانة ؟

وما لَهُمُ مالوا علينا بغدرهمْ ... بغيرِ أذًى منا وغيرِ جريمة

وجنسهُمُ المغلوبُ في حفظ ديننا ... وأمنِ ملوكٍ ذي وفاءٍ أجلَّة

ولم يُخْرَجوا من دينهم وديارهم ... ولا نالهم غدرٌ ولا هَتْكُ حُرْمة

ومَنْ يُعْطِ عهداً ثم يَغْدِر بعهده ... فذاك حرامُ الفعل في كُلِّ ملَّة

ولا سيَّما عندَ الملوك فإنه ... قبيحٌ شنيعٌ لا يجوز بوجهة

وقد بَلَغَ المكتوبُ منكمْ إليهم ... فلم يَعملوا منه جميعاً بكلمة

---

(1) يريد البابا رئيس الدين المسيحي.

وما زادهم إلا اعتداءً وجُرأةً — علينا وإقداماً بكل مَساءة
وقد بلغتْ أرسالُ[1] مصرَ إليهم — وما نالهم غدر ولا هتك حُرمة
وقالوا لتلك الرُّسْل عنا بأننا — رضينا بدين الكفر من غير قَهْرة
وساقوا عقود الزور ممن أطاعهم — ووالله ما نَرْضى بتلك الشَّهادة
لقد كَذَبوا في قولهم وكلامهم — علينا بهذا القول أكبر فِرْية
ولكنّ خوفَ القتل والحرْق ردَّنا — نقول كما قالوه من غير نية
ودينُ رسول الله ما زال عندنا — وتوحيدُنا للَّه في كلِّ لحظة
ووالله ما نرضى بتبديل ديننا — ولا بالذي قالوا منْ أمر الثلاثة[2]
وإن زعموا إنّا رضينا بدينهم — بغير أذى منهم لنا ومساءة
فسلْ وَحْرا[3] عن أهلها كيف أصبحوا — أُسارَى وقتلى تحت ذل ومِهْنة
وسَلْ بِلْفِيقا عن قضية أمرها — لقد مُزِّقوا بالسَّيْف من بعد حَسْرة
ومنيافة[4] بالسيف مزق أهلها — كذا فعلوا أيضاً بأهل البُشَرّة[3]
وأندرّش بالنار أُحرق أهلها — بجامعهم صاروا جميعاً كفحمة
فها نحن يا مولاي نشكو إليكم — فهذا الذي نلناه من شرّ فُرْقة
عسى ديننا يبقى لنا وصلاتنا — كما عاهدونا قبل نقض العزيمة
وإلا فيُجْلُونا جميعاً من أرضهم — بأموالنا للغَرْب دار الأحبة

---

(1) يريد بالإرسال: جمع الرسول والمراد ما بعث به الملك قانصوة الغوري.

(2) المقصود بها الأقانيم الثلاثة: الأب والابن والروح القدس.

(3) بلدة أندلسية كانت في البشرات جنوب غرناطة.

(4) بلدة كانت في البشرات.

ملحق رقم (3)*

رسالة موجهة من أحد فقهاء مراكش إلى الموريسكيين الذين يسميهم الغرباء، وفيها نصائح لهم تتعلق بتمكينهم من ممارسة شعائر الإسلام خفية رغم الاضطهاد، وتاريخها أول رجب سنة 910هـ/الموافق 28 نوفمبر سنة 1504م.

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً إخواننا القابضين على دينهم، كالقابض على الجمر، من أجزل الله ثوابهم فيما لقوا في ذاته، وصبروا النفوس، والأولاد في مرضاته، الغرباء القرباء، إن شاء الله، من مجاورة نبيه في الفردوس الأعلى من جناته، وارثو سبيل السلف الصالح في تحمل المشاق، وإن بلغت النفوس إلى التراق نسأل الله أن يلطف بنا، وأن يعيننا وإياكم على مراعاة حقه، بحسن إيمان وصدق، وأن يجعل لنا ولكم من الأمور فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً.

بعد السلام عليكم، من كاتبه إليكم من عبيد الله أصغر عبيده وأحوجهم إلى عفوه ومزيده، عبيد الله تعالى أحمد بن بوجمعة المغراوي ثم الوهراني كان الله للجميع بلطفه وستره، سائلاً من إخلاصكم وغربتكم حسن الدعاء بحسن الخلقة والنجاة من أهوال هذه الدار، والحشر مع الذين أنعم الله عليهم من الأبرار، ومؤكداً عليكم في ملازمة دين الإسلام آمرين به من بلغ من أولادكم، إن لم تخافوا دخول شر عليكم من إعلام عدوكم بطويتكم فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس، وإن ذاكر الله بين الغافلين كالحي بين الموتى، فاعلموا أن الأصنام خشب منجور، وحجر جلمود، لا يضر ولا ينفع، وأن الملك ملك الله ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من إله، فاعبدوه واصطبروا لعبادته، فالصلاة ولو بالإيماء، والزكاة ولو كأنها هدية لفقيركم أو رياء، لأن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن إلى قلوبكم والغسل من الجنابة ولو عوماً في البحور، وإن منعتم فالصلاة قضاء بالليل لحق النهار، وتسقط في الحكم طهارة الماء،

---

* نقلاً عن كتاب حمادة، محمد ماهر: الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمالي أفريقية، ط2، مؤسسة الرسالة (بيروت، 1986)، ص568-570.

وعليكم بالتيمم ولو مسحاً بالأيدي للحيطان، فإن لم يمكن فالمشهور سقوط الصلاة وقضاؤها لعدم الماء والصعيد إلا أن يمكنكم الإشارة إليه بالأيدي والوجه إلى تراب طاهر أو حجر أو شجر مما يتيمم به، فاقصدوا بالإيماء، نقله ابن ناجي في شرح الرسالة لقوله عليه السلام: فأتوا منه ما استطعتم. وإن أكرهوكم في وقت صلاة إلى السجود للأصنام، أو حضور صلاتهم فأحرموا بالنية وأنووا صلاتكم المشروعة، وأشيروا لما يشيرون إليه من صنم ومقصودكم الله، وإن كان لغير القبلة تسقط في حقكم كصلاة الخوف عند الالتحام، وإن أجبروكم على شرب خمر فاشربوه لا بنية استعماله، وإن كلفوا عليكم خنزيراً فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم ومعتقدين تحريمه. وكذا إن أكرهوكم على محرم، وإن زوجوكم بناتهم فجائز لكونهم أهل الكتاب، وإن أكرهوكم على إنكاح بناتكم منهم فاعتقدوا تحريمه لولا الإكراه، وأنكم ناكرون لذلك بقلوبكم. ولو وجدتم قوة لغيرتموه. وكذا إن أكرهوكم على ربا أو حرام فافعلوا منكرين بقلوبكم. ثم ليس عليكم إلا رؤوس أموالكم وتتصدقون بالباقي إن تبتم إلى الله تعالى. وإن أكرهوكم على كلمة الكفر فإن أمكنكم التورية والألغاز فافعلوا، وإلا فكونوا مطمئني القلوب بالإيمان إن نطقتم بها ناكرين لذلك.

وإن قالوا اشتموا محمداً فإنهم يقولون له "ممد فاشتموا ممدا، تأويل أنه الشيطان، أو ممد اليهود فكثير بهم اسمه، وإن قالوا عيسى ابن الله فقولوها إن أكرهوكم، وأنووا إسقاط مضاف أي عبد الله مريم معبود بحق. وإن قالوا قولوا المسيح ابن الله فقولوها إكراهاً، وانووا بالإضافة للملك كبيت الله لا يلزمه أن يسكنه أو يحل به. وإن قالوا قولوا مريم زوجة له فانووا له بالضمير ابن عمها الذي تزوجها في بني إسرائيل ثم فارقها قبل البناء، قاله السهيلي في تفسير المبهم من الرجال في القرآن، أو زوجها الله منه بقضائه وقدره. وإن قالوا عيسى توفي بالصلب فانووا من التوفية، والكمال، والتشريف من هذه، وإماتته وصلبه، وإنشاد ذكره، وإظهار الثناء عليه بين الناس، وأنه استوفاه الله برفعه إلى العلو. وما يعسر عليكم فابعثوا فيه إلينا نرشدكم إنشاء الله، على حسب ما تكتبون به. وأنا أسأل الله أن يديل الكرة للإسلام حتى تعبدوا الله ظاهراً بحول

الله من غير محنة، ولا وجلة، بل بصدمة الترك الكرام، ونحن نشهد لكم بين يـــدي الله أنكم صدقتم والله ورضيتم به، ولابد من جوابكم والسلام عليكم جميعاً بتـــاريخ غـــرة رجب عام عشرة وتسع ومئة عرف الله خيره.

يصل الغرباء إن شاء الله.

ملحق رقم (4)*

فتوى في صورة سؤال وجهها أحد الفقهاء إلى فقيه المغرب حمد بن يحيى التلمساني حول البقاء في الأندلس للمسلمين أو المهاجرة إليها.

لما سقطت حواضر الأندلس بيد الأسبان هاجر قسم كبير من أهلها إلى المغرب، ولكنهم لم يجدوا فيها ما كانوا يؤملون من حياة سهلة رغدة واحترام، وحنوا للعودة إلى أوطانهم، وقد سمعوا أن ملوك قشتالة يتسامحون مع من بقي من المسلمين من رعاياهم فتمنوا العودة إلى ديارهم القديمة.وقد وجه أحد الفقهاء سؤالاً في صورة فتوى يطلب جوابها إلى أحد رجال الدين البارزين هو الشيخ التلمساني يطلب رأيه في الموضوع.

السؤال:

ما حكم من تمادي من المسلمين في ذلك؟ وما حكم من عاد منهم إلى دار الكفر بعد حصوله في دار الإسلام؟ وهل يجب وعظ هؤلاء أو يعرض عنهم ويترك كل واحد منهم لما اختاره؟ وهل من شرط الهجرة أن لا يهاجر أحد إلا إلى دنيا مضمونة يصيبها عاجلاً عند وصوله جارية على وفق غرضه حيث حل من نواحي الإسلام؟ أو ليس ذلك بشرط بل تجب عليهم الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، إلى حلو أو مر أو وسع أو ضيق أو عسر و يسر بالنسبة لأحوال الدنيا. وإنما القصد بها سلامة الدين والأهل والولد، والخروج من حكم الملة الكافرة إلى حكم الملة المسلمة، إلا ما شاء الله من حلو أو مر، أو ضيق عيش أو سعة، ونحو ذلك من أحوال الدنيا.

جواب السؤال السابق بصورة فتوى من الشيخ أحمد بن يحيى التلمساني الونشريشي عن هذه المسائل:

* نقلاً عن كتاب محمد ماهر حمادة: المرجع السابق، ص 572-574.

1- إن الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام فريضة إلى يوم القيامة، وكذلك الهجرة من أرض الحرام والباطل، وهو يؤيد قوله بطائفة من الأحاديث النبوية.

2- ولا يسقط هذه الهجرة الواجبة على هؤلاء الذين استولى الطاغية على معاقلهم وبلادهم، ولا يتصور العجز عنها بكل وجه وحال، لا الوطن ولا المال فإن ذلك كله ملغي في نظر الشرع. وأما المستطيع بأي وجه كان وبأي حيلة تمكنت، فهو غير معذور وظالم لنفسه إن أقام. والظالمون أنفسهم إنما هم التاركون الهجرة مع القدرة عليها، حسبما تضمنه قوله تعالى: (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها)[1]. والمعاقب عليه إنما هو من مات مصراً على هذه الإقامة.

3- وتحريم هذه الإقامة تحريم مقطوع به من الدين، كتحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وقتل النفس بغير حق ... ومن جوز هذه الإقامة، واستخف أمرها واستسهل حكمها فهو مارق من الدين، ومفارق لجماعة المسلمين؛ ومحجوج بما لا مدفع فيه لمسلم، ومنبوذ بالإجماع الذي لا سبيل إلى مخالفته وخرق سبيله. قال زعيم الفقهاء القاضي أبو الوليد ابن رشد رحمه الله في أول كتاب التجارة إلى أرض الحرب من مقدماته (فرض الهجرة غير ساقط بل الهجرة باقية لازمة إلى يوم القيامة. وأجاب بإجماع المسلمين على من أسلم بدار الحرب أن لا يقيم بها حيث تجري عليه أحكام المشركين، وأن يهجره ويلحق بدار المسلمين حيث تجري عليه أحكامهم).

4- ثم لما نبعت هذه الموالاة النصرانية في المئة الخامسة وما بعدها من تاريخ الهجرة وقت استيلاء ملاعين النصارى - دمرهم الله - على جزيرة صقلية وبعض كور الأندلس سئل فيها بعض الفقهاء، واستفهموا عن الأحكام الفقهية المتعلقة بمرتكبها، فأجاب بأن أحكامهم جارية مع أحكام من اسلم ولم يهاجر، وألحقوا هؤلاء المسؤول عنهم، بالسكوت عن حكمهم بهم، وسووا بين الطائفتين في الأحكام الفقهية المتعلقة بأموالهم وأولادهم، ولم يروا فيها فرقاً بين الفريقين.

---

(1) سورة النساء، الآية 97.